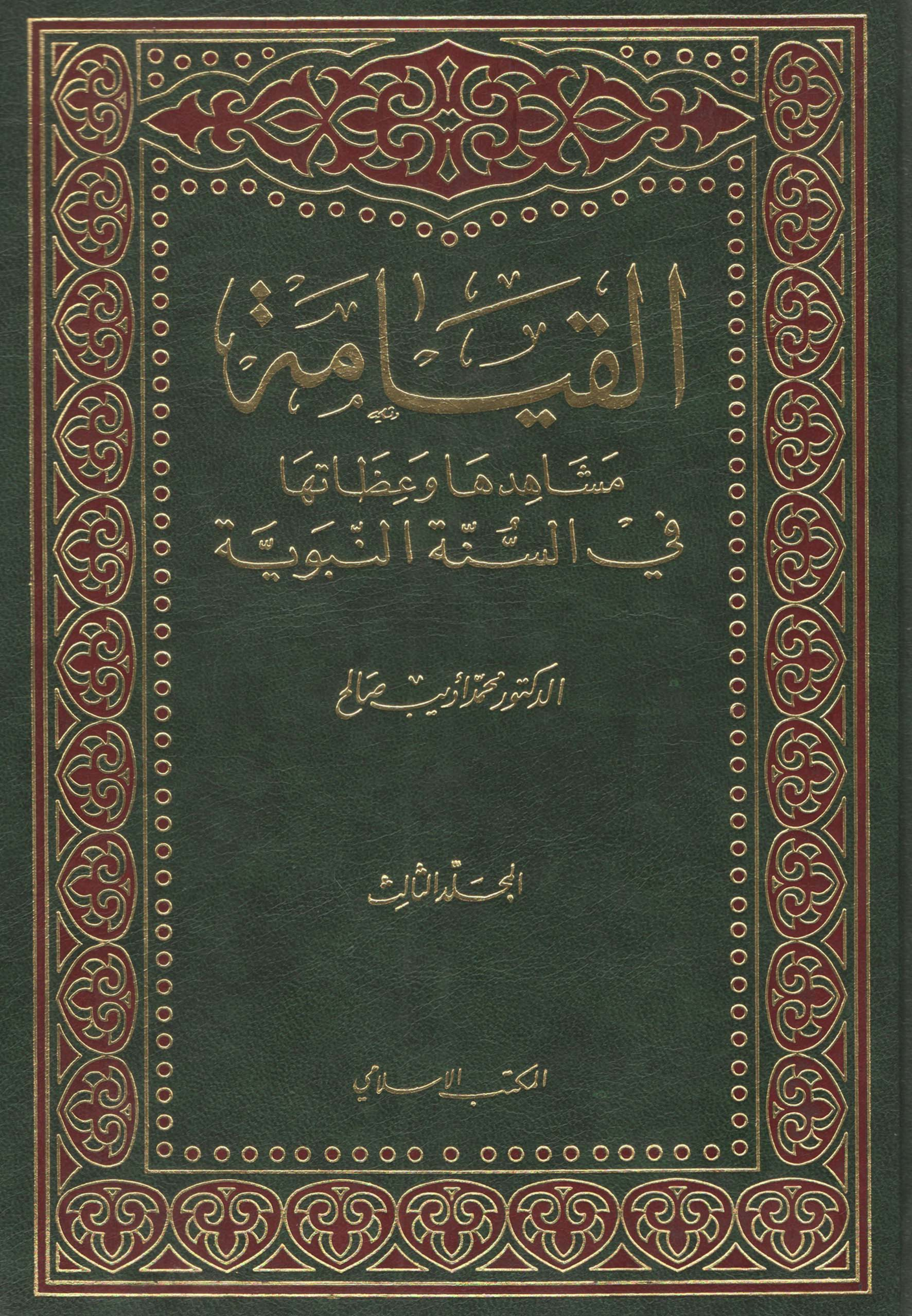
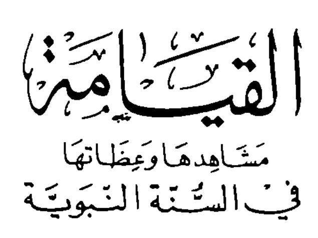
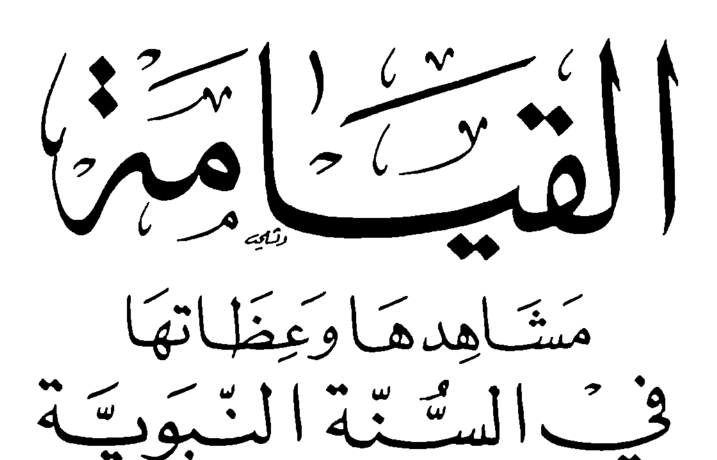

القيامة
مشاهدها وعظاتها
في السنة النبوية
الدكتور محمد أديب صالح
المجلد الثالث
المكتب الإسلامي


القيامة
مشاهدها وعظاتها
في السنة النبوية



الدكتور محمد أديب صالح



المجلد الثالث

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

فلم أرَ كاليوم في الخير والشر

القراءة المتبصرة للهدي النبوي من قبل المؤمن ـ وهو يرتحل في تلك الرياض النضرة من حديث رسول الله ﷺ ـ عنوان خيرية يغبط عليها ويغبط : وعلى الأخص ما يكون من النظرات الإيمانية الواعية فيما جاء عنه عليه الصلاة والسلام ـ وهو المبين لكتاب الله ـ في شأن يوم القيامة والحصاد الذي يكون هناك ؛ فإما جنات تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلُّها ، وإما عذاب السَّموم في نار الجحيم .

وليس بخاف أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه، عندما يخبر عما يكون في يوم الفصل الذي جعله الله ميقاتاً يجمع فيه الأولين والآخرين ، فإنما يبلِّغ ما أمر به من ذلك ، توثيقاً للعلاقة بين العمل في الدنيا وبين المسؤولية يوم الحساب ؛ ولهذه الحقيقة ما لها من انعكاس على انتظام شؤون الحياة ، واستقامة التعامل بين الإنسان والكون ، وبين الإنسان والإنسان ،على المنهج الذي يرضي الله تبارك وتعالى ، ويحقق الخير والعدل ويؤدي ـ بفضل الله ورحمته ــ إلى سعادة الدنيا والآخرة ؛ وسيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه ، لم ينِ يؤدي حق الله في البلاغ والتعليم والتربية على ما يبلِّغ ويعلِّم، حتى لقي الله مستكملاً ما أوجب الله عليه في ذلك ،على خير وجه .

وكان من ثمرات ذلك ، ما رأت الإنسانية من خصائص الجيل الفريد جيل الصحابة رضي الله عنهم ، ثم من تبعهم بإحسان إلى يوم الناس هذا ـ وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ــ من النظرة المتكاملة إلى الدنيا والآخرة جميعاً ، والسلوك الأمثل وفق ما تقتضيه حقيقة أن الدنيا هي الدار العاجلة الفانية متاع الغرور ، وأن الآخرة هي الدار الآجلة الباقية : وهي الحياة الحقيقية لو كان الناس يعلمون . أخرج الإمام البخاري في كتاب الاعتصام من الجامع الصحيح بسنده عن أنس

رضي الله عنه « أن النبـي ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلَّى الظهـر ، فلما سلم، قام على المنبر ، فذكر الساعة وذكر أن بين يديها أموراً عظاماً ، ثم قال : من أحب أن يسأل عن شيء فليسـأل عنه ، فوالله لا تسألـونني عن شيء إلا أخبرتكم بـه ما دمت في مقـامي هـذا . قال أنـس فأكثـر الناس البكـاء، وأكثر رسـول الله ﷺ أن يقول: سلوني : قال أنـس : فقام إليه رجل فقال : أين مُـدْخَلي يارسول الله ؟ قال: النارُ . فقام عبدالله بـن حذافة ، فقال : من أبي يا رسول الله ؟ قـال : أبوكَ حذافة. قال : ثم أكثـر أن يقول : سلوني سلوني ، فبرَكَ عمر على ركبتيه فقـال : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً . قال : فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلـك ، ثم قال رسول الله ﷺ : أوْلى ، والـذي نفسي بيده ، لقد عـرضت عليَّ الجنة والنـار آنفاً في عُـرض هذا الحائط ، وأنـا أصلي ، فلم أر كهـذا اليوم في الخير والشـر » .

هكذا خرج رسول الله ﷺ حين زالـت الشمس ، فصلّى الظهر في أول وقتها ، ثم قـام إلى المنبر بعد أن سلّم من الصـلاة ؛ وذلك لما بلغه ـ كما يقـول العلماء ـ أن قوماً من المنافقين يسألون منه للتعجيز ـ على زعمهم ـ عن بعض ما يسألونه . وقد أثار كـلامه ﷺ مشاعـر الإيمان والخشية في النـاس ،فأكثروا مـن البكاء . ولأبي ذر عند الكُشميهَينـي « فأكثـر الأنصار البكاء » وذلـك خوفاً ممـا سمعوه عـن أهوال القيامة أو من نزول العذاب العام المعهود في الأمم السالفة ـ كما يقول القسطلاني ـ عنـد ردهم على أنبيـائهم ، بسبـب تغيظه صلـوات الله وسلامـه عليه مـن مقالـة المنافقين السابقة آنفاً .

أما عن الـرجل الذي قال : أيـن مُدخلي يارسول الله ؟ فقـال : « النار » فقد جاء في فتح البـاري للحافظ ابن حجر قـوله : (ولم أقف على اسم هـذا الرجل في شيء من الطرق ، كأنهم أبهموه عمداً للستر عليه) وكذلك قال القسطلاني . قال الحافظ : وللطبراني مـن حديـث أبي فراس الأسلمي نحـوه وزاد « وسألـه رجل في الجنة أنـا؟ قال : في الجنـة » ولم أقف على اسـم هذا الآخـر . وقولـه ﷺ : « أَوْلى »

يعني أولا ترضون ، يعني رضيتم أو لا وفي رواية « أولي لكم » أي قرب منكم ما تكرهون قال ابن الأثير :وهي كلمة تلهُّف ، يقولها الرجل إذا أفلت من عظيمة . وقيل : هي كلمة تهدد ووعيد .

والملاحظ أن النبي عليه الصلاة والسلام ، كان حريصاً على الكشف عن أن النار حق ، وأن الجنة حق ، وتنبيه المسلمين على ما يكون في الجنة من الخير ، وفي النار من الشر ؛ ذلكم قوله صلوات الله وسلامه عليه : « والذي نفسي بيده لقد عرضت علي الجنة والنار آنفاً فلم أر كاليوم في الخير والشر » أي لم أبصر يوماً مثل هذا اليوم في الخير الذي رأيته في جنة الخلد ، والشر الذي رأيته في نار الحجيم ؛ قال هذا وهو يتحدث عنهما كأنهما رأي عين .

ولكم تبدو هذه الكلمات الهادية عميقة ومؤثرة ، على ساحة ما يجب من استشعار صادقٍ لأحقية يوم اللقاء ، وما أعدّ الله فيه للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ـ وهو خير كله ـ وما أعدّ للكافرين الظالمين الذين جاهروا الله بالعداوة وظلموا أنفسهم والعباد ـ وهو شر كله ـ .. وما يستتبع ذلك من وجوب الاستقامة، ومداومة العمل خوفاً من عذاب الله ،وطمعاً في رحمته. وحين يأخذ المؤمن نفسه بهذا المنهج الرشيد، يكون على الجادة في أمور دنياه وآخرته، ويكون ـ بفضل الله ـ من الفائزين يوم الدين ، لأن من تمثَّل الجنة والنار بين عينيه، كان ذلك باعثاً له على المواظبة على الطاعة ـ بأوسع معانيها ـ في كل شأن من شؤونه، والانكفاف عن المعصية وكل ما هو منها بسبب ، وذلكم طريق الفلاح والنجاح .

وفي بعض روايات الحديث ما يزيد هذه الحقيقة وضوحاً ، يبلغ بها أعماق النفس عند المؤمن ؛ وفي ذلك ما فيه من الخير .. قال الإمام البخاري : حدثنا إبراهيم بن المنذر قال : حدثنا محمد بن فُليح قال : حدثني أبي عن هلال بن علي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعته يقول : إن رسول الله ﷺ صلى لنا يوماً الصلاة ، ثم رقي المنبر ، فأشار بيده قِبَل قبلة المسجد فقال : قد أُريت الآن ـ

منذ صليت لكم الصلاة ـ الجنة والنار ممثَّلتين في قُبُلِ هذا الجدار ، فلم أر كاليوم في الخير والشر » . وقال في « باب التعوذ من الفتن » من كتاب الفتن : حدثنا معاذ ابن فضالة قال : حدثنا هشام عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال : سألوا النبيَ ﷺ حتى أحفوه بالمسألة ، فصعد النبي ﷺ ذات يوم المنبر فقال : لا تسألوني عن شيء إلا بينت لكم ، فجعلت أنظر يميناً وشمالاً فإذا كلُ رجل رأسه في ثوبه يبكي .. إلى أن قال : ثم أنشأ عمر فقال : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً ومحمد رسولاً نعوذ بالله من سوء الفتن ،فقال النبي ﷺ : «ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط إنه صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط » قال قتادة : يذكر هذا الحديث عند هذه الآية ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم**﴾. وقال عباس النَرسيُّ : حدثنا ـ يزيد بن زُريع قال : حدثنا قتادة أن أنساً حدثهم «أن نبي الله ﷺ حدثهم بهذا وقال : كلُ رجل لافاً رأسه في ثوبه يبكي ، وقال : عائذاً بالله من سوء الفتن ، أو قال : أعوذ بالله من سَوْأى الفتن » .

إنهم رضي الله عنهم يبكون خوفاً من الفتن في الدنيا ، وخوفاً من عذاب الله في الآخرة . وقد كان لذلك ماله من الأثر في حياتهم التي اصطبغت بالجدية في الاستعداد ليوم المعاد ، وتجويد العمل بإخلاص لله عز وجل ، كيما يكون حظ الواحد منهم في الآخرة ، جنةً عرضها السماوات والأرض أعدها الله نُزلاً لأحبائه المتقين . والحديث رواه أيضاً مسلم وأحمد وغيرهما .

لضحكتم قليلاً... ولبكيتم كثيراً

يتقضّى الليل والنهار ، ويتابع الإنسان رحلته مع الحياة إلى أجله المضروب ؛ وفي بُحران هذه الرحلة التي يتشابك فيها الرغَب والرهَب ، واليقظة والغفلة، ضمن مطالب الدنيا ومطالب الآخرة . تتجدد الحاجة أبداً دونها انقطاع إلى تنمية الحوافز التي ترتفع بالمؤمن إلى جو النقاء والصفاء ، ذاك الذي لا يكدره الاغترار بزخرف العاجلة الفانية ، ولا الركون إلى الظلم والظالمين ، والغفلة والغافلين .

إنه جو التطلُّع إلى الجنة مهما غلا الثمن ، والاستعلاء على المعوقات التي تهبط بمن يذعن للباطل وأهله ــ من شياطين الإنس والجن ــ إلى المستوى الذي يتجافى عن طريق طلاب الآخرة ، أولئك الذين صحبهم التوفيق ، فتراهم لا يرضون بمرضاة الله بدلاً ، ولا يبغون عن دار كرامته في الآخرين حِولاً . و إذا ذكرت هذه الحقائق : ذكرت معها القاعدة الصلبة التي يقوم عليها البناء على ساحة الفكر والسلوك ، ومن معالم هذه القاعدة المباركة ـ بعد الإيمان بالله ــ التصديق الجازم بيوم المعاد ، وما يلقّاه العباد فيه ثمرة ما كسبوا واكتسبوا ، حيث يقترب الوعد الحق، ويكشف عن الإنسان الغطاء ، فإذا بصره يومذاك حديد ، وإذا جنات عدن قد أزلفت للمتقين ، و إذا الجحيم قد برزت للغاوين .

ومنذا الذي خالط الحقيقة ، أو بعضاً منها في ثنايا حديث النبي عليه الصلاة والسلام ــ المؤتمن على بيان القرآن ـ بنفاذ بصيرة واستنارة عقل ورقة قلب ، ولا يبصر تلك المعالم الهادية التي تزخر بها الأخبار الصادقة عن اليوم الآخر ،وما يكون في عرصات القيامة ، وما يؤول إليه أمر الخلق بعدها ، والتي تقود من آمن بها وتمسك بمقتضاها ـ كما وعد ربنا ـ إلى خير مستقر وأحسن مقيل ؟! **﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾** .

وقد أوردت من قريب بعضاً مما رواه الإمام البخاري من هديه عليه الصلاة والسلام على ساحة التوجيه إلى تلك المعالم ، حيث أحقية وجود الجنة والنار ، وارتقاء الصحابة رضوان الله عليهم إلى مستوى الانفعال الصادق بذلك البيان، والتأثر البالغ النافع الذي تبدو هيمنته على السلوك في خشية لله تعالى ، ودموع حرّى تذرفُها العيون ، خوفاً من سوء العاقبة ، وأن لا تكون الجنة هي المأوى .

وتقتضينا الرحلة المباركة، اصطحاب روايات أخر عند مسلم وغيره ، تؤكد ما ينفع تأكيده ، وتنير السبيل أكثر وأكثر للصادقين في طلب الفوز الكبير يوم الدين. قال الإمام مسلم : حدثنا محمود بنُ غيلان ومحمد بن قدامة السُّلَمِيُّ ويحيى بن محمد اللؤلؤيُ ـ وألفاظهم متقاربة ـ قال محمد : حدثنا النضر بن شُميل وقال الآخران : أخبرنا النضر قال : أخبرنا شعبة قال : حدثنا موسى بن أنس عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء ، فخطب فقال: «عُرِضت علي الجنة والنار ، فلم أر كاليوم في الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، قال : فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يومٌ أشدُ منه ، قال . غطَّوا رؤوسهم ولهم خنين . قال : فقام عمر فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً . قال: فقام ذلك الرجل فقال : من أبي ؟ قال : أبوك فلان ، فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم﴾.

هكذا اشتد الأمر على أصحاب رسول الله ﷺ بعد قوله عليه الصلاة والسلام: «عرضت علي الجنة والنار ، فلم أر كاليوم في الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، فما أتى عليهم يوم أشد منه ؛ ولذلك كان تأثرهم بالغاً ، فغطَّوا رؤوسهم وهم خنين » لقد فهموا أن سيد العالمين ، الرحمة المهداة ، جزاه الله عن الأمة ما هو أهله ، لم ير خيراً أكثر مما رآه ذلك اليوم في الجنة ، ولا رأى شراً أكثر مما رآه اليوم نفسه في النار ، يقول : ولو رأيتم ما رأيت وعلمتم ما علمت، مما رأيته اليوم وقبل اليوم ،لأشفقتم ـ كما يقول الإمام النووي ـ إشفاقاً بليغاً ، ولقلَّ ضحككم وكثر بكاؤكم . وسرعان ما كان التأثر البالغ ـ كما ألمحنا ـ

إشفاقاً من عذاب الجحيم ، وانهمرتْ دمـوعهم من شدة البكاء ، وغطوا رؤوسهم أدباً مع الله ومع رسوله ولهم خنين .

وقد وردت هذه اللفظة بالخاء والحاء . فالخنين ـ بالخاء ـ صوت البكاء ، وهو نوع من البكاء دون الانتحاب ، قالـوا : وأصل الخنين : خروج الصوت من الأنف كالحنين بالحاء من الفـم ونقل الإمام النووي عن الخليل قوله : هـو صوت فيه غنة كما أشرت من قبـل . وقال الأصمعـي : إذا تردد بكـاؤه فصار في صـوته غنـة فهو خنين ، وقال أبو زيد : الخنين مثل الحنين وهو شديد البكاء .

ولمسلم في روايـة أخرى بسنـده عن ابـن شهاب أنـه قال : أخبرني أنـس بن مالـك أن رسول الله ﷺ خرج حين زالـت الشمس فصلّى لهم صـلاة الظهر ، فلما سلّم قـام على المنبر ، فذكر الساعـة ، وذكر أن قبلها أمـوراً عظاماً ، ثم قـال: من أحـب أن يسألنـي عن شيء فليسـألني عنـه ، فـوالله لا تسألـونني عـن شيء إلا أخبرتكم به مـا دمت في مقامي هذا . قال أنـس بن مالك : فأكثـر الناس البكاء حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ إلى أن قال : فلما أكثر رسول الله ﷺ أن يقول : سلوني ، برك عمر فقال : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، قال : فسكت رسـول الله ﷺ حين قال عمـر ذلك . ثـم قال رسـول ﷺ : أوْلى ، والذي نفس محمـد بيده لقد عُـرضت عليّ الجنة والنـار آنفاً في عُرض هـذا الحائط فلم أر كاليوم في الخير والشر ».

وقول النبي ﷺ أوْلى : أي أو لا ترضون ، رضيتم أوْ لا ـ كما مر سابقاً ـ وعلى أية حال هي ـ كما يقول العلماء ـ للتهديد والوعيد وقيل : كلمة تلهف : فعلى هذا يستعملهـا من نجـا من أمـر عظيم، والصحيـح المشهـور أنها للتهديـد والوعيـد ومعناها قرب منكم ما تكرهونه ومنه قوله تعالى : ﴿ **أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى** ﴾ أي قاربك ما تكره فاحذره ، مأخـوذ من الوَلْي وهو القرب . ومعنى آنفاً : قريباً الساعةَ ... وعُرض الحائط : جانبه .

وليس خفيـاً أن المصطفى صلوات الله وتسليماتـه عليه ، لم يدع عـذراً لمعتذر بعد هذا البيان الشافي ، وما على المؤمن المصدق بما جاء به من لا ينطق عن الهوى، إلا أن يحزم أمره في طـاعة الله وطلب رضوانـه ؛ عبادة وعملاً وجهـاداً ، على هدي العلم النافع والإخلاص لله عز وجل ، وأن يتجنب مواطن الزلل وصحبة الغافلين، لكيلا يكون ممن تسعّر بهم لظى يوم القيامة ، ويقال لهم : ﴿و ذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون﴾ .

مخافة أن يصيبني من لفحها

من الحقائق الناصعة التي تتأكد وتزداد وضوحاً ، كلما طال اصطحاب المرء لنصوص السنة من حديث رسول الله ﷺ ، كما يتضاعف إحساس المؤمن بموقعها على ساحة الهدي النبوي في بيان الفرقان الحكيم ؛ تربية وتعليماً : أنه صلوات الله وسلامه عليه ، قد ترك الأمة في كل ما اؤتمن على تبليغه وبيانه .. على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك . لقد أدى ـ فداه أبي وأمي ـ الأمانة وبلغ الرسالة ، ونصح للأمة ، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين .

ومن هذا الباب : كشفُه ﷺ عما أطلعه الله عليه من الغيب ، وعما يكون في الآخرة من مشاهد يوم الدين ، وما يزخر به من الأمور الجسام ، والجنة وما فيها ، وأحوال أهلها ، والنار وما فيها ، وأحوال أهلها . ولقد وقفتنا من قريب أحاديث أخرجها الإمام البخاري ، وأحاديث أخرجها الإمام مسلم تنصّ على أن النبي ﷺ قال في واحدة من خطبه بعد أن صلى للناس الظهر : « لقد عُرضت علي الجنة والنار آنفاً في عُرض هذا الحائط ولم أر كاليوم في الخير والشر » .

وفي متابعة لاصطحاب النصوص والاستنارة بهديها ، نقع على ما يزيد من جلاء هذه الحقيقة ، وينمي في نفس المؤمن ـ إن شاء الله ـ بواعث العمل، بكل ما يقربه إلى الله زلفى ، ويصل به إلى أن يكون من أهل السعادة في جنةالنعيم خالداً فيها مع الخالدين .. أخرج مسلم وأبو داود والنسائي ـ واللفظ لمسلم ـ قال : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدثنا عبدالله بن نمي وحدثنا محمد بن عبدالله ابن نُمير ـ وتقاربا في اللفظ ـ قال : حدثنا أبي قال : حدثنا عبدالملك عن عطاء عن جابر رضي الله عنه قال : «انكسفت الشمس يوم مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ فقال الناس : إنما انكسفت الشمس لموت إبراهيم ، فقام النبي ﷺ فصلّى بالناس ست ركعات بأربع سجدات ، بدأ فكبّر ، ثم قرأ فأطال القراءة ، ثم ركع

نحواً مما قام ثم رفع رأسه من الركوع ، فقرأ قراءة دون القراءة الأولى ، ثم ركع نحواً مما قام، ثم رفع رأسه من الركوع فقرأ قراءة دون القراءة الثانية، ثم ركع نحواً مما قام، ثم رفع رأسه من الركوع ، ثم انحدر بالسجود ، فسجد سجدتين ، ثم قام فركع أيضاً ثلاث ركعات ليس ركعة إلا التي قبلها أطول من التي بعدها وركوعه نحواً من سجوده ، ثم تأخر وتأخرت الصفوف خلفه حتى انتهينا . وقال أبوبكر : حتى انتهى إلى النساء ثم تقدم وتقدم الناس معه ، حتى قام في مقامه ، فانصرف حين انصرف ـ وقد آضت الشمس ـ فقال : يا أيها الناس إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس ـ وقال أبوبكر : لموت بشر ـ ، فإذا رأيتم شيئاً من ذلك فصلّوا حتى تنجلي . ما من شيء توعدون إلا قد رأيته في صلاتي هذه ، لقد جيء بالنار وذلكم حين رأيتموني تأخرت مخافة أن يصيبني من لفحها ، وحتى رأيت فيها صاحب المحجن يجرُّ قُصْبَه في النار ، كان يسرق الحاج بمحجنه ، فإن فطن له قال : إنما تعلّق بمحجني ، وإن غُفل عنه ذهب به ، وحتى رأيت فيها صاحبة الهرة التي ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خَشاش الأرض حتى ماتت جوعاً ، ثم جيء بالجنة ـ وذلكم حين رأيتموني تقدمت ـ حتى قمت في مقامي ولقد مددت يدي وأنا أريد أن أتناوِل من ثمرها لتنظروا إليه، ثم بدا لي أن لا أفعل ، فما من شيء توعدونه إلا قد رأيته في صلاتي هذه » .

آضت الشمس : رجعت إلى حالها قبل الكسوف وهو من آض يئيض إذا رجع ومنه قولهم: أيضاً وهو مصدر منه. وقوله ﷺ: « مخافة أن يصيبني من لفحها» أي من ضرب لهبها وهو حرُّها ووهجها والعياذ بالله . ومنه قوله تعالى : ﴿**تلفح وجوههم النار**﴾ أي من يضر بهم هبها قالوا : والنفح دون اللفح قال الله تعالى : ﴿**ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك**﴾ أي أدنى شيء منه ، قاله الهروي وغيره .

هكذا نجد أنه ﷺ رأى في جهنم أناساً بأعيانهم تردوا في ظلماتها بسيء أعمالهم ؛ فرأى صاحب المحجن الذي كان يسرق الحاج بمحجنه يجرُّ قصْبَه في النار . قال ابن الأثير : المحجن : الصولجان وليس به ، وفسّره النووي بالعصا

المغففة الطرف . يجر قُصبتـه : القُصْب : واحد الأقصاب وهـي الأمعاء . كما رأى عليه الصلاة والسلام تلك المرأة التي ظلمت القطة بحبسها عن الطعام ، فلا هي أطعمتها ولا هـي تركتهـا تأكـل من خشـاش الأرض . خشاش الأرض : حشراتها وهوامُّها.

وقد روى الحديـث أبو داود مختصراً ، وجاء في روايـة النسائي عن عبـدالله بن عباس رضي الله عنه ـ بعـد الكلام على صلاة الكسوف ـ ثم انصرف ــ يعني النبي عليه الصلاة والسلام ـ وقد تجلت الشمـس فقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله عز وجل ، قالوا : يارسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت ـ يعني تأخرت ـ قال : إني رأيت الجنة أو أُريت الجنة ، فتناولت منها عنقوداً ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيـت الدنيا ، ورأيت النار فلم أر كاليوم منظـراً قط ، ورأيت أكثر أهلها النساء ، قـالوا : لم يا رسول الله بكفـرهن ، قيل : يكفرن بـالله ؟ قال : يكفرن العشير ويكفرن الإحسـان لو أحسنـت إلى إحداهـن الدهـر ثم رأت منـك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط ».

وقـال النسائي أيضـاً : أخبرنا عبـدالله بن محمـد بـن عبدالـرحمن بن المِسْـوَر الزهريُ قال : حدثنـا غُنْدَرُ عن شعبة عن عطاء بن السائب عـن أبيه عن عبدالله ابن عمروٍ قـال : « كسفت الشمس على عهد رسـول الله ﷺ فصلى رسول الله ﷺ فأطال القيام ثم ركـع فأطال الركوع ثم رفع فأطال ــ قال شعبة : وأحسبه قال في السجود نحو ذلك ـ وجعل يبكي في سجوده وينفخ ويقول رب لم تعدني هذا وأنا أستغفرك لم تعـدني هذا وأنـا فيهم ؛ فلما صلى قـال : عُرضـت عليَّ الجنةُ حتـى لو مددت يـدي تناولـت من قطـوفها وعُـرضت علي النـار فجعلت أنفـخ خشية أن يغشاكـم حرّها ورأيت فيها سارق بَدَنَتَيْ رسول الله ﷺ ورأيت فيها أخا بني دُعْدُع سارق الحجيـج فإذا فُطِـن له قـال هذا عمل المحجـن ورأيت فيهـا امرأة طـويلة سوداء تعذب في هرة ربطتهـا فلم تطعمها ولم تسقها ولم تدعها تـأكل من خشاش

الأرض حتى ماتت ، وإن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله فإذا انكسفت إحداهما ـ أو قال فعل أحدهما شيئاً من ذلك ـ فاسعوا إلى ذكر الله عز وجل ».

قال ابن بطال : لم يأخذ العنقود رسول الله ﷺ لأنه من طعام أهل الجنة وهو لا يفنى ، والدنيا فانية ، لا يجوز أن يؤكل فيها مالا يفنى ، وقيل : لأنه لو رآه الناس لكان إيمانهم بالشهادة لا بالغيب ، فيخشى أن يقع رفع التوبة ، فلا ينفع نفساً إيمانها ، وقيل لأن الجنة جزاء الأعمال والجزاء بها لا يقع إلا في الآخرة .

ومهما يكن من أمر : فالأصل الطمأنينة العميقة بالخبر الصادق ، وقفَ المؤمنُ على العلة أم لم يقف ؛ ولابد من ملاحظة أن هذا البيان من رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ، أمانة في أعناق المسلمين حتى قيام الساعة ، وانتفاع الصحابة رضي الله عنهم به ، في رحلة كل منهم مع سنيِّه التي عُمِّرها وهو يخوض معركة الحياة ، مدعاة لأن يعمل المسلم جاهداً في أن يكون على مستوى الانتفاع أيضاً بصنيعهم عليهم الرحمة والرضوان ، وسبحان الموفق لا إله إلا هو العليم الحكيم .

أعوذ بك

من عذاب القبر ومن عذاب النار

مما يتميز بـه أهل التـوفيق الـذين حباهم الله صـدق الإنابـة إليه سبحـانه ، والحرص على المواءمة أبداً بين الإيمان والعمل ، تفاعلُهم العميق مع الذي أخبر به الصادق المصدوق ـ وهو المبلغ عن الله عز وجل ـ وكشف عنه من الحقائق الغيبية التي تحصل يوم القيامة ، فتراهم مع عظيم رجائهم أن يكونوا من أهل الجنة بفضل الله ورحمته : خائفون أشـد الخوف من النار ، وأن يكونوا من حصبهـا ؛ وهو خوف تبدو آثاره في أعمالهم وسلوكهم، حتى كأن النار أمام ناظريهم أبداً ، فهم يرونها رأي العين ، لذا فهم يَحْذرونها ويُحذرون منها .

ولقد حملت إلينا المصادر التي تحدثت عـن الزاهد العابد علم العلماء الأبرار التابعي الثقة مالك بن دينار البصري المتوفى سنة ثلاثين ومائة للهجرة ، قوله يرحمه الله : « لو وجدتُ أعوانـاً لفرّقتهم ينادون في سائر الدنيا كلهـا : يا أيها الناس النارَ النارَ » وفي رواية ؛ « لو استطعت لم أنم مخافة أن ينزل العذاب ، يا أيها الناس النارَ النارَ ». والمقصود : احذروا النار احذروا النار . وهذا يعني أن هذا الرجل المبارك ، قد استنار قلبـه بما هدى إليه الكتاب الكـريم ، وبينه حديـث رسول الله ﷺ على ساحـة التصديـق الجازم بما هو واقـع يوم المعـاد ؛ فهو خـائف أن يكون مـن أهل الجحيم ، وحـريص في الوقـت على النصح لإخوانـه وأخواتـه من أمة محمـد عليه الصلاة والسلام ، كي يعملـوا صالحاً ويسلكوا سبيل النجاة ، والفوز يـوم الدين . وإذا صفا القلب من الشوائب وأخذ المؤمن نفسه بطريق أهل التوفيق ، كان ذلك عنوان الاستنارة بهدي النبي عليه الصلاة والسلام فيما رغب به ورهّب منه ..

وينبغي أن لا يفرط المؤمن في جنب البيان النبوي الشافي الذي بلغ من صدقه

وأحقيته كما أراد الله عز وجل ، أن النبي عليه الصلاة والسلام أخبر ـ كما جاء في الحديث الصحيح ـ أن الله تعالى أراه الجنة والنار وأنه تناول عنقوداً من الجنة، لكنه رأى أن لا يأكله لحكمة أرادها الله ، وقد أوردت عدداً من الروايات في ذلك. ولعل من الخير أن نقف على عدد أكثر منها ،لأن العناية بجمع روايات الحديث أمر بالغ الأهمية ـ في كثير من الأحيان ـ عند العلماء ، لما أنه يعين على مزيد من فقه ذلك الحديث ، واستنباط مدلولاته ، والإحاطة بمراميه قدر المستطاع ، كيما يتسنى للمكلف أن يعمل بالنصوص ويفيد من هديها ، والمفلح الموفَّق من آمن وعمل بالهدي المحمدي ، ولم تلهه الدنيا عن الآخرة ، وحمل نفسه على الجادة تأسياً بالنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام ومن تبعهم بإحسان .

روى الإمام مسلم بسنده عن فاطمة عن أسماء قالت : «خَسَفت الشمس في عهد رسول الله ﷺ فدخلت على عائشة وهي تصلي : فقلت : ماشأن الناس يصلّون ، فأشارت برأسها إلى السماء ، فقلت : آية ؟ قالت : نعم ، فأطال رسول الله ﷺ القيام جداً حتى تجلاّني الغشيُ ، فأخذت قِربة من ماء إلى جنبي ، فجعلت أصب على رأسي ـ أو على وجهي ـ من الماء . قالت : فانصرف رسول الله ﷺ وقد تجلّت الشمس ، فخطب رسول الله ﷺ الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد : ما من شيء لم أكن رأيته إلا قد رأيته في مقامي هذا ، حتى الجنة والنار ، وإنه قد أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور قريباً ، أو مثل فتنة المسيح الدجال ـ لا أدري أيَّ ذلك قالت أسماء ـ فيؤتى أحدكم فيقال : ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن أو الموقن ـ لا أدري أيَّ ذلك قالت أسماء ـ فيقول : هو محمد هو رسول الله جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا وأطعنا ثلاثَ مرار ، فيقال له : نم فقد كنا نعلم إنك لتؤمن به ، فنم صالحاً . وأما المنافق أو المرتاب ـ لا أدري أيَّ ذلك قالت أسماء ـ فيقول : لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت » .

قول أسماء رضي الله عنها : «حتى تجلاّني الغَشي» الغشي : بفتح الغين وسكون الشين ، وروي أيضاً بكسر الشين وتشديد الياء ـ الغَشِيّ وهما بمعنى الغشاوة،

وهو معروف يحصل بطول القيام بالحر وفي غير ذلك من الأحوال ، ولهذا جعلت تصب على رأسها أو على وجهها من الماء . وقد ذهب الإمام النووي إلى أن قولها : «فجعلت أصب على رأسي أو على وجهي من الماء» محمول على أنه لم تكثر أفعالها متوالية ، لأن الأفعال إذا كثرت متوالية أبطلت الصلاة.

ومن لطائف التعبير في الحديث عن سؤال الملكين أنهما يقولان للإنسان: ما علمك بهذا الرجل ؟ والحكمة ـ كما يرى الشراح ـ في أنهما يقولان ما علمك بهذا الرجل ولا يقولان : برسول الله ؟ أن يكون ذلك امتحاناً للمسؤول وإغراباً عليه ، لكيلا يتلقن منهما إكرام النبي ﷺ ورفعَ مرتبته ، فيعظمه هو تقليداً لهما لا اعتقاداً ، ولهذا يقول المؤمن : هو رسول الله ، ويقول المنافق : لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت . فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ورواه مالك في الموطأ .

هذا : وفي بعض الروايات عند مسلم من رواية أسماء رضي الله عنها تفصيل رأينا نظيره عند النسائي من رواية عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ؛ فقد جاء في هذه الرواية قول أسماء بعد الكلام على صلاة الكسوف كيف صلاها النبي عليه الصلاة والسلام : « ثم انصرف وقد انجلت الشمس ، فقال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك ، فاذكروا الله. قالوا : يارسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ، ثم رأيناك كففت، فقال : إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ، ورأيت النار فلم أر كاليوم منظراً قط ..» الحديث. وقد جاء في بعض الروايات «تكعكعت» بدل « كففت » والمعنى : توقفت وأحجمت . ولا يخفى ما في تلكم النصوص المباركة ، من تنبيه المؤمنين على أن المساءلة تبدأ من سؤال القبر؛ فقد ذكّر رسول الله ﷺ بذلك وأخبر بما أخبر عن الجنة والخير فيها وعن النار والشر فيها .

ثم إنه لابد من الإشارة إلى أنه قد جاء في بعض روايات الحديث، استعاذته

ﷺ من عذاب القبر ومن عذاب النار جميعاً . روى الدارمي بسنده عن عمرة بنت عبدالرحمن عن عائشة رضي الله عنها « أن يهودية دخلت فقالت : أعاذك الله من عذاب القبر ، فلما جاء النبي ﷺ سألته أيعذب الناس في قبورهم ؟ قال : عائذاً بالله ، قالت : إن رسول الله ﷺ ركب يوماً مركباً فخَسَفت الشمس فجاء النبي ﷺ فنزل ثم عمد إلى مقامه الذي كان يصلي فيه ، فقام الناس خلفه ... إلى أن تقول : ثم تجلت الشمس فدخل علي فقال : إني أراكم تفتنون في قبوركم ، كفتنة الدجال، سمعته يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من عذاب النار ».

وإنا نعوذ بالله مما استعاذ منه النبي عليه الصلاة والسلام ، نعوذ به ــ جل شأنه ـ من عذاب القبر ، ونعوذ به من عذاب النار ، ونسأله أن يتفضل علينا برحمته ويغفر لنا خطيئاتنا يوم القيامة إنه البر الرؤوف الرحيم .

يغبطهم الأولون والآخرون

إذا ذكر النعيم المقيم في جنة الخلد التي وعد المتقون ، وذكر العذاب الأليم لأهل الضلالة في نار السعير ، تحركت في قلب المؤمن نوازع الرجاء والخوف ، وسارع إلى سلوك السبيل التي يكون معها ـ برحمة الله ـ من أهل الفوز بالجنة والنجاة من النار ، ولن يكون ذلك إلا بحسن التعامل مع حقيقة أن الآخرة هي دار البقاء ، وأن الدنيا هي دار الفناء ، وأن العاقل الفهِم هو الذي يكون ـ وهو يكدح ويتحرك وفق سنن الله في الحياة ـ من طلاب الآخرة ، فهو يعمر الأرض ، ويبني القوة التي تعود عليه وعلى أمته بالنفع، ويحمي حمى الإسلام ، ولا يني يسهم في بناء الحضارة الإسلامية التي تسعد الإنسان في الدنيا ويوم الدين .. كل أولئك بنية خالصة ، وطلب لمرضاة الله عز وجل ، وسعي حثيث لأن تكون الجنة هي المأوى وإدراكٍ لواحدة من المسلّمات ؛ وهي أنه مهما عمل العبد في هذه الدار ، فلا بد له من رحمة الله عز وجل ولطفه وإحسانه ، فالعمر محدود ، والآجال بيده سبحانه ، ونعمه على عباده لا تحصى ، ومننه لا تستقصى .

قال الإمام الطبراني : حدثنا علي بن عبدالعزيز قال : حدثنا محمد بن عمار الموصلي قال : حدثنا عتبة بن سالم عن أيوب بن عتبة ، عن عطاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : «جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام : سل واستفهم فقال : يا رسول الله فضلتم علينا بالصور والألوان والنبوة ، أفرأيت إن آمنتُ بما آمنتَ به وعملت بمثل ما عملتَ به إني لكائن معك في الجنة ، قال : نعم والذي نفسي بيده ، إنه ليرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام ، ثم قال رسول الله ﷺ : من قال : لا إله إلا الله كان له بها عهد عند الله ، ومن قال سبحان الله وبحمده كتبت له مائة ألف حسنة ، فقال رجل: كيف نهلك بعدها يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الرجل ليأتي يوم

القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله ، فتقوم النعمة ـ أو نعم الله ـ فتكاد تستنفد ذلك كله ، إلا أن يتغمده الله برحمته ، ونزلت هذه السورة ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر** ﴾ إلى قوله :﴿ **ملكاً كبيراً** ﴾ فقال الحبشي : وإن عيني لترى ما ترى عيناك في الجنة ؟ قال : نعم ؛ فاستبكى حتى فاضت نفسه . قال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يُدليه في حفرته بيده» هكذا أورده الحافظ ابن كثير وقال: غريب جداً .

على أن المؤمن ـ وهو يسهم في حركة الحياة ضمن عمره المحدود ، امتثالاً لأمر الله عز وجل ، وإفادة مما أكرم الله به الإنسان من تسخير ما سخره له ـ لاينسى ما وُعد به من العطاء الإلهي في دار الكرامة ، وأن عليه إن أراد أن يكون أهلاً لهذا العطاء، أن يأخذ نفسه بطريق أهل الجد والعزيمة في طاعة الله تعالى والجهاد في سبيله ، ذاكراً قوله سبحانه : ﴿ **وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً** ﴾ وقد ثبت في الصحيح ـ كما سلف من قبل ـ أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها ، وآخر أهل الجنة دخولاً إليها : « إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها » . وقد أوردت في مناسبة أخرى عدداً من الروايات للحديث المروي عن ثوير بن فاختة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه » قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : فإذا كان هذا عطاءه لأدنى من يكون في الجنة ، فما ظنك بما هو أعلى منزلة وأحظى عنده تعالى ؟!.

هذا : وحديث ابن عمر الذي تقدم من قبل أورده المنذري في «الترغيب والترهيب» بلفظ « أن رجلاً من الحبشة أتى النبي ﷺ فقال : يارسول الله فضلتم علينا بالألوان والنبوة ، أفرأيت إن آمنت بمثل ما آمنت به وعملت ما عملتَ به إني لكائن معك في الجنة ؟ فقال النبي ﷺ : نعم ثم قال عليه الصلاة والسلام : من قال : لاإله إلا الله ، كان له بها عهد عند الله ، ومن قال : سبحان الله كتب له مائة ألف حسنة . فقال رجل : يا رسول الله ، كيف نهلك بعد هذا ؟ فقال النبي

ﷺ : والذي نفسي بيده إن الرجل ليجيء يوم القيامة بعمل لو وضع على جبل لأثقله ، فتقوم النعمة من نعم الله فتكاد تستنفد ذلك كله لولا ما يتفضل الله من رحمته ، ثم نزلت ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ إلى قوله: ﴿ وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴾ فقال الحبشي : يا رسول الله ، وهل ترى عيني في الجنة مثل ما ترى عينك ؟ فقال النبي ﷺ : نعم، فبكى الحبشي حتى فاضت نفسه. قال ابن عمر : فأنا رأيت رسول الله ﷺ يدليه في حفرته» . قال المنذري : رواه الطبراني من رواية أيوب بن عتبة . وأورده السيوطي في كتاب «الدر المنثور » منسوباً إلى الطبري ، وابن مردويه وابن عساكر .

ومهما يكن من أمر : فإن موائد الخير منصوبة يرتادها الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أولئك الذين يفوزون بالموعود من كرم الله عز وجل وفضله يوم المعاد ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾. أجل يفوزون بذلك الموعود من عطاء من لا تنفد خزائنه سبحانه وتعالى . وتشهد الخلائق يوم القيامة ، ما يفيض عليهم جل شأنه من الخير ، وما يجزيهم به في جنات النعيم التي هم فيها خالدون. قال الإمام الترمذي : حدثنا أبو كريب قال : حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي اليقْظان عن زاذانَ عن عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة على كثبان المسك ــ أُراه قال : يوم القيامة ـ يغبطهم الأولون والآخرون : رجلٌ ينادي بالصلوات الخمس في كل يوم وليلة ، ورجل يؤم قوماً وهم به راضون ، وعبدٌ أدى حقَ الله وحق مواليه » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سفيان الثوري. وأبو اليقْظان اسمه عثمان بن عمير ، ويقال : ابن قيس .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه « أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ بعرفة ، فدنا منه حتى اختلفت عنق راحلته مع عنق راحلة رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أنبئني بعمل ينجيني من عذاب الله ويدخلني الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ : اعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وأقم الصلاة ، وأدِّ الزكاة ، وصم رمضان ، وحج واعتمر ، وانظر ما تحب من الناس أن يأتوه إليك فافعله ، وما تكره من الناس أن

يأتوه إليك فذره » أخرجه رزين .

والله نسأل أن يبصرنا بدينه ويهدينا سواء السبيل . وصلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة الذي هدى أمته الى الصراط المستقيم ووضعها على المحجة البيضاء في دينها ودنياها وآخرتها وعلى آله وصحابته ومن اتبع هداه إلى يوم اللقاء .

حصائد الألسنة.. والكب في النار

حقيقة الارتباط الوثيق بين الترغيب بما أعد الله لعباده الصالحين في الآخرة ، والترهيب مما توعد به من يجاهرونه بالعداوة ويستكبرون عن عبادته ، وبين الشعور بالمسؤولية في الحياة الدنيا : حقيقة لابد أن تعمل عملها في انتظام السلوك عند الفرد ، والبناء الذاتي على شريعة الله في المجتمع ، لما أنها سبيل الانضباط بضوابط الحق ، وأخذ النفوس بأخلاق أهل الآخرة ؛ من أجل هذا كانت حقيقةً يأسى على الغفلةعنها المؤمن ، ولا ينكرها إلا مكابر ، يغلبه هواه ، أو متجاهل لايعبأ بدلالات النصوص ، فضلاً عن أن يكون هذا المنكِرُ فريسة لما يوحي به شياطين الإنس والجن من زخرف القول والضلال المبين .

ولا تثريب على من يقرر ذلك الارتباط ، أن يؤكد ما كان له عبْرَ التاريخ من أثر بالغ في تكوين شخصية المسلم ، وبنائها على أخذ المنهج الرباني بقوة ،وإتقان العمل والإخلاص فيه ، مهما كان الثغر الذي أقامه الله تعالى عليه ، وهو يتعاون مع إخوانه على البر والتقوى ويسهم ـ حسب تخصصه وطاقته ـ في بناء المجتمع المسلم المتكامل ، والحضارة الإسلامية الرشيدة .

ومن شاء الاستزادة من المعرفة على هذه الساحة ، فلينظر ما جاء في كتاب الله وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، حيث أعطى النبي ﷺ ـ وهو إمام المربين وسيد الحكماء والمبين عن الله تعالى ـ قضية الفوز بالجنة والنجاة من النار ، ونشدان رضوان الله تبارك وتعالى في كل ما يأتي المؤمن ويذر ، مكانها اللائق في منهجه الذي سلكه لتبليغ الرسالة ، وتربية المسلم على مفهوماتها ، كي يعمل ويجاهد لتحقيقها في نفسه وفي المجتمع .

وددت أن أقدم لرحلة اليوم بهذه الكلمات التي ما أحسبها من مكرور القول،

وأنا أقرأ شيئاً من سيرة خامس الراشدين عمر بن عبدالعزيز ، وأنظر في بعض كلماته رحمه الله وأجزل مثوبته في الآخرين ، حيث اتخذ من مخافة الله واليوم الآخر والرغبة في النجاة من عذاب الله ، والفوز بالجنة ، سلاحاً يقود به نفسه إلى ساحة العدل والرحمة ، ومذكراً يذكره بمسؤوليته عن كل فرد من أفراد الرعية . جاء في «الحلية »لأبي نعيم و « سير أعلام النبلاء » للذهبي وغيرهما : أن عطاء بن أبي رباح رحمه الله قال : «حدثتني فاطمة امرأة عمر بن عبدالعزيز أنها دخلت عليه ، فإذا هو في مصلاّه يدُه على خده ، سائلةٌ دموعه ؛ قالت : فقلت : يا أمير المؤمنين ! ألشيء حدث ؟ قال : يا فاطمة إني تقلدت أمر أمة محمد ﷺ ، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع ، والعاري المجهود ، والمظلوم المقهور ، والغريب المأسور ، والكبير، وذي العيال في أقطار الأرض، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ ، فخشيت ألا تثبت لي حجة عند خصومته فرحمت نفسي فبكيت ».

أرأيت إلى هذا الإحساس العميق بما هو كائن يوم القيامة، من أن الله سائله عمن ولاّه الله أمرهم .. ثم أرأيت إلى هذه الخشية من انعدام الحجة في الخصومة يوم الوعيد ، حيث المصير إما إلى الجنة وإما إلى النار !! أكان عجباً بعد هذا أن يرحم عمر نفسه فيبكي ؟ ويحرص ــ جزاه الله عن المسلمين كل خير ــ على أن تسري روح الشعور بالمسؤولية بين المسلمين ، وأن يتخذوا من ذكر الموت حاجزاً عن العبث وحب الدنيا وإضاعة الوقت بما لا ينفع .

قال الأوزاعي رحمه الله : « كتب إلينا عمر بن عبدالعزيز رسالة لم يحفظها غيري وغير مكحول: أما بعد : فإنه من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ، ومن عدّ كلامه من عمله ، قلَّ كلامه إلا فيما ينفعه والسلام » وها نحن أولاء نجده رحمه الله يتوق ويتطلع فيما يريد إلى خاتمة المطاف دار المقامة في الآخرين . فأين نعيم الدنيا الزائل من النعيم المقيم في دار الخلود ؟ قالت جويرية بنت أسماء : قال عمر بن عبدالعزيز : « إن نفسي تواقة ، وإنها لم تُعطَ من الدنيا شيئاً إلا تاقت

إلى ما هو أفضل منه ، فلما أعطيت مالا أفْضَلَ منه في الدنيا ، تاقت إلى ما هو أفضلُ منه « يعني الجنة » .

والنفس التواقة إلى الجنة تفزعها معالجة الأغلال في جهنم . وانعكاسُ ذلك على تصرفات الإنسان ـ حاكماً كان أو محكوماً ـ في توجيهها وجهة الخير خشية عذاب الله ونقمته من الظالمين ، دليل الإيمان وقوة اليقين . عندما لم يتوافر لديه ـ أعلى الله مقامه ـ شيء يسيرٌ من المال ليشتري به عنباً ، سئل عن ذلك فقال : هذا أهون من معالجة الأغلال في جهنم . إنه لمشهد من مشاهد القيامة بالغ التأثير حقاً .. مشهد من يتقدمون موكب الأبرار إلى الجنة ، وفيهم عمر بن عبدالعزيز إن شاء الله ، وهناك تعلن الحقيقة إعلانها ، مؤذنة بصدق الارتباط بين القيام بالمسؤولية حق القيام في الدنيا ، وبين الإيمان بيوم الحساب وما يكون فيه من العاقبة لكلٍ بما عمل؛ إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

هذا : والحديث موصول بما نحن بصدده ، من التماس الهداية التي ترسم المنهج وتحدد المسار على هذه الساحة في توجيه النبي عليه الصلاة والسلام . هذا واحد من كبار الصحابة عليهم الرضوان يرجو رسول الله ﷺ أن يخبره بعمل يدخله الجنة ويباعده من النار ، ويمتد الحديث إلى الوعيد بجهنم على الكلام الباطل ولَقْلَقة اللسان به . قال الإمام الترمذي : حدثنا ابن أبي عمر قال : حدثنا عبدالله بن معاذ الصنعاني عن معمر عن عاصم بن أبي النُجود عن أبي وائل عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : «كنت مع النبي ﷺ في سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير . فقلت : يارسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال : لقد سألتني عن عظيم ، وإنه ليسيرٌ على من يسَّره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت. ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنـةٌ . والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار . وصلاة الرجل من جوف الليل . قال : ثم تلا ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ حتى بلغ ﴿ **جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ ثم قال : ألا أخبرك برأس

الأمر كلِه ، وعموده ، وذِرُوة سَنامه ؟ قلت : بلى يارسول الله ، قال: رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذِرُوة سنامه الجهاد . ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا نبي الله . فأخذ بلسانه فقال : كُفَّ عليك هذا ، فقلت: يا نبي الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يُكبُّ الناسَ في النار على وجوههم ـ أو على مناخرهم ـ إلا حصائدُ ألسنتهم ؟» قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه أحمد والنسائي وابن ماجة .

رأس الأمر الإسلام : أي الإتيان بالشهادتين؛ فهما للدين بمنزلة الرأس من الجسد ، قالوا : وهو من باب التشبيه المقلوب ، إذ المقصود تشبيه الإسلام برأس الأمر ، ليشعر بأنه من سائر الأعمال بمنزلة الرأس من الجسد، في احتياجه إليه وعدم بقائه دونه . الذروة بكسر الذال وهو الأشهر وبضمها وحُكي فتحها : أعلى الشيء .. والسَّنام بفتح السين: ما ارتفع من ظهر الجمل قريب عنقه . والمِلاك في قوله: « بملاك ذلك كله » ما به إحكام الشيء وتقويته .

والآيتان الكريمتان هما قوله تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ .

هكذا دلّ الرسول ﷺ على ما يوصل إلى الجنة ، وعلى ما يوصل إلى النار كما نبّه على واحد من أسباب الكب في جهنم وبئس المصير .

اللهم ارزقنا طاعتك وطاعة رسولك ،واجعلنا برحمتك ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، واسلك بنا السبيل التي تزحزحنا عن النار وتدخلنا الجنة ، أنت المستعان وبك المستغاث ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

عودة

إلى حصائد الألسنة والكب في النار

حديث الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه الذي طلب فيه من النبي ﷺ إخباره بعمل يدخله الجنة ويباعده من النار ، دلنا من قريب على أن من مشاهد القيامة مشهد أولئك الذين يُكَبّون في النار على وجوههم – أو على مناخرهم – فتراهم يتدهورون في أعماقها يحطم بعضهم بعضاً ، بحيث لا يسقط واحد على وجهه أو على منخره إلا ويلحق به صاحبه على صورة مفزعة مرعبة ، ويزيد من شدة هذا المشهد وتأثيره البالغ ، أن قوامه إصابةُ المرء في وجهه ، وهو أبرز ما في الجسم ، والصورةُ الأولى لاكتماله وحسن تقويمه ، بحيث يحصل هذا الانكباب على المناخر ، وكأن أصحابها لا يعون .

والسبب في ذلك عدم حفظ اللسان ، فترى الهُجر من القول ، والغيبة ، والنميمة ، والإفساد بين الناس ، والافتراء على الآخرين ، والكلام الفاحش البذيء وغير ذلك ، ناهيك عما يكون من الشرك أو بريده والعياذ بالله .. وليس ضرورياً أن يجتمع هذا كله فقد يكون بعضه أو الأقل منه ، ولكنه يقع على الصورة التي تؤدي بصاحبها إلى جهنم وبئس المهاد . وقد جاء النص على هذا المشهد – كما رأيناه عند الإمام الترمذي رحمه الله – بقوله ﷺ لمعاذ بعد أن بين له رأس الأمر كله وعمودَه وذُروة سَنامه : «ألا أخبركَ بمِلاك ذلك كله ؟ فقال معاذ : قلت بلى يا نبي الله ، فأخذ ﷺ بلسانه ، فقال : كُفَّ عليك هذا . فقلت : يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكبُ الناسَ في النار على وجوههم – أو على مناخرهم – إلا حصائد ألسنتهم ؟» وفي رواية لابن ماجة «ثم قال: ألا أخبرك بمِلاك ذلك كله ؟ قلت : بلى . فأخذ بلسانه فقال : تكف عليك هذا . قلت : يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : ثكلتك أمك يا معاذ : هل

يكبُّ الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم ؟؟».

قال الراغب في كتابه « المفردات » : الكبُّ : إسقاط الشيء على وجهه قال تعالى : ﴿ **فكُبَّت وجوههم في النار** ﴾ والإكباب جعل وجهه مكبوباً على العمل قال تعالى : ﴿ **أفمن يمشي مُكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم** ﴾ والكبكبة: تدهور الشيء في هوة قال تعالى : ﴿ **فكبكبوا فيها هم والغاوون** ﴾. يقال : كبَّ وكبكب نحو كفّ وكفكف .

والملاحظ هنا ، أن كلام النبي ﷺ في الوعيد على عدم حفظ اللسان ، نوع من البيان لما أشارت إليه الآية التسعون من سورة النمل وهي قوله جل شأنه : ﴿**ومن جاء بالسيئة فكُبّت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ وقد ذهب الحافظ ابن كثير الى أن المعنى: من لقي الله مسيئاً لا حسنة له أوقد رجحت سيئاته على حسناته كلٌ بحسبه ؛ ولهذا قال : ﴿**هل تجزون إلا ما كنتم تعملون**﴾ وإذا كان هذا من العموم ، فسقطات اللسان من الخصوص ، ومنها ما يكون سبباً لكب الوجه في النار .

والحق أن هذه الآية الكريمة التي نرى في الحديث بعضاً من بيانها ، تمثل مع الآية التي سبقتها ، قانوناً إلهياً عادلاً ، وفعل الله كله عدل ورحمة . والآية التي سبقتها : هي الآية التاسعة والثمانون من سورة النمل أعني قوله تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها وهم من فزع يومئذ آمنون** ﴾ . هذا ما قضت به إرادة الله وجزاؤه الحكيم . من يعمل الحسنات ، يشكرها الله له فيجزيه في الدنيا والآخرة خيراً منها ، ويأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة . أما الذين يعملون السيئات: فجزاؤهم أن تكبَّ وجوههم في النار جزاءً بما كانوا يعملون . وقد روى الإمام الطبري عن ابن مسعود وأبي هريرة وابن عباس وأنس بن مالك رضي الله عنهم ، وعدد من التابعين رحمهم الله في قوله : « من جاء بالسيئة » يعني بالشرك . وقد رأينا عند الراغب الأصفهاني ـ وهو رأي علماء اللغة ـ أن كبَّ وكبكب بمعنىً ، ولذلك يُذكر ما جاء في سورة الشعراء من بيان مشرق وضاء لعاقبة كلٍ من المتقين

والغاوين يوم المعـاد ؛ وهو بيان يحمل في طياته الكثير من الوعـد والوعيد ، ذلكم قوله سبحانه : ﴿**وأزلفت الجنة للمتقين . وبرِّزت الجحيم للغاوين . وقيل لهم أين مـا كنتم تعبـدون . مـن دون الله هل ينصرونكـم أو ينتصرون . فكُبكِبـوا فيها هـم والغاوون. وجنود إبليس أجمعون**﴾ . من الآية ٩٠ إلى الآية ٩٥.

قال مجاهد : يعني فدُهوِروا فيها . قالوا : تدهور تدهوراً : سقط من أعلى إلى أسفل وهو مأخوذ من تدهور الرمل إذا انهال وسقط أكثره . ودهور الحائط : دفعه فسقط . وقال الزجاج : ﴿ **فكبكبوا فيها هم والغاوون** ﴾ أي في الجحيم ، ومعنى كبكبوا : طـرح بعضهم على بعـض . وقال آخـرون ـ ومنهـم الراغـب كما سبق ـ كبكبوا أي كُبّوا فيهـا والكاف مكررة ، كما يقال . كـفّ وكفكف . وصرَّ وصرصر . والمراد أنه ألقي بعضهـم على بعض ؛ولا تسل عما يكون عليه هـذا المشهد المرعب الذي أشـار الرسول ﷺ إليـه وهو يحذر معـاذاً رضي الله عنه من حصـائد اللسان بقوله : « وهـل يكبُّ الناسَ في النار على وجـوههم أو على مناخرهـم إلا حصائد ألسنتهم »؟! إنه استفهام إنكاري يعني النفي . وإن هذا التعبير الموحي المؤثر وما هو على شاكلته من كلام سيد المرسلين : لون من ألوان بلاغته الفاذّة عليه الصلاة والسـلام ؛ فلقد أوتي جـوامـع الكلم واختصر لـه الكـلام اختصاراً ، فتراه يـؤدي المعاني العميقـة الغزيـرة بألفـاظ قليلة لا يعوزهـا شيء من الفصـاحة والنصـاعة والجمال .

هذا : ومما تجدر الإشـارة إليه : أن في بعض روايات الحديـث عند أحمد رحمه الله نوعـاً من التفصيل ، يـزيد الأمر بيـاناً ويكشف عـن شديد حـرص معاذ على اغتنام الوقت مع رسول الله ، كما يكشف عن الحقبة الزمنية التي حصل فيها ذلك الحوار المبارك بين النبي عليـه الصلاة والسلام وبين ذلك الصحـابي الجليل رضي الله عنه. قال الإمـام أحمد : حدثنا محمد بن جعفـر قال : حدثنا شعبـة عن الحكم قال : سمعت عروة بن النزال يحدث عن معاذ بن جبل قال : « أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غـزوة تبوك ، فلما رأيتـه خلياً قلـت : يا رسـول الله أخبرني بعمل يـدخلني

الجنة ، قال : بخ لقد سألت عـن عظيم ، وهو يسير على من يسَّره الله عليه ؛ تقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفـروضة ، وتلقى الله عز وجل لا تشرك به شيئاً . أولا أدلك على رأس الأمر وعموده وذُروة سَنامه ؟ أما رأس الأمر : فالإسلام ، فمن أسلم سلِم ، وأما عمـوده : فالصلاة ، وأما ذِروة سَنامه : فـالجهاد في سبيل الله . أو لا أدلك على أبواب الخير ؟ الصـوم جُنة ، والصدقة تطفيء الخطيئـة ، وقيام العبد في جوف الليل يكفـر الخطايا ، وتلا هـذه الآية : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾. أو لا أدلك على أمْلَكِ ذلك لك كله ؟ قال : فأقبل نفر ، قال : فخشيت أن يشغلوا عني رسول الله ﷺ قال شعبة : أو كلمةً نحوها . قال : فقلت : يا رسـول الله قولك : أو لا أدلك على أملك ذلك لك كله ! قال : فأشار رسول الله ﷺ بيـده إلى لسانه . قال : قلت : يا رسول الله ، وإنا لنـؤاخذ بما نتكلـم به ؟ قـال : ثكلتك أمـك معاذ ، وهـل يكبُّ النـاس على مناخرهم إلا حصـائد ألسنتهم ؟ قال شعبة : قال لي الحكم : وحـدثني به ميمون ابن أبي شبيب . وقال الحكم : سمعته منه منذ أربعين سنة » .

قوله « على مناخرهم » وفي روايات سبقت «على وجوههم » شك من الراوي. المنـاخر جمع منخِـر بفتح الميـم وكسر الخاء وفتحها : ثقـب الأنف . والاستفهـام للنفي ـ كما أسلفنا ـ ، وخصهما بالكب لأنهما أول الأعضاء سقوطاً . وقال صاحب «تحفة الأحـوذي» بشرح جـامـع الترمـذي(٧/ ٣٦٥) عنـد قـولـه «إلا حصـائد ألسنتهم» أي محصوداتها ؛ شبه ما يتكلم به الإنسان بالزرع المحصود با لمنجل، وهو مـن بلاغـة النبوة؛ فكما أن المنجـل يقطع ولا يميـز بين الـرطب واليـابس والجيـد والرديء ، فكذلك لسان بعض الناس، يتكلـم بكل نوع من الكلام حسناً وقبيحاً . والمعنى: لا يكبُ النـاس في النار إلا حصاد ألسنتهم من الكفـر والقذف والشتم والغيبة والنميمة والبهتان ونحوها .

جزى الله عنا نبينا محمـداً ﷺ ما هو أهله ، وآتاه الله الوسيلـة والفضيلة وبعثه المقام المحمود وجنَّبنا كلَّ ما يكون سبباً للكبِّ في النار ، وجعلنا ـ برحمته ـ من أهل دار النعيم .

سجن المؤمن... وجنة الكافر

من علامات صدق الإيمان : أن يكون المسلم أحرص ما يكون على النجاة يوم القيامة من عذاب الله ، والفوز بالنعيم المقيم في جنات عدن التي وعد الله عباده المقربين. ذلك بأن هذا الحرص المبارك يحول ـ بعون الله ـ دون العبد ودون الغفلة، ويحفز إلى التذكر والبعد عن كل ما يوقع في نسيان الله واليوم الآخر ، فتراه مقبلاً على الآخرة بكليته ، لا يني في ذكر الله والعمل بما شرع لعباده ، والاجتهاد في مرضاته سبحانه ، وكل ما يقرب إليه زلفى ؛ شأنَ المتقين الأبرار الذين لا يقعدهم عن العمل الصالح زخرف الحياة الدنيا ، ولا يغرهم بالله الغَرور . والحرصُ الذي نومىء إليه، يقتضيه التصديق الجازم بما جاء من الأخبار الصادقة التي بصَّرت الأمة بما يكون يوم الدين ﴿**يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً**﴾ وبحقيقة أن الدنيا دار ممر لا دار مقر، وأن السعيد السعادة كلها ، من تخذها مزرعة للآخرة دار البقاء ،لا يماري فيها إلا زائغ، أو مكابر عميت منه البصيرة والعياذ بالله .

وإذا كان الأمر كذلك ؛ فالعاقل من يجتهد في مضمار العمل هنا ، ليفوز يوم السباق هناك ، والموفّق من وفّقه الله للسير على النهج الذي رضيه الله لعباده ، وبينَه خير بيان رحمة الله المهداة ، رسولنا وإمامنا محمد عليه الصلاة والسلام ؛ فلقد أحصى صلوات الله وسلامه عليه بهذا البيان ـ كما لا يخفى ـ كل صغيرة وكبيرة مما يتعلق باليوم الآخر وما فيه من الأهوال ؛ وما يتعلق بالجنة والنار ، صفات كلٍ منهما وأحوال أهلها ، وما تزخر به عرصات القيامة من المشاهد العظام .

وكان من هديه ﷺ : ما نبّه عليه من أن الدنيا للمؤمن بمثابة السجن ، لما أن حرصه على الجنة يمنعه من الوقوع فيما يغضب الله تعالى ، كما أنها للكافر بمثابة الجنة ؛ وذلك لحمقه ؛ فهو يقبل غافلاً على الشهوات والمخالفات التي حفت

جهنم بها . قـال الإمام مسلم: حـدثنا قتيبة بـن سعيد قال : حـدثنا عبدالعـزيز ـ يعني الدَّراوَرديّ ـ عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الدنيـا سجن المؤمن وجنـة الكافـر » ذلك بأن المؤمـن يحب لقاء الله ، ومطمعه أبداً حسن العـاقبة في جنة المأوى ، أما الكافر : فعلى العكـس من ذلك، وشتان بين الحالين. وقد أوضح الإمام النووي المراد من الحديث بقوله : (معناه أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة ، مكلف بفعل الطاعات الشاقـة ، فإذا مات استراح من هذا وانقلب إلى ما أعـد الله تعالى له من النعيم الدائم والـراحة الخالصة من النقصان . وأمـا الكافر : فإنما له مـن ذلك ما حصل في الـدنيا ، مع قلتـه وتكديره بالمنغصـات ، فإذا مات : صـار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد).

وما أكثر ما جاء في هدي النبي عليه الصلاة والسلام، من التنبيه على ما يجب أن يكون عليه المؤمن من اليقظة التي تحرس قلبه ، فلا يقع في حبائل الرغبة الجامحة في متـاع الغـرور ، وعدم الإنـابـة انى دار الخلـود . ولكـم يعمـل الترغيب بـالجنـة والترهيب من النار عمله في نفسه هذا المؤمن ، إذا كان يعمل على تزكيتها وتطهيرها من الأدران ؛ الأمـر الذي يـزيد طالـب الجنة رغبة في عمـل الصالحات ، ويـوقظ الغافل فيسارع إلى تدارك ما فاته من الخير ؛ فالأمر جدٌّ يقينٌ لا هزل فيه ولا ريب ، وما جاء في الأخبار الصادقة واقع لا محالة . قال الإمام أحمد في المسند : حدثنا بهز ابن أسد قال : حدثنا سليمان بن المغيرة قال : حدثنـا حُميد بن هلال عن خالد بن عمير قال : خطب عُتبة بن غزوان ـ قال بهز : وقال قبل هذه المرة ـ «خطبنا رسول الله ﷺ قال : فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإن الدنيا قد آذنت بصَرْم ، وولّت حـذّاء ولم يبق منهـا إلا صبابة كصُبـابة الإناء يتصـابُّها صاحبهـا ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم ، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقـى من شفير جهنم ، فيهـوي فيها سبعين عـاماً ما يـدرك لها قعراً ، والله لتملؤنّه ، أفعجبتم! والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عاماً،

وليأتينَّ عليه يـوم وهو كظيظ من الزحـام ، ولقد رأيتني سابع سبعـة مع رسول الله ﷺ مـالنا طعـام إلا ورق الشجـر ، حتى قـرحت أشـداقنـا ، وإني التقطت بـردة فشققتها بينـي وبين سعد فائتزر بنصفهـا ، وائتزرت بنصفها ، فما أصبح منـا أحد اليوم إلا أصبـح أمير مصر من الأمصار ، وإني أعوذ بـالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً ، وإنها لم تكـن نبوة قط إلا تناسخـت حتى يكون عاقبتهـا ملكاً ، وستَبْلون ـ أو ستخبرون ـ الأمراء بعدنا». ورواه مسلم من حديث شيبانَ بن فرُّوخ بلفظ «فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفة جهنم فيهوي فيها سبعين خريفاً لا يدرك لها قعراً والله لتُملأنّ » وبلفظ « فستخبرُون وتجربون الأمراء بعدنا ».

آذنـت : بهمزة ممـدودة وفتـح الذال أي أعلمـت ، والصُّرم ــ بـالضم ــ أي الانقطاع والذهاب ، وقـوله : حذّاءَ بحاء مهملة مفتوحـة ثم ذال معجمة مشددة وألف ممـدودة أي مسرعة الانقطـاع . والصُبابـة بضم الصـاد : البقية اليسيرة مـن الشراب تبقى في أسفل الإناء . ومعنـى يتصابُّها أي يشربها . وقعر الشيء : أسفله، والكظيظ : الممتلىء . وقـوله : قرِحـت أشداقنا : أي صـار فيها قروح وجـراح من خشونة الورق الذي نأكله وحرارته وكان ذلك في غزوة من الغزوات .

أرأيت إلى هـذا الذي يذكِّـر به من مشـاهد القيـامة في الجنة وفي النـار : هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه !! الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عـاماً لا يـدرك لها قعراً ، وقسَـم بالله لتمـلأنّ وهي على مـا هي عليـه من السعـة والعمق ، نسـأل الله العفو والعافية ، ومـا بين مصراعين من مصاريـع الجنة مسيرة أربعين سنة ، ومـن سعة رحمة الله أنها لابد أن تمتلىء ، إذ ليـأتين عليها يـوم وما بين المصراعين على هذا الامتداد ـ كما شاء الله تعالى ـ كظيـظ ممتلىء من الزحام ، نسأله تعالى أن يمن علينا بلطفه ورحمته فيجعلنا من أهلها .

ولقد كـان النبي ﷺ حريصـاً على أمته أن تـزل بها القدم يوم الـدين .. فبشَّر وأنذر ولم يدع ـ كما أسلفنا ـ أن يبيّن خير بيان وأكمله جزاه الله عنا كل خير . جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم وغيره من رواية أبي هريرة رضي الله عنه «... قال :

فيلقى العبدَ فيقول : أي فل ــ يعني أي فلان ــ ألم أكرمك وأسوِّدك وأزوجْك وأسخِّرْ لك الخيل والإبل ، وأذَرْك ترأس وتربع ؟؟ فيقول : بلى ، قال : فيقول : أفظننت أنك ملاقيَّ ؟ فيقول : لا ، فيقول : إني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثاني فيقول : أي فل ، ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع فيقول : بلى أي رب ، فيقول : أظننتَ أنك ملاقيَّ ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإني أنساك كما نسيتني . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك ، فيقول : يارب آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع ، فيقول : ههنا إذاً ، قال : ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك . ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي ؟ فيختم على فيه ، ويُقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقي . فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليُعذِر من نفسه، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط الله عليه » .

إنه ـ ورب السماء والأرض ـ مشهد جدير بأن يوقظ الغافل ، ويذكر الناسي اللاهي ... ولكن أين القلوب ؟! **﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾**.

ما أقرب الجنة والنار

أن يترك النبي ﷺ أمته في أمور دينها ،ودنياها وآخرتها ،على بيضاء نقية، ليلُها كنهارهـا : نعمةٌ عظمـى جليلة القدر ، ومنـة كبرى لا يقادر قـدرها ، تستـوجب الشكر الخالص وتستحق الكثير مـن العناية والتدبر ،وتربيـة الأجيال على ذلك . والصدقُ في طلب النجاة يوم القيامة وأن تكون الجنة هي المأوى ، صورة من صور الشكر الحقيقي لتلك النعمة ، خصوصاً وأن هديَ الرسول ﷺ على هذه الساحة، بلغ من الوضوح حداً لا يدع زيادة لمستزيد ؛ وهنيئاً لمن استنارت بصائرهم فعضوا على الهدي المحمدي بالنواجذ ، وعملوا لما بعد الموت ؛ فكانوا من أهل الجنة ونعم دار المتقين ، والويل كل الويل لأولئك الغافلين الذين يتنكبون الطريق الواضحة، ويتخذون معالمها وراءهم ظهرياً ، وبذلك يمهَدون لأنفسهم دار البوار ، ﴿**جهنم يصلونها وبئس القرار**﴾. وما أقرب الجنـة لمن صدق الوجهة وحـزم أمره في العمل لهـا . وما أقرب النار لمن غفل عن الله وضلّ سواء السبيل .

أخرج أحمد والبخـاري من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه قال : قـال رسول الله ﷺ : « الجنة أقرب إلى أحـدكم من شراك نعله والنار مثل ذلـك » وقد سبقت الإشارة إلى هذا الحديث في مناسبة أخرى .

ويتضح مـن كلام النبـي ﷺ ـ وقـد أوتي جوامـع الكلم واختصر لـه الكلام اختصاراً ـ أن الطاعة طريق العبـد إلى الجنة ، وأن المعصية تعمل عملها في تقريبه من النـار ، وليس الأمر قصراً على الأعمال الكبيرة ، بل قـد تكون كل من الطـاعة والمعصية في الأمور اليسيرة التي لا يحسب لها الإنسان أي حساب .

قال ابن بطال في بيان لمعنى الحديث : « فيه أن الطاعة موصلة إلى الجنة ، وأن المعصية مقربـة إلى النار ، وأن الطاعة والمعصية قـد تكون في أيسر الأشياء ، إلى أن

يقول : فينبغي للمرء أن لايزهد في القليل من الخير أن يأتيه ، ولا في القليل من الشر أن يجتنبه ؛ فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها ، ولا السيئة التي يسخط عليه بها» ويرى الإمام ابن الجوزي في معنى الحديث « أن تحصيل الجنة سهل بتصحيح القصد وفعل الطاعة ، والنار كذلك ، بموافقة الهوى وفعل المعصية» وهذا لا يتعارض مع الذي سلف تقريره غير مرة من أن دخول الجنة كائن برحمة الله تبارك وتعالى ، ولكن التفاضل في المنازل مردُّه إلى الأعمال كما جاء في حديث الترمذي ، إذ أن ارتباط المسؤولية بالجزاء شيء ، وكون العاقبة بيده سبحانه شيء آخر ، حتى رسول الله ﷺ ـ وهو صاحب المقام المحمود والحوض المورود ـ لايدخله الجنة عمله ، إلا أن يتغمده الله برحمة من عنده .

من هنا كان يتَّسم تعامل السلف مع الدنيا بالكثير من الواقعية ؛ من حيث كونها دار عمل وسباق إلى الخير ، وقل مثل ذلك في تعاملهم مع الدار الآخرة ؛ من حيث كونها هي المستقر وهي الحيوان ؛ إمامُهم وأُسوتهم في ذلك رسول الله ﷺ . ومشاهد القيامة إعلان صادق عن أحقية ما جاء به القرآن الكريم في ذلك ، وبيَّنه إمام الهدى وخاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام ؛ فالتالي يتلو في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿**فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير**﴾ وتطالعنا سورة الحديد بقوله جل شأنه ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾. وتتأكد هذه الحقيقة بما نرى من الأمر بالمسارعة في سورة آل عمران : ذلكم قوله تعالى : ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين**﴾ والثناء العظيم كائن على من يسارعون في الخيرات ؛ ففي سورة الأنبياء ﴿**إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً**﴾ وفي سورة المؤمنون ﴿**أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون**﴾.

وفهم السلف الصالح للتعامل مع كلٍ من الدار الفانية والدار الباقية ، بدءاً

من الصحابة عليهم رضوان الله يجري ـ كما أسلفنا ـ على هدي هذا التوجيه الرباني وبيانه من الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأمثلة ذلك تكاد تعز على الحصر . روى شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري بسنده عن أبي عبدالرحمن السُّلَمي قال : « نزلنا المدائن فكنا منها على فرسخ ، فجاءت الجمعة ، فحضر أبي وحضرت معه، فخطبنا حذيفة رضي الله عنه فقال : ألا إن الله يقول : ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، فقلت لأبي : أيستبق الناس غداً ؟ فقال: يا بني إنك لجاهل ، إنما هو السباق بالأعمال، وفي رواية : إنما يعني: العملُ اليوم والجزاءُ غداً . ثم جاءت الجمعة الأخرى ، فحضرنا فخطب حذيفة رضي الله عنه فقال : ألا إن الله عز وجل يقول: ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، ألا وإن الغاية النار ، والسابق من سبق إلى الجنة » وأخرجه الحاكم النيسابوري في « المستدرك» وقال صحيح الإسناد .

هكذا ينصح الصحابي الجليل حذيفة رضي الله عنه المسلمين ــ كما علم من هدي النبي عليه الصلاة والسلام المبين عن الله ما أراد ـ أن اليوم المضمار وغداً السباق إلى الجنة ، وأن السابق من وفق لخالص العمل ، فسبق إلى النعيم المقيم. والمضمار : الموضع الذي تضمّر فيه الخيل ـ وقد مر ذلك في مناسبة أخرى ـ وتضمير الخيل أن تُعلف حتى تسمن ، ثم لا تعلفَ إلا قوتاً لتخف . وقيل : تشد عليها سروجها ، وتجلَّل بالأجلّة حتى تعرق تحتها ، فيذهبَ رهَلها ويشتدَّ لحمها .

ولكم تكون الأمة على الجادَّة ، إذا ضمت إلى مناهج التربية على الإيمان بالغيب ، وما أعدّ الله للعاملين في دار كرامته من الخير العميم، وما يلقاه الظالمون والصادُّون عن سبيل الله ، من سوء المصير ... سلامة التوجيه إلى ما يجب أن يكون عليه التعامل مع ما هو من أمور الدنيا ، ومع ما هو من أمور الآخرة ، مضافاً إلى ذلك تربية على سلامة التصور للعلاقة بين مشاهد القيامة، يوم يقف الناس لرب

العالمين ، وبين ما كان عليه السلوك في الدنيا ؛ من حيث الالتزام بشريعة الله، وتحكيم المنهج الرباني .

وفي واحدة من مواعظ رسول الله ﷺ نقع على نوع من التفصيل في الدعوة إلى اغتنام فرص الخير والعمل الصالح ، وفي ذكر مظانِّ العمل التي لا يجوز التهاون بها والغفلة عن آثارها لمن أراد أن يكون من السابقين يوم السباق إلى جنة الخلد ، ذلكم ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سَقمك، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما ـ يعني البخاري ومسلماً ـ .

ومعلوم أن الصدق في طلب الآخرة ، والفوز برضوان الله ، وما يكرم به عباده المنيبين إليه ، الطامعين في رحمته ، يقتضي التخلق بأخلاق هؤلاء الأبرار مخافةً لله ، وبعداً عن الركون إلى الدعة وما عليه الغافلون . روى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه جل وعلا أنه قال : «وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين : إذا خافني في الدنيا آمنته يوم القيامة ، و إذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة ».

اللهم اجعلنا ممن يعملون الصالحات الذين يرجون رحمتك ويخافون عذابك ياذا الجلال والإكرام ..

أكثروا من ذكر النار

ما أعظم ما كان من أمانة النبي ﷺ ، في بيان كـل ما يجب بيانه للأمة ؛ تبليغاً وتربية وتعليماً ، وإعطاء الترغيب في دار النعيم المقيم ، والترهيب من نار السعير ، ما هما جديران بـه على صعيد ذلك البيان . وما أكرم ما أثمـر ذلك من انضباط في سلوك الفرد والجماعة ، وتميّزٍ في التحلي بمكارم الأخلاق ، وتزكية النفوس ، ومراقبة الله عز وجل ، والارتفاع بالمطالب والرغبات إلى حيث تكون النجاة من عذاب الله يوم الـدين ، والفـوز بالجنة نُـزُلِ الأبرار المقـربين ، غاية عظيمـة كريمـة ، يحسب حسابها عند كل قول أو عمل في هذه الحياة الدنيا دار الفناء .

أقول هـذا ، و الكلام موصـول بما جاء في خطبـة الصحابي الجليل عُتبـةَ بنِ غزوانَ من روايـة أحمد ومسلم من قوله رضي الله عنـه ـ كما سبق ـ « إنـه ذكر لنا أن الحجـر يُلقى مـن شفير جهنم فيهـوي فيها سبعين عـاماً مـا يدرك لها قعـراً ، والله لتُملأنّ .. أفعجبتم .. » الحديث وجاء في الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ بابِ ما جاء في صفة قعر جهنم قوله رحمه الله : حدثنا عبدُ بن حُميد قال : حدثنا حسين ابن علي الجُعفيُّ عن الفضيل بن عياض عن هشام عن الحسن البصري قال : قال عتبـة بنُ غـزوانَ على منبرنـا هذا منبرِ البصرةِ عـن النبـي ﷺ قال : « إن الصخـرة العظيمة لتُلقى من شفير جهنم ، فتهوي فيهـا سبعين عاماً وما تُفضي إلى قرارها» . قال : وكان عمر يقول : «أكثروا ذكر النار فإن حرها شديد ، و إن قعرها بعيد ، و إن مقامعها حديد » والروايات التي سبقت تشهد على صحة هذا الحديث ، و إن كان الحسن رحمه الله أسقـط اسم مـن روى عنه ، قال أبـو عيسى: لا نعـرف للحسن سماعاً مـن عُتبة بـن غزوان ، وإنما قـدم عُتبة البصرة في زمـن عمر ، وولـد الحسن لسنتين بقيتا من خـلافة عمر . وكلام عمـر رضي الله عنه عنوان التفاعـل الصادق مع الـذي أخبر عنه نبينـا عليه الصـلاة والسلام مـن صفات جهنـم نار السعير ،

والحرصِ على أن لا تكـون الأمة في غفلـة عـن ذلـك ، لأن الغفلة في هـذا المقـام مهلكة أيّ مهلكة ، وما أسوأ ما يتمرغ به الغافلون من مخازي الضياع وقسوة القلب ونسيانِ الله واليوم الآخر « أكثروا ذكر النار فإن حرها شديد وإن قعرها بعيد ، وإن مقامعها من حديد » والمقامع: واحدتها مِقْمَعَة بكسر الميم وهي سياط تعمل من حديد ورؤوسها معوجة .

وهذه الكلمات البليغة المؤثرة التي تتجاوز الآذان إلى القلـوب ، تذكرنا بقول الله جل شأنه في سورة إبراهيم : ﴿ **فلا تَحْسبنّ الله مخلف وعده رسلَه إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تُبَدَّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهّـار . وترى المجرمين يومئذ مقرَّنين في الأصفاد. سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار**﴾.

ألا ليت للمجـرمين والظالمين قلـوباً تعي !! تـرى يا محمـد المجرمين ــ وهم الذين أجرموا بكفرهـم وظلمهم وفسادهم ـ مقرَّنين أي بعضهـم إلى بعض ، قد جُمع بين النُظراء والأشكال منهم، كل صنف إلى صنف في الأصفاد ، كما قال الله تعالى: ﴿**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم** ﴾ أي نظراءهم وأمثالهم وقـال سبحانه : ﴿**وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرَّنين دعوا هنالك ثبوراً** ﴾. وفي بيان لبعض صور الإجرام أورد الحافظ ابن كثير عنـد تفسير تلكم الآيات من خـواتم سورة إبراهيـم ماروى الإمام أحمد عـن أبي مالك الأشعري رضي الله عنـه أنه قال : قـال رسول الله ﷺ : «أربـع من أمـر الجاهلية لا يُتركـن : الفخـر بالأحسـاب ، والطعن في الأنسـاب، والاستسقاء بالنجوم ، والنيـاحة . والنائحة إذا لم تتب قبل موتها ، تقـام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ، ودرع من جرب » وأخرجه مسلم . وفي حديث القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنـه قال : « النائحة إذا لم تتب توقـف في طريق بين الجنة والنار ، سرابيلها من قطران ، وتغشى وجهها النار » .

إنه لمشهـد مذهل حقاً ، مشهـد أولئك الذين أجـرموا بالضلال والصدِّ عن سبيل الله ، فتراهم مقرنين في الأصفاد ، كل نظير إلى نظيره، وكل خليل إلى خليله،

وليس ذلـك فحسب ؛ بـل إن سرابيلهم مـن قطران ، وتغشـى وجوههـم ـ تلفـح وجوههم ـ النار ، أعاذنا الله من حرها ولفحها .. ولكم يكون المؤمن على بصيرة من أمره ، وحـذر من سوء العاقبـة يوم الحساب ، إذا عمل على أن يـوالي لله ، ويعادي لله، فإذا أحبّ فللّه ،وإذا أبغض فلّله ، كي لا يكون في عداد أولئك الذين يوالون أعداء الله ويعادون أحباءه وأولياءه ، فتكون العاقبة أن يحشر مع من أحب ، ويلقى في جهنم ـ التي لا يكاد يدرك قعرها ـ مقرّناً في الأصفاد مع أولئك الذين أحبّهم في الدنيا ابتغـاء نفع زائل ، ولوجه الشيطـان ، أجل يحشر معهم بعد أن تنقلـب تلك الصداقـة المصطنعة المشـوبة بالضـلال في الدنيا ، عـداوة يوم القيـامة ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾ ولقد بيّن ﷺ أن من علائم التذوق لحلاوة الإيمان ، أن تكون المحبـة لله ؛ وذلك مـا ثبت في الصحيح مـن قولـه صلوات الله وسلامه عليه : « ثلاث من كن فيه وجد حلاة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سـواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفـر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار » رواه البخاري .

ألا وإن هذا المشهـد العظيم، جـدير بأن يـزيد المؤمـن إيماناً ، وحـرصاً على سلوك السبيـل التي ينتهي معهـا ـ برحمة الله وفضلـه ـ إلى حيـث النجـاة مـن نار تلظّى ، حرُّها شديد ، وقعرها بعيد ، ومقامعها من حديد . كما أنه جدير بأن يُلجم الغافـل ـ أن لـو عقل واستبصر ـ عـن الاستمرار في طريـق الغي ، وطـاعة الهوى وشياطين الإنـس والجن ، والأمر يوم الآزفـة شديد شـديد ، إنه مـن الشدة والهول بحيث لا ينفـع معه التسـويف ، بـل إن العقل الأخـروي ، يقضي بأن يبـادر المرء بالأعمال الصالحة، كلَ ما يمكن أن يسوق إلى جهنم وساءت مصيراً ، وأن يسارع في الخيرات والطاعات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . ومـن ذا الذي لديه مِسكة من التبصّر ، ونشدانِ السعـادة الأبدية ، لا تخيفـه تلكم الأخبـار الصادقة عـن جهنم وصفاتها وأحوال أهلها ، وتجعله ينزع عما هو فيه من الإعراض عن الدين ، والتمرغ في أوحال العبث والعابثين !!.

من هنا ، كان ديدنُ أهل التقوى والصلاح ، تذكيرَ الأمة ، والنصحَ للحاكم والمحكوم ، والرجل والمرأة ، بأن يضع الجميع نُصب أعينهم ، ما يؤول إليه الأمر يوم لا ينفع الذين ظلموا معذرتُهم ولا هم يُستعتَبون .

يقول الإمام القدوة الثبت العابد الزاهد شيخ الإسلام الفضيل بن عياض المتوفى ١٨٦ هـ : « لما دخل عليَّ هارون أمير المؤمنين قلت : يا حسن الوجه ، لقد كُلفتَ أمراً عظيماً ، أما إني ما رأيت أحداً أحسن وجهاً منك ؛ فإن قدرتَ أن لا تسوِّد هذا الوجه بلفحة من النار فافعل . قال : عظني ، قلت : بماذا أعظك ، هذا كتاب الله بين الدَّفتين ، انظر ماذا عمل بمن أطاعه وماذا عمل بمن عصاه . إني رأيت الناس يغوصون على النار غوصاً شديداً ، ويطلبونها طلباً حثيثاً ، أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسرَ ، لنالوها . وقال : عُد إليّ ، فقال : لو لم تبعث إليّ لم آتك ، وإن انتفعتَ بما سمعتَ ، عُدت إليك » .

رحم الله الفضيل وأعلى مقامه في الآخرين ، ما كان أصدقه ، وأنصحه لأئمة المسلمين وعامتهم ، وأكثر الله في أمتنا من علماء الآخرة الذين لا يخافون في الله لومة لائم ، ولا يحول دونهم ودون الصدع بكلمة الحق رغب ولا رهب ، ولله عاقبة الأمور .

ذلكم أشقى الأشقياء

لا يعدم المرء حين ينظر في سير أولئك البررة من السلف الصالح ، رجالاً كانوا أو نساءً ، أن يقع على الكثير الكثير من النماذج التي توحي بما صنعت في نفوسهم تلك الأخبار الصادقة عن يوم الحساب ، وعما ينتظر المرء في ذلك اليوم العصيب حيث يجازى المحسن بإحسانه ، ويؤخذ المسيء بما كسبت يداه .. أجل بما صَنَعَتْ تلك الأخبار في نفوسهم وحرّكت من كوامن الخير في قلوبهم، فاستقاموا على الطريقة ، وغضّوا عن محارم الله ، وأخذوا أنفسهم بالدينونة والمحاسبة ، اتقاءً لغضب الله المودي إلى جهنم، ورغبةً في مرضاته التي تعقب الخير والفوز بجنة النعيم .

والأمة اليوم أحوج ما تكون إلى استذكار تلكم السير ، التي تبلغ أن تكون الصورةَ الحية الناطقة بما يجب أن يكون عليه المؤمن، من تطلُّع صادق إلى حسن العاقبة في الآخرة ، لا يلهيه عن ذلك زخرف أو متاع ، ولا تشغله رغبة عاجلة زائلة في دار الفناء والزوال ، ولكن يتخذ من العمل الصالح ، والجهاد في سبيل الله، وإعمار الدنيا وفق معايير شريعة الله وأخلاق المنيبين إلى الله ، جسراً مباركاً يعبر عليه إلى دار الكرامة التي يُحِلُّها الله عباده الصالحين المتقين المجاهدين .

وكيف لا يكون ذلك ؛ والعبد محصيٌّ عليه ما اكتسب، حتى ولو كان ذلك كلمةً واحدة نطق بها ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ فقد يتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرتفع بها درجات ، وقد يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يأبه بها تودي به إلى نار الجحيم . قال الإمام البخاري في الجامع الصحيح : حدثني عبدالله بن منير سمع أبا النضر قال : حدثنا عبدالرحمن بنُ عبدالله ـ يعني ابن دينار ـ عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يُلقي لها بالاً يرفعه الله بها

درجات ، وإن العبد ليتكلّم بالكلمة من سخط الله ، لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم » ولقد عمل هذا الوعيد عمله في نفس التابعي الجليل علقمة بن وقاص الليثيّ رحمه الله ؛ فكثيراً ما كان يمتنع عن الكلام ، خشية أن يقع في زلة تعود عليه بما لا تحمد عقباه في الآخرة من غضب الله تعالى ؛ ذلكم ما أخرج الإمام أحمد في المسند حيث قال : حدثنا أبو معاوية قال : حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثي عن أبيه عن جده علقمة عن بلال بن الحارث المزني قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه » قال : «فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث». وأخرجه مالك في الموطأ وأصحاب السنن والحاكم وصححه وقال الترمذي : حسن صحيح .

وغير خافٍ أن علقمة ــ أجزل الله مثوبته ــ وقد انتفع بهذا الحديث ــ كما أسلفنا ـ قد بلغ به الورع أن يصمت عن كثير من الكلام خشية أن تزل به القدم، وهو لا يدري ، فيكون ممن تسعّر بهم الجحيم . وقال الحافظ ابن كثير ـ جزاه الله عن الإسلام والمسلمين كل خير ـ : وذُكر عن الإمام أحمد « أنه كان يئن في مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال : يكتب الملك كل شيء حتى الأنين . فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله» .

وهذا الخوف من النار والطمع في أن تكون الجنة هي المأوى ، مما حمل أئمة الهدى رحمهم الله ، على الكثير من التثبت عند الجواب عن سؤال ، أو الفتوى في حكم من الأحكام . جاء في كتاب «ترتيب المدارك » للقاضي عياض و «أدب المفتي والمستفتي» للإمام ابن الصلاح أن الإمام مالكاً كان يقول : «من أجاب في مسألة فينبغي من قبل أن يجيب فيها ، أن يعرض نفسه على الجنة والنار وكيف يكون خلاصه في الآخرة ؟ ثم يجيبَ فيها» وشدة ورع الإمام أحمد على هذه الساحة معروفة ومشهورة . وقد نقل عن سعيد بن المسيَّب رضي الله عنهما « أنه كان لا

يكاد يفتي فتيا ولا يقول شيئاً إلا قال : اللهم سلمني وسلِّم مني» وفي هذا أوضح الدلالة على أن أهل الخشية قد عقلوا عن الله ورسوله عليه الصلاة والسلام حقيقة البشارة والنذارة في أمر الآخرة ، وعاقبة كلٍ من المحسنين والمسيئين .

وكلما ازدادت المعرفة ، ازدادت الخشية ، وقد بشر الله تبارك وتعالى الذين يخشون ربهم بالغيب أن لهم المغفرة والأجر الكبير ؛ ذلكم قوله جل وعلا : ﴿ **إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾ والعلماء العاملون أولى الناس بأن يكونوا ـ وهم مسؤولون عن بيان شريعة الله للأمة ـ من أهل الخشية لله الذين لا يخافون في الله لومة لائم ، ولا يبيعون دينهم بدنيا الآخرين ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ . قال ابن الصلاح في كتابه « أدب المفتي والمستفتي »: (وجاء عن أبي سعيد عبدالسلام بن سعيد التنوخي الملقب بسَحنون إمام المالكية وصاحب «المدوّنة » التي هي عند المالكين ككتاب « الأم » عند الشافعيين أنه قال : «أشقى الناس من باع آخرته بدنياه ، وأشقى منه من باع آخرته بدنيا غيره » . قال : ففكرت فيمن باع آخرته بدنيا غيره فوجدته المفتي يأتيه الرجل قد حنث في امرأته ورقيقه فيقول له : لا شيء عليك ، فيذهب الحانث فيتمتع بامرأته ورقيقه ، وقد باع المفتي دينه بدنيا هذا . قال ابن الصلاح : وعن سَحنون : «أن رجلاً أتاه فسأله عن مسألة فأقام يتردد إليه ثلاثة أيام ، فقال له : مسألتي أصلحك الله ، ليَ اليوم ثلاثة أيام . فقال له : وما أصنع لك يا خليلي ؟ مسألتك معضِلة ، وفيها أقاويل ، وأنا متحيِّر في ذلك. فقال له: وأنت أصلحك الله لكل معضِلة : فقال له سحنون: هيهات يا ابن أخي !! ليس بقولك هذا أبذل لك لحمي ودمي إلى النار ، ما أكثر مالا أعرف ، إن صبرتَ ، رجوتُ أن تنقلب بمسألتك، وإن أردت أن تمضيَ إلى غيري ، فامض تُجَبْ عن مسألتك في ساعة . فقال له : إنما جئت إليك ولا أستفتي غيرك . فقال له : فاصبر عافاك الله ثم أجابه بعد ذلك ».

قلت : بيت القصيد في كلام سحنون ـ بعد كل هذا التثبت والورع وثناء السائل عليه بأنه لكل معضلة ـ: قوله أعظم الله أجره ، وأعلى مقامه يوم اللقاء:

«ليس بقولك هذا أبذل لك لحمي ودمي إلى النار » إن هذا العالم الذي ازدان سلوكه بالحيطة في دين الله والورع أن يقول ما ليس بحق ، على ذُكر من عظم المسؤولية يوم يقف الناس لرب العالمين ، وأن من تهاون في تجاوز ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، بأن يحرِّم حلالاً أو يحلَّ حراماً ، كان عليه وِزره ووزر من كان هو السبب في ضلاله ، وكانت عاقبة أمره خسراً .

ولكم يحسن العالم صنعاً ، حين يتقي الله في نفسه وفي الآخرين ، فيذكر المساءلة أمام جبار السماوات والأرض ، وأن العذاب عذاب الله شديد ، غيرَ ناسٍ ما روى البخاري ومسلم وغيرهما عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبضه بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » وفي رواية للبخاري « فيفتون برأيهم » .

وفقنا الله لمرضاته ، وجنَّبنا مزالق الأقدام ومُضلات الفتن ، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجارنا ـ بمنه وكرمه ـ من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ..

جهنم عقبى الظالمين

كلما ازداد النظر المتبصّر فيما جاء عن الله تعالى ، وعن رسوله عليه الصلاة والسلام ، في شأن دار البقاء ، وما يجب من إعداد العدة والتزود ليوم القيامة الذي لا ريب فيه ... ربا إيمان المؤمن في قلبه ، وأشرقت في نفسه أكثرَ وأكثَر سلامة التصور لتلك الرحلة بين الدنيا والآخرة ، فيما قسم للإنسان من عمر يقضيه في دارٍ من أوضح سماتها أنها زائلة فانية ، وأنه منقلب بعد الموت إلى دار ، هي حقاً دار البقاء والخلود. من أجل هذا ترى الموفقين لا تلهيهم دنياهم عن ذكر الله ، والعمل لما بعد الموت ؛ يفرحون بما يأتون من عمل ليوم المعاد ، راجين من الله قبوله ، ويحزنون على ما يفوتهم من ذلك ، فرقاً من يوم الحساب ، سائلين المولى عز وجل عفوه ومغفرته فهو سبحانه الغفور الرحيم . ويا نعم ما يفوزون به يوم الفصل من جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا وكانوا يتقون .

أما أهل الضلالة : فالقضية عندهم لا تقدم ولا تؤخر ، قلوب غافلة ـ والعياذ بالله ـ وبُعد عن الله في الأقوال والأفعال . وبئس ما يصنعون من سلوك طريق الغواية التي تنتهي بهم إلى جهنم وساءت مصيراً . أخرج الترمذي بسنده عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه قال به هكذا فطار » ذلك بأن المؤمن منوّر قلبه ، دائمُ الخوف والمراقبة لله عز وجل ؛ فإذا رأى من نفسه ما يخالف ما ينوّر به قلبه. عظم الأمر عليه وتاب وأناب . وأين الفاجر اللاهي من هذا ؟!!

والحق أن المؤمن كما تُفرح قلبَه بشريات الجنة ونعيمها ، وما أعد الله فيها من كريم الفضل وجزيل العطاء لأهل الإنابة والصلاح ، يخيفه ويرعبه ما جاء في الأخبار الصادقة عن نار السعير وما يملؤها من مشاهد الهول والعذاب الشديد؛

وكلما زكت النفس، كان ذلك أدعى للانتفاع وصدق التوجه إلى العمل الذي يصلح به المؤمن آخرته، فيفوز بدار النعيم، وينجو من أن يكون في عداد من يقال عقاباً للواحد منهم: ﴿خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾ والأمر أولاً وآخراً، خطير جدٌّ خطير، فمع الرجاء برحمة الله وفضله، مابد من أن يكون المرء على ذكر من تلك الأهوال التي تنصبُّ على أولئك الذين يهوون في جهنم التي لا يكاد يدرك قعرها، ولا ينفعهم أن يصطرخوا فيها من شدة العذاب : هل إلى مردٍ من سبيل ؟ .

جاء في الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو أن حجراً قذف به في جهنم لهوى سبعين خريفاً حتى يبلغ قعرها» . رواه البزار وأبو علي وابن حبان في صحيحه والبيهقي كلهم من طريق عطاء بن السائب. وقال الإمام مسلم : حدثنا يحيى بن أيوب قال : حدثنا خَلَف بن خليفة قال: حدثنا يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبةً . فقال النبي ﷺ : تدرون ما هذا ؟ قال : قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها». قال المنذري : ورواه الطبراني من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : «سمع رسول الله ﷺ صوتاً هاله، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال رسول الله ﷺ : «ما هذا الصوت يا جبريل ؟ فقال : هذه صخرة هوت من شفير جهنم من سبعين عاماً ، فهذا حين بلغت قعرها، فأحبّ الله أن يُسمعك صوتها . فما رئي رسول الله ﷺ ضاحكاً ملء فيه حتى قبضه الله عز وجل» .

من هنا رأينا أهل الصلاح الربانيين في هذه الأمة، يأخذون الأمر مأخذ العزيمة؛ فيجدّون في طاعة الله والجهاد في سبيله، ويجتهدون، ومع عظيم رجائهم بسعة رحمته سبحانه وتعالى، يأخذون أنفسهم بالخوف من عذاب الله ونقمته، وتعمل أخبار جهنم وما هي عليه، عملها في تذكيرهم إذا غفلوا، وشحذ هممهم

لمضاعفة التزود النافع ليوم المعاد ، وتراهم يعملون على النصح للأمة كيما تكون على الجادة في تدبُّر كتاب الله والعمل بهدي رسول الله عليه الصلاة والسلام ، لأن ذلك هو المعتَصم ـ بعون الله ـ من الغفلة والإعراض عن تذكر ما يمكن أن يكون عليه الحال ﴿ **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً** ﴾ .

هذا أبو بشر صالح بن بشير المرّي المتوفى سنة ثنتين وسبعين ومائة : واحد من أولئك الوعاظ الزهاد الذين رقت قلوبهم، وصفت من أكدار الدنيا نفوسهم، فتذوقوا حلاوة العمل للآخرة، وكانوا على كثير من الخوف مع الرجاء ، وكذلك يفعل الربانيون . أخرج أبو نعيم في كتابه «حلية الأولياء » عن الحسن بن حسّان قال : «كنا يوماً عند صالح المري وهو يتكلم ويعظ ، فقال لرجل حَدَثٍ بين يديه : اقرأ يابني ، فقرأ الرجل ﴿ **وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع** ﴾ فقطع عليه صالح القراءة فقال : وكيف يكون للظالمين حميم أو شفيع ؟ والطالب لهم رب العالمين . إنك والله لو رأيت الظالمين وأهل المعاصي يساقون في السلاسل والأغلال إلى الجحيم حفاةً عراةً مسودةً وجوههم ، مزرقةً عيونهم ، ذائبةً أجسامهم ، ينادون ياويلاه يا ثبوراه !! ماذا أنزل بنا ، ماذا حلّ بنا ، أين يُذهب بنا ، ماذا يراد منا ، والملائكة تسوقهم بمقامع النيران ، فمرة يُجرّون على وجوههم ويسحبون عليها متكئين ، ومرة يقادون إليها عنتاً مقرَّنين ؛ من بين باك دماً بعد انقطاع الدموع ، ومن بين صارخ طائر القلب مبهوت ؛ إنك والله لو رأيتهم على ذلك ، لرأيت منظراً لا يقوم له بصرك ، ولا يثبت له قلبك ، ولا يستقر لفظاعةِ هوله على قرار قدمك . ثم نحب وصاح : ياسوء منظراه ، ويا سوء منقلباه ، وبكى وبكى الناس . فقام شاب به تأنيث فقال : أكل هذا في القيامة يا أبا بشر ؟ قال : نعم والله يا ابن أخي وما هو أكبر من ذلك !! لقد بلغني أنهم يصرخون في النار حتى تنقطع أصواتهم ، فلا يبقى منها إلا كهيئة الأنين المدنف ، فصاح الفتى : إنا لله ، واغفلتاه عن نفسي أيام الحياة ، ويا أسفي على تفريطي في طاعة الله ، وا أسفاه على تضييع عمري في دار الدنيا . ثم بكى

واستقبل القبلة ثم قال : اللهم إني أستقبلك في يومي هذا بتوبة لك ، لا يخالطها رياء لغيرك، اللهم فاقبلني على ما كان مني ، واعف عما تقدم من عملي ، وأقلني من عثرتي وارحمني ومن حضرني ، وتفضل علينا بجودك أجمعين يا أرحم الراحمين . لك ألقيت معاقد الآثام من عنقي ، وإليك أنبت بجميع جوارحي ،صادقاً بذلك قلبي، فالويل لي إن لم تقبلني ؛ ثم غُلب فسقط مغشباً عليه ، فحمل من بين القوم صريعاً يبكون عليه ويدعون له ».

وكان صالح كثيراً ما يذكره في مجلسه يدعو الله له ويقول : بأبي قتيل القرآن ، بأبي قتيل المواعظ والأحزان ؛ فرآه رجل في منامه فقال : ما صنعت ؟ قال : عمَّتني بركة مجلس صالح ، فدخلت في سعة رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء .

سبحان الرحيم الرحمن لا رب غيره ولا خير إلا خيره . اللهم رحمتك نرجو فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ، أصلح لنا شأننا كله واغفر لنا ذنبنا كله ، برحمتك نستغيث ومن عذابك نستجير ، لك الأمر كله وبيدك الخير كله ، إنك على كل شيء قدير .

أدنى أهل النار عذاباً

أعاذنا الله وإياكم من النار ؛ ذلك ما دعا بـه الإمام العابد الثقة الزاهد فضيل ابـن عياض التميمـي المتوفي سنـة ١٧٨ في ختـام كلمات لبعض مـن كان يعظهـم ويذكرهم الموت واليوم الآخر . قـال رحمه الله : «لا تجعل الرجال أوصياءك ، كيف تلومهم أن يضيّعـوا وصيتك وأنت قد ضيعتهـا في حياتك ، وأنت بعـد هذا تصير إلى بيت الوحشة ، وبيت الظلمة ، وبيت الدود ، ويكون زائرك فيها منكراً ونكيراً ، وقبرك روضةً من رياض الجنـة ، أو حفرة من حفر النار ، ثم بكـى الفضيل وقال : أعاذنا الله وإياكم من النار » . وحُقَّ للفضيل رحمه الله أن يدعو الله بأن يعيذه ومن كان يعظهم مـن النار ؛ فلكم تعوّذ رسول الله ﷺ وأمـر بالتعوذ منها لشـديد هولها وما فيها من النكال .

والمؤمن الحريص على دينه ، الصادق في طلب النجاة من عذابها يوم الدين ، يسلك مع التعوذ بلسانه ،مسلك الأصفيـاء أهل الصدق مع الله ، فيبتعد عن كل ما هو من طريقها بسبب .

من يا تـرى ، يكون له قلب ، ويتـدبَّر ولو القليل مـن أخبارها ، ثم يلهـو مع اللاهين ، ويتمرّغ في حمأة الغفلة والغافلين ؟؟ قال الإمام الترمذي : حدثنا عبدالله ابن عبدالرحمن قـال : أخبرنا عاصم بن يوسـف قال : حدثنا قُطْبَة بن عبـدالعزيز عن الأعمـش عن شِمْرِ بـن عطيةَ عن شهـرِ بن حـوشَب عن أم الـدرداء عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « يُلقى على أهـل النار الجوع ، فيعدل ماهم فيه من العذاب ، فيستغيثون ، فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ، فيستغيثـون بالطعـام ، فيغاثـون بطعام ذي غُصَّـة ، فيـذكرون أنهم كـانوا يجيـزون الغَصَص في الدنيا بالشراب، فيستغيثون بالشراب، فيرفع إليهم الحميم، بكلاليب الحديد ، فإذا دنت مـن وجوههم ، شوَت وجوههم ، فـإذا دخلت بطونهم قطَّعت

ما في بطونهم ، فيقولون : ادعوا خزنة جهنم ، فيقولون : ﴿ أولَمْ تَكُ تَأْتيكُم رُسُلُكُم بالبيِّناتِ قالوا بَلى قالوا فادْعوا وَما دُعاءُ الكافِرينَ إلاّ في ضَلالٍ ﴾ قال : فيقولون : ادعوا مالكاً ، فيقولون : ﴿ يا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا ربُكَ ﴾ قال : فيجيبهم : ﴿إنَّكُم ماكِثونَ ﴾ قال الأعمش : نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألفَ عام، قال : فيقولون : ادعوا ربكم ، فلا أحد خير من ربكم ، فيقولون : ﴿ ربَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنا وكُنّا قوماً ضالِّينَ . ربّنا أَخْرِجْنا مِنْها فإنْ عُدْنا فإنّا ظالمون﴾ قال : فيجيبهم ﴿ اخْسَئَوا فيهَا ولا تُكلِّمون ﴾ فعند ذلك يئسوا من كل خير ، وعند ذلك يأخذون في الزفير والحسرة والويل ». قال عبدالله بن عبدالرحمن ـ يعني الدارميَّ ـ والناس لا يرفعون هذا الحديث ، أي بل يروونه موقوفاً على أبي الدرداء قال أبو عيسى : إنما نعرف هذا الحديث عن الأعمش عن شِمْر بن عطية ، عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله : وليس بمرفوع . وقُطبة بن عبدالعزيز هو ثقة عند أهل الحديث .

هذا : والحديث وإن كان موقوفاً لكنه في حكم المرفوع ـ كما يقول صاحب تحفة الأحوذي ـ فإن أمثال ذلك ليس مما يمكن أن يقال من قبل الرأي . وإذا كان الأمر كذلك ، فلا شك في أن الفوز المبين ، إنما يكون في الزحزحة عن النار ودخول الجنة، ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾.

والحديث المذكور ، يذكرنا بما جاء في شأن أهل الجنة وما يتفضل الله به عليهم من العطاء ، وأهل النار وخلودهم فيها ،وما يسقون من الحميم الذي يقطِّع أمعاءهم وذلك في صورة تعين على التمييز بين الحالين ، نجدها في الآية الخامسة عشرة من سورة محمد ذلكم قوله تعالى : ﴿ مَثَل الجنة التي وُعِدَ المُتقونَ فيها أنهارٌ من ماء غير آسنٍ وأنهارٌ من لبن لم يتغيّر طَعْمُه وأنهار من خمر لذةٍ للشاربين وأنهار من عسلٍ مصفّى ولهم فيها من كل الثمراتِ ومغفرةٌ من ربهم كمن هو خالد في النار وسُقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم ﴾ .

ولقد كـان من رحمتـه ﷺ بأمته ، أنـه لم يقتصر على بيان مـا يكون عليـه أهل الجحيم عمـوماً ـ وهـم يصلون العذاب الأليـم ويصطرخون ، ولا يقضـى عليهم فيموتوا ـ ولكنه كشف عن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة ، ليذهب الذهن كل مذهـب في أشدهم عذابـاً والمعاذ الله ؛ وذلك إبعـاداً للناس عن كل مـا يؤدي إلى الغفلة عن يوم الغاشية ، وشحذاً للهمم في طـاعة الله ومرضاته والجهاد في سبيله ، لأن الأمور آخـذ بعضها برقـاب بعض، والتكليف في الـدنيا وارتبـاطه با لمسـؤولية والجزاء يوم القيـامة ـــ كما أشرت غير مرة ـــ واضح كـل الوضـوح . أخرج الإمـام البخـاري في الجامع الصحيـح بسنده عـن النعمان بـن بشير رضي الله عنه قـال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عـذاباً يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجـل بالقمقم » ورواه مسلم دون ذكر « كما يغلي المرجل بـالقمقم » ورواه الترمذي بـأخصر من هذا أيضـا . وللبخاري في رواية أخرى « إن أهون أهل النـار عذاباً يوم القيامة لرجل تـوضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه » . وروى مسلم بسنـده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : « إن أدنى أهـل النار عـذاباً ينتعـل بنعلين من نـار ، يغلي دماغه من حرارة نعليه ».

فإذا كان هذا حال الأدنى ، فما بالك بما هـو أشد وأشد ؟عافانا الله جميعاً من هول جهنـم ، وسلك بنا ـــ وهو الرحيـم المنان ـــ سبيل من ينشر عليهـم رحمته في ذلك اليـوم العصيب ، ﴿ ويدخلهـم الجنة عـرّفها لهم ﴾ . قـال الإمام مسلـم : وحدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة قال : حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير قال : قـال رسول الله ﷺ : « إن أهون أهل النار عذابـاً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه ، كما يغلي المِرْجَلُ ، ما يرى أن أحداً أشدَّ منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً » .

والحق أن هذا البيان المفصّل من النبي ﷺ لما جاء في كتاب الله عز وجل ، فيه مزيد من التبصير ، لمن أراد التبصُّرَ وصدقَ الوجهة في طلب النجاة من عذاب الله

يوم القارعة ؛ لأن الله لا يظلـم الناس شيئاً ، ﴿ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ ، وأبواب الجنة مفتّحة لطـالبيها بصدق وعزيمة وإخلاص لله عـز وجل ، في القول والعمل .

هذا: ولم يدع رسـول الله صلوات الله وسلامه عليه ، أن يبيّن صـور أخذ النار لأهلها وقـانا الله شرهـا . أخرج مسلم بسنـده عن قتادة قـوله : سمعـت أبا نَضْرة يحدث عن سَمُرة ـ يعني ابنَ جُندب ـ أنه سمع نبي الله ﷺ يقول : « إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه إلى حُجْزته ومنهم من تأخذه إلى عنقه » . وأخرج من روايـة سمرة بن جندب رضي الله عنه أيضاً أن النبـي ﷺ قال : «منهم من تأخذه النـار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهـم من تأخذه النار إلى حُجـزته ، ومنهـم من تـأخذه النـار إلى ترقُـوته » ثـم قال الإمـام مسلم : حدثناه محمد بن المثنى ومحمد بن بشار قالا : حدثنا رَوْحٌ قال : حدثنا سعيد ـ بهذا الإسناد ـ وجعل مكان حُجزته ـ حِقْويه ـ .

الحُجزة : معقِـد الإزار والسراويل . والترقُـوة : العظم الـذي بين ثغرة النحـر والعاتق . (حِقـوَيه) بفتح الحاء وكسرها : هما معقـد الإزار ، والمراد هنا ما يحاذي ذلك الموضع من جنبيه .

ومما يجدر ذكره أن المؤمن إزاء ذلك كله ، لا ييأس من رحمة الله تبارك وتعالى ، بـل يعمل الصـالحات ويجدُّ في طاعـة الله الكريـم سبحانـه ،والجهاد في سبيلـه ، ويتخذ من الترغيـب في الجنة وما فيها ممـا لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلـب بشر ، والترهيب مـن النار ومـا يلقى أهلهـا من عـذاب السموم ، ومـا يطعمون من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ، وما يسقون من ماء حميم يقطع أمعاءهم... يتخـذ من ذلك كله حافـزاً إلى الارتفاع عن كل ما يقعـد عن مسلك أهـل الإنابـة الموفقين، مهما كلّف ذلـك من جهـد واحتمال للمكاره ؛ والله تبـارك وتعالى لايضيـع أجر مـن أحسن عمـلاً ، ومن لطفـه وإحسانـه أن جعل العـاقبة للمتقين .

عظيم من أبناء الآخرة

قال الله جل ثناؤه : **﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفّى كل نفس ما عملتْ وهم لا يظلمون ﴾** اللهم لطفك ورحمتك بنا في هذا اليوم العصيب ، ونسألك ـ وأنت الكريم المنان ـ أن تؤتي أنفسنا تقواها في هذه الدار ، وأن تزكيها أنت خير من زكاها، كي تكون يوم الفصل في ذلك المشهد الزاخر بترقب المصير ، على الحق بين يديك ، وأنت أحكم الحاكمين .

ولكم كان أولو النهى مستبصرين صلحاء حكماء ، حين صحبوا في حياتهم حقيقة ما يحفل به ذلك اليوم من المشاهد العظام ، واتخذوا من تلك الحقيقة نوراً يضيء لهم السبيل ، فلا يحول دونهم ، ودون العمل للآخرة ، رغب أو رهب من أمور الدنيا ، ولا يقعدهم عن اللحاق بركب أهل الاستقامة الصادقين ، تزيين هوىً أو نفثات شيطان !! أجل : كم كان هؤلاء البررة صلحاء حكماء ، عندما آثروا ما يبقى عل ما يفنى ، وحرصوا على اقتحام العقبات مهما غلا الثمن ، وأوجب من تضحيات . وتراهم ـ وقد ذاقوا حلاوة السلوك إلى مرضاة الله والفوز بدار النعيم ـ لايعدلون بلذة صبرهم على اللأواء ، وجهاد النفس والعدو ، لذة من لذائذ الدار الفانية التي يعمي حبها قلوب الغافلين .

أرأيت إلى رسول الله ﷺ كيف كان يؤكد بشارة آل ياسر بالجنة التي هم بها مؤمنون ، عندما كان يمر بهم وبنو مخزوم ينزلون بهم شديد العذاب !! روى ابن إسحاق وغيره « أن بني مخزوم كانوا يخرجون بعمار بن ياسر ، وبأبيه وأمه رضي الله عنهم إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول : صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة ؛ فأما أمه : فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام ». ألا إن دار الخلود الجنة التي فيها من النعيم المقيم ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، موعد هؤلاء الذين صبروا للفتنة القاتلة والبلاء المدمّر ، فلم يغيروا ولم يبدلوا ..

إنه لمشهد بالغ الأنس حقاً ؛ مشهدهم وقد أحلّهم الله دار الكرامة من فضله وقيل لهم : ﴿**سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**﴾ .

هذا :ومع ما جاء في الترخيص لمن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، عندما يقابل بالأذى الذي يضعف من احتماله وذلك قوله تعالى : ﴿ **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ نجد العلماء ـ وقد عقلوا عن الله ما تشرق به مشاهد أولئك المكرّمين من العطاء غير المحدود في جنة الخلد يوم القيامة ـ يرون جواز أن يستقتل المؤمن في سبيل الله عندما يواجَه بالفتنة ومرارة الأذى لصده عن سبيل الله ... قال الحافظ ابن كثير يرحمه الله : «ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يواليَ المكرَه على الكفر إبقاءً لمُهجَتِه ـ يعني ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان ـ ويجوز له أن يستقتِل كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ،وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ، ويأمرونه أن يشرك بالله ، فيأبى عليهم وهو يقول: أحَد أحَد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة أغيظَ لكم منها لقلتها ، رضي الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن خلّاد بن زيد الأنصاري لما قال مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول: لا أسمع : فلم يزل يقطعه إرْباً إرْباً وهو ثابت على ذلك» .

ولقد عمل هذا الثبات الصابر عمله في مواجهة التحديات، على ساحة الصراع بين الحق الذي يحمله المسلمون ، وبين الباطل الذي يتمرغ في حمأته أهل الضلال الكافرون ؛ فلا مساومة ولا مداهنة ، وما عند الله خير وأبقى ، والموعد الجنة دار الخلود . ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبدالله بن حُذافة السهمي أحد الصحابة رضي الله عنه : «أنه أسرته الروم فجاءوا به إلى ملكهم فقال له: تنصّر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي ، فقال له : لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب ، على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت : فقال: إذاً أقتلَك . قال : أنت وذاك ! فأمر به فصُلب ، وأمر الرماة ، فرموه قريباً من يديه ورجليه ـ وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى ـ ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بقدِر ـ

وفي رواية ببقرة من نحاس ـ فأحميت ، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح ، وعرض عليه فأبى ، فأمر به أن يُلقى فيها ، فرُفع في البَكَرة ليُلقى فيها ، فبكى ، فطمع فيه ودعاه ، فقال له : إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة ، تلقى في هذه القدر الساعة في الله ، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله . » وفي بعض الروايات (أنه سجنه ومنعه من الطعام والشراب أياماً ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير ، فلم يقربه، ثم استدعاه. فقال: ما منعك أن تأكل ؟ فقال : أما إنه قد حلّ لي ، ولكن لم أكن لأشْمِتك فيَّ ، فقال له الملك : فقبّل رأسي وأنا أطلقك ،فقال : وتطلق معي جميع أسارى المسلمين ؟ فقال : نعم ، فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده . فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حقٌّ على كل مسلم أن يقبل رأس عبدالله بن حذافة ، وأنا أبدأ ، فقام فقبّل رأسه) وهذه الرواية عند ابن عساكر أخرجها من طريق البيهقي ، وكذا الحافظ ابن حجر في كتابه «الإصابة» ولها شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موصولاً عند ابن عساكر ، وابن الأثير في كتابه « أسد الغابة ».

وفي « سير أعلام النبلاء » للذهبي : (الوليد بن مسلم قال : حدثنا أبو عمروٍ ومالك بن أنس أن أهل قيسارية أسروا ابن حذافة ، فأمر به ملكهم، فجُرّب بأشياء صبر عليها ، ثم جعلوا له في بيت معه الخمر ولحم الخنزير ثلاثاً لا يأكل ، فاطّلعوا عليه ، فقالوا للملك : قد انثنى عنقه ، فإن أخرجته وإلا مات، فأخرجه وقال : ما منعك أن تأكل وتشرب ؟ قال : أما إن الضرورة كانت قد أحلَّتها لي، ولكن كرهت أن أشمتك بالإسلام . قال : فقبِّل رأسي ، وأخلّي لك مائة أسير قال : أمّا هذا : فنعم ، فقبّل رأسه ، فخلّى له مائة ، وخلىّ سبيله).

لقد كانت جنة الخلد وما يشرق على أهلها من موعود القرآن وحديث النبي عليه الصلاة والسلام حيث الروضات التي فيها يحبرون . ولهم فيها ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم ، وإنعام الله عليهم برضوانه الأكبر ؛ لقد كانت الجنة وما

فيهـا من مـوعود الصـدق الـذي هو حـق اليقين نُصـب عيني ـ هذا الصحـابي الجليل ـ ناهيك عـن حرصه على عزة الإسلام والمسلم والبـذل الصادق في سبيل الله مهما كانت العواقب .

هذا : وقد كـان موقف ملك الـروم الذي تأثر التـأثر كله بصنيع ابـن حذافة مدعاة لتساؤل العلماء عن الحقيقة وراء هذا الموقف، وهل هي الإيمان؟ قال الإمام الذهبي : (ولعل هـذا الملك قد أسلم سِراً ، ويدل على ذلك مبـالغته في إكرام ابن حذافة . وكذا القـول في هرقل إذ عرض على قومه الدخول في الـدين ، فلما خافهم قال : إنما كنت أختبر شدتكم في دينكم . فمن أسلـم في باطنه هكذا ، فيرجى له الخلاص من خلود النار ، إذ قد حصّل في باطنه إيماناً ما ، وإنما يخاف أن يكون قد خضع للإسلام وللرسول ، واعتقد أنهما حق ، مع كون أنه على دين صحيح ، فتراه معظِماً للدينيين إلى أن قال : فهذا لا ينفعه الإسلام حتى يتبرأ من الشرك).

مات المجاهد الصادق ابن حذافة في خلافة عثمان رضي الله عنهم أجمعين.

دعوى الجاهلية وجُثاء جهنم

ما من مكلَّف يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ـ وهو مؤمن ـ إلا ويجد في هدي النبي ﷺ ـ وهو المؤتمن على بيان الكتاب العزيز ـ طريقاً إلى الفوز بالجنة والنجاة من النار ، وتلك حقيقة لا ينكرها إلا من سفه نفسه ، وأسلم قياده الفكري والعملي للهوى والشيطان ، وأياً ما كانت التعلُّلات المنتحلة ، والمعاذير التي لا يقوم لها دليل .. فإن النصوص المتعلقة بعاقبة أهل الضلالة والصد عن سبيل الله؛ من نار تلظى وعذاب أليم ، والنصوص المتعلقة بعاقبة أهل الهداية والتقوى والجهاد في سبيل الله ؛ من جنة عرضها السماوات والأرض أعدّها الله لعباده المنيبين المتقين .. كل أولئك مما يشهد للحقيقة المومى إليها ، شهادةً مشرقةً مبينة تستعلي على كل الدعاوى الفارغة والأباطيل .

هذا واحد من الأمثلة التي تكاد تعز على الحصر في هذا الجانب، من هديه عليه الصلاة والسلام ؛ إنه مشهد تنخلع له القلوب من مشاهد يوم القيامة.. مشهد نفر من الناس يدعون بدعوى الجاهلية ، فيسهمون في نقض عرى الإسلام بما يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وقد بلغ من وعيد النبي ﷺ على هذه الضلالة المفسدة أن أصحابها يكونون يوم الدين من جثي جهنم والعياذ بالله ؛ ذلك لأن الجاهلية تلك : شرك بالله وعدوان على الفطرة والعقل ، وتقليد أعمى للآباء والأجداد واتباع للهوى ، ومظاهرة للباطل على الحق ، ناهيك عما تحمل من جناية على إنسانية الإنسان !!

جاء في حديث طويل أخرجه الترمذي عن زيد بن سلاّم أن أبا سلاّم حدثه أن الحارث الأشعري رضي الله عنه حدثه أن النبي ﷺ قال في هذا الحديث : «وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: السمع ، والطاعة ، والجهاد ،والهجرة ، والجماعة؛ فإنه من فارق الجماعة قِيدَ شبر ، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ، إلا أن يرجع ، ومن

ادّعى دعوى الجاهلية ـ وفي رواية من دعا دعوة الجاهلية ـ فإنه من جُثى جهنم ؛ فقال رجل : يا رسول الله ، وإن صلى وصام ؟ قال : وإن صلى وصام ، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب. قال محمد بن اسماعيل : الحارث الأشعري له صحبة وله غير هذا الحديث . ثم قال الترمذي : حدثنا محمد بن بشار قال: حدثنا أبو داود الطيالسيُّ قال : حدثنا أبانُ بن يزيدَ عن يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلّام عن أبي سلّام عن الحارث الأشعري عن النبي ﷺ نحوه بمعناه . ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب . وأبو سلّام الحبشيُّ اسمه ممطورٌ ، وقد رواه عليّ بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير .

قيدَ شِبرٍ : أي قدَر شِبرٍ . الرِّبقة في الأصل كما يقول العلماء : حبلٌ فيه عرىً كثيرة تشد به الغنم ، الواحدة منها رِبقةٌ التي هي العروة . فاستعار للإسلام ربقة ، يعني بها العروة يشد بها المسلم نفسه من عُرى الإسلام . جُثى : جمع جُثوة بالضم وهي الشيء المجموع من جماعات جهنم . قال ابن الأثير : هذا فيمن رواها مخففة يعني «جُثى » ومن رواها « جُثيّ » مشدّدة ـ فإنه أراد الذين يجثون على الركب، واحدها : جاثٍ من قوله تعالى : ﴿حول جهنم جثياً﴾ وفي «لسان العرب». (وفي الحديث « فلان من جُثى جهنم » قال أبو عبيد : له معنيان : أحدهما : أنه ممن يجثو على الركب فيها ، والآخرُ : أنه من جماعات أهل جهنم على رواية من روى جُثى بالتخفيف ، ومن رواه من جُثيّ جهنم بتشديد الياء ،فهو جمع الجاثي قال الله تعالى : ﴿ ثم لنحضرنهم حول جهنم جِثِيّاً ﴾.

وأنت ترى مع هذا البيان منه عليه الصلاة والسلام عن مشهد أولئك الذين يدعون بدعوى الجاهلية، بكونهم من جُثى جهنم، أو من جُثيِّ جهنم يوم القيامة.. ترى تلك الإشارة الواضحة إلى قوله تعالى في آخر آية من سورة الحج : ﴿ **وجاهِدُوا في الله حَقَّ جِهادِهِ هُو اجْتباكم ومَا جَعَلَ عليكُم في الدّين من حَرَجٍ مِلَّةَ أبيكُم إبراهيمَ هُوَ سمّاكُم المسلمين من قبلُ وفي هذا ليكُونَ الرّسُول شَهيداً عَلَيْكُم**

وتكُونُوا شُهَداء على النّاس فأَقيموا الصّلاةَ وآتُوا الزّكاةَ واعْتَصِموا بالله هُوَ مَوْلاكُم فَنِعْمَ الْمَوْلَى ونِعْمَ النَّصير ﴾ .

والحديث أخرجه أحمد في المسند وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما ، والحاكم في المستدرك وقال : على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في «التلخيص» وجاء النص عند الإمام أحمد في إحدى الروايات بلفظ « من جثاء جهنم » بالمد ؛ ذلكم ما روى بسنده عن يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلاّم عن جده ممطور عن الحارث الأشعري ، حيث جاء هناك : «... وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله ، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثاء جهنم قالوا : يارسول الله وإن صام وإن صلّى وزعم أنه مسلم ؟ قال : وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم ؛ فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل » . وله من رواية أخرى «.. ومن دعا دعوى الجاهلية فهو جُثاء جهنم . قال رجل : يارسول الله وإن صام وصلّى ؟ قال : نعم وإن صام وصلّى ، ولكن تسمّوا باسم الله الذي سمّاكم عباد الله المسلمين المؤمنين ». الجَثاء كسحاب : بفتح الجيم : الشخص ويضم ، ويأتي بمعنى الجزاء والقدر والزهاء يقال : جُثاء كذا أي زهاؤهم .

وغير خاف ما للصلة البيانية بين حديث النبي ﷺ ـ وهو يتوعد من يدعو بدعوى الجاهلية الناقضة لعرى الإسلام ـ وبين قوله تعالى في الآية السابعة والستين من سورة مريم : ﴿ فوربِّك لنَحشُرنَّهم والشَّياطينَ ثُمَّ لنُحضِرنّهمُ حَوْلَ جَهَنّم جِثيّاً﴾ والسياق يدل على أن هذا الوعيد الشديد جاء لأولئك الذين ينكرون البعث يوم القيامة إذ سبقت بقوله جل شأنه : ﴿ ويقول الإنسان أئذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً . أولا يذْكُر الإنْسانُ أنا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ ولم يَكُ شيئاً ﴾ فالله تبارك وتعالى يقول لنبيه محمد ﷺ : فوربك يا محمد لنحشرنّ هؤلاء القائلين: أئذا متنا لسوف نخرج: أحياء من قبورهم مقرّنين بأوليائهم من الشياطين ، ثم لنحضرنَّهم حول

جهنم جثياً ـ و قرئت كلمة « جثياً » بضم الجيم وكسرها ...

وقد روى الإمام الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المعنى: ولنحضرنهم حول جهنم قُعوداً ــ جمع قاعد ـ أو أنهم يكونون جماعات جماعات ، أو جثياً على الركب ــ كما روي عن قتادة ـ ؛وكل هذه الصور توحي بهول ذلك المشهد أعاذنا الله منه . ومن الجائز ـ كما روي عن مقاتل ـ أن يكون معنى « حول جهنم » أي في جهنم ، وذلك أن حول الشيء يجوز أن يكون داخله تقول : جلس القوم حول البيت ؛ إذا جلسوا داخله مطيفين به ، وقيل : يجثون حولها قبل أن يدخلوها . ولقد يشتد الكرب أكثر وأكثر على أولئك الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم ، فيبصرهم الناس في ذلك اليوم ـ وقد بركوا على الركب من شدة الخزي والهول حول جهنم أيضاً ـ نقرأ ذلك في آية أخرى من سورة مريم ـ يبدو الحديث الذي نسعد بالرحلة معه ، وثيق الصلة البيانية بها كذلك ـ ألا وهي قوله تعالى : ﴿**ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثيّاً**﴾ .

قال ابن زيد : الجُثِيُّ : شر الجلوس ، لا يجلس الرجل جاثياً إلا عند كرب ينزل به . وقد ورد عن قتادة أيضاً « إن الناس وردوا جهنم وهي سوداء مظلمة ، فأما المؤمنون : فأضاءت لهم حسناتهم فأُنجوا منها ، وأما الكفار : فأوبقتهم أعمالهم واحتبسوا بذنوبهم» ويا بؤس الظالمين في ذلك اليوم العصيب ..

التهاب الشملة... والمسؤولية والجزاء

في رحلتنا مع زمرة طيبة من مشاهد القيامة ـ كما جاءت الأخبار عنها في السنة المطهرة المبينة للكتاب العزيز وما في تلك المشاهد من تحقق وعد الله عباده الصالحين المستقيمين على الصراط السوي ، وما فيها مما أوعد به أولئك الذين استعبدتهم الضلالة فعموا وصمّوا وكانوا من أهل السعير ـ.. في هذه الرحلة المباركة ، نقع على العديد من المواطن التي تحمل إيذان النبي ﷺ ـ وهو الذي لا ينطق عن الهوى ـ بما تكون عليه صورة من يظلمون أنفسهم بالمخالفة عن أمر الله وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام ، ويشترون الحياة الدنيا بالآخرة ، مولّين ظهورهم لحقيقة ما يؤذن به قول الله تعالى تنبيها للأمة وتحذيراً لها من الغفلة : ﴿ **قُلْ متاعُ الدُّنْيا قليلٌ والآخرةُ خَيْرٌ لِمَن اتَّقى وَلاَ تُظْلَمونَ فتيلاً** ﴾ والآخرةَ هنا هي الجنة ؛ إذ أخبر عما هو واقع بهم من العذاب جزاء ما اقترفوا من الإثم ، ويوم القيامة ينكشف الغطاء ؛ ويزداد الأمر اتضاحاً وجلاءً .

قال الإمام البخاري في كتاب المغازي من « الجامع الصحيح » : «حدثني عبدالله بن محمد قال : حدثنا معاوية بن عمرو قال : حدثنا أبو إسحاق عن مالك ابن أنس قال : حدثني ثورٌ قال : حدثني سالم مولى ابن مطيع أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول : «افتتحنا خيبر ولم نغنم ذهباً ولا فضة ، إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط ، ثم انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادي القُرى ومعه عبدٌ له يقال له : مِدْعم، أهداه له أحد بني الضِّباب . فبينما هو يحطُّ رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر حتى أصاب ذلك العبد ، فقال الناس : هنيئاً له الشهادة . فقال رسول الله ﷺ : بلى والذي نفسي بيده إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من الغنائم التي لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه ناراً . فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ بشراك أو شراكين فقال : هذا شيء كنت أصبته ، فقال رسول الله ﷺ : شِراك

أو شِراكان من نار » .

الحوائط : البساتين، جمع حائط . سهم عائر : لا يُدرى من رمى به وقيل : هو الحائد عن قصده . أما الشراك ـ بكسر الشين ـ : فهو سَيْرُ النعل على ظهر القدم ، والسَّيْر يُقَدُّ عادة من الجلد . والشملة: كساء يتغطى به ويتلفّف فيه .

والملاحظ أن القوم قد جزموا بأن الرجل شهيد محكوم له بالجنة أول وهلة ، فزجرهم النبي ﷺ رداً لحكمهم هذا ، قائلاً : « بلى والذي نفسي بيده إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من الغنائم التي لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً » ذلك بأن أخذ هذا الثوب لنفسه قبل أن تقسم المغانم هو من الغلول ؛والغلول حرام منهي عنه . قال أبو عبيد : الغُلول هو الخيانة في الغنيمة خاصة ، وقال غيره: هو الخيانة في كل شيء . ويقال منه : غَلَّ يَغُلُّ . وقال ابن قتيبة : سمي الغُلول بذلك لأن آخِذَه يغلُّه في متاعه أي يخفيه فيه ، ونقل الإمام النووي رحمه الله الإجماع على أنه من الكبائر . وقال تعالى .. ﴿ وما كان لنبي أن يغّل ومن يغلُل يأت بما غلَّ يوم القيامة ﴾.

واشتعال الشملة على مِدْعم ناراً .. يحتمل ــ كما قال الحافظ ـ أن يكون ذلك حقيقة بأن تصير الشملة نفسها ناراً فيعذبَ بها ، ويحتمل أن يكون المراد أنها سبب لعذاب النار ، وكذا القول في معنى قوله ﷺ : « شراك أو شراكان من نار » . إذ أن النبي ﷺ نبَّه على المعاقبة عليهما ، وقد تكون المعاقبة بهما نفسيهما ، فيعذب بهما وهما من نار ، وقد يكون المراد أنهما سبب لعذاب النار ؛ أعاذنا الله من حرها ولفحها بمنه وكرمه سبحانه .

ولا بد من الإشارة هنا إلى ما حكى الدارقطني عن موسى بن هارون أنه قال: وهِمَ ثور في هذا الحديث لأن أبا هريرة لم يخرج مع النبي ﷺ إلى خيبر ،لكنه قدم بعد خروجهم ، قال أبو مسعود : ويؤيده حديث عنبة بن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « أتيت النبي ﷺ بخيبر بعدما افتتحوها » قال : ولكن لا

يشك أحد أن أباهريرة حضر قسمة الغنائم . فالغرض من الحديث قصة مِدعم في غلول الشملة ، وأن ذلك تسبب في أن تشتعل عليـه ناراً . قال الحافظ ابن حجر : قلت : وكأن محمد بن إسحاق صاحب المغازي استشعر بوهْم ثور بن زيد في هذه اللفظة ، فـروى الحديث عنـه بدونها . أخرجـه ابن حبان والحاكـم وابن منـده من طريقـه بلفظ « انصرفنـا مع رسـول الله ﷺ إلى وادي القرى » وروايـة أبي اسحاق الفَزاري التي في هذا الباب تسلم من هذا الاعتراض ؛ بأن يحمل قوله: « افتتحنا » أي المسلمون . قال رحمه الله: وقـد تقدم نظير ذلك قريباً . وروى البيهقـي في كتابه «دلائل النبوة » من وجه آخر عن أبي هريـرة قال : «خرجنا مع النبي ﷺ من خيبر إلى وادي القرى » فلعـل هذا أصـل الحديث . وحـديث قـدوم أبي هريـرة المدينة والنبي ﷺ بخيبر ، أخرجه أحمد وابن خزيمة والحاكم من طريق خُثَيْم بن عراك بن مـالك عـن أبيه عـن أبي هـريرة قـال : « قـدمت المدينـة والنبي ﷺ بخيبر وقـد استخلف سباع بـن عرفطة ، فذكر الحديـث وفيه : « فزودنا شيئـاً حتى أتينا خيبر وقد افتتحها النبي ﷺ ، فكلّم المسلمين فأشركونا في سهامهم».

هذا : وكان لابد للحافظ من الجمع بين هـذا ـ أعني القسم لأبي هريرة ومن معه من غنائم خيبر ـ وبين الحصر في حديث أبي موسى الذي قبله عند البخاري؛ وهو قوله رضي الله عنه : « قدمنا على النبـي ﷺ فقسم لنا ولم يقسم لأحد لم يشهد غيرنـا » وكان الجمـع بين الحديثين بأن مـوسـى أراد أنه عليـه الصلاة والسـلام لم يسهم لأحـد لم يشهد الوقعة مـن غير استرضاء أحد من الغـانمين: إلا لأصحاب السفينة التي قدم فيها أبو موسى ، ومن معـه من الحبشة مع جعفر بن أبي طالـب، وأما أبوهريرة وأصحابه : فلم يعطهم إلا عن طيب خواطر المسلمين والله أعلم .

وفي عود على بدء في ظـل الاعتبار بذلك المشهـد المروّع ، مشهدِ الشملة ، أو العباءة ـ كما جاء في بعض الروايات ـ التي تلتهب على صاحبها الذي غلّها ناراً في الدنيـا، ويوم يقوم الحساب: ننظـر في روايات أخر للحـديث الذي ندنـدن حول معناه ودلالتـه ؛ فقد روى الإمام مسلـم بسنده عـن أبي هريرة رضي الله عنـه قال:

«خرجنـا مع النبي ﷺ إلى خيبر ففتح الله علينـا ، فلم نغنم ذهباً ولا ورِقـاً ، غنمنا المتاع والطعام والثياب ، ثم انطلقنا إلى الوادي ، ومع رسول الله ﷺ عبدٌ له وهبه له رجل من جُذامٍ يُدعـى رفاعة بنَ زيد من بني الضبيب ؛ فلما نـزلنا الواديَ قام عبد رسول الله ﷺ يحِلُّ رحله ، فرمـي بسهم كان فيه حتفه . فقلنا : هنيئـاً له الشهادةُ يا رسول الله ! قال رسول الله ﷺ : كلا والذي نفـس محمد بيده ، إن الشملة لتلتهب عليه ناراً ، أخـذها من الغنائم يـوم خيبرَ لم تصبها المقاسم ، قـال : ففزع الناس ، فجاء رجل بشراك أو شراكين فقـال : يا رسول الله أصبت يـوم خيبر ، فقال رسول الله ﷺ: شراك من نار أو شراكان من نار» .

ويبدو أن الرجل المشار إليه هنا : هـو «مِدْعم» المصرح به في رواية البخاري، وهو كذلك في الموطأ عند مالك رحمه الله .

و الحق أن مما يخيـف المؤمن ويذكـره وجوب الثبـات على الصراط السويِّ في حيطة وحذر بـالغين : ذلك المشهد البارز ، يـوم القيامة بدلالتـه والذي أخبر عنه النبي ﷺ هنا في هذه الـدار وكانت الطريق إليه تعـدّي حدود الله في أمر الغنيمة، الأمر الذي يـؤكد ما يجب أن يكون في حسِّ المؤمن مـن الترابط بين العمل في دار الفناء والمسؤولية في دار الجزاء .

هو في النار...

في متابعة للرحلة مع بعض من نصوص السنة المطهرة ، في شأن تلكم المشاهد التي تعلن إعلانها يوم القيامة ، وتنذر من تسوّل لهم أنفسهم المخالفة عن أمر الله ورسوله بالفتنة في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة ، تحسن الإشارة إلى أن الرجل الذي أخبر النبي ﷺ بأن الشملة التي غلّها تلتهب عليه ناراً ـ ولذلك زجر من حكم له بالشهادة والشهيد له ما له من المكانة العظيمة عند الله ـ هو مدعم الذي جاء التصريح به في رواية الامام البخاري ،ولم تصرح به رواية مسلم ؛ إذ جاء عنده على لسان أبي هريرة « ثم انطلقنا إلى الوادي ومع رسول الله ﷺ عبد له وهبه له رجل من جذامٍ يدعى رفاعة بن زيد .. » الحديث ؛ فقد روى الإمام مالك في الموطأ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «خرجنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر ، فلم نغنم ذهباً ولا ورِقاً إلا الأموال والثياب والمتاع ـ ولعله أراد بالأموال هنا الحوائط كما جاء عند البخاري ـ فوجّه رسول الله ﷺ إلى وادي القُرى ، حتى إذا كنا بوادي القُرى ، بينما مِدْعمٌ يحُط رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر . فأصابه فقتله. فقال الناس : هنيئاً له الجنة . فقال رسول الله ﷺ : كلاّ والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذ يوم خيبرَ من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتمل عليه ناراً . قال: فلما سمع الناس ذلك جاء رجل بشراك أو شراكين إلى رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : شِراك أو شراكان من نار » . ورواه أبو داود .

على أن هنالك رواية عند الإمام البخاري جاءت بلفظ «كَركَرة أو كَركِرة» لرجل غلّ عباءة من المغانم أخذها من المغانم لم تصبها المقاسم . فتحت «باب الغلول » من كتاب الجهاد قال رحمه الله : حدثنا علي بن عبدالله قال: حدثنا سفيان عن عمرو عن سالم بن أبي الجعد عن عبدالله بن عمروٍ قال : « كان على ثَقَل النبي ﷺ رجل يقال له كَركِرة فمات ، فقال رسول الله ﷺ : هو في النار

فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءةٌ قد غلَّها ».

الثَقَل بثاء وقاف مفتوحتين : العيال وما يثقل حمله من الأمتعة . أما كَرْكَرة أو كركِرة : فقد ذكر الواقدي أنه كان أسود يمسك دابة رسول الله ﷺ في القتال . وروى أبو سعيد النيسابوري في كتابه « شرف المصطفى» أنه كان نوبياً أهداه له هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة فأعتقه . قال الحافظ رحمه الله : وفي الحديث تحريم قليل الغلول وكثيره . وقوله : « هو في النار » أي يعذب على معصية ، أو المراد هو في النار إن لم يعف الله عنه .

ونظراً لغلظ تحريم الغلول ، وأن ذلك يتنافى مع صدق النية للقتال في سبيل الله جاء البخاري في كتاب الجهاد من الجامع الصحيح بباب ترجمته : «باب الغلول وقول الله عز وجل: ﴿ومن يغلُل يأت بما غلّ يوم القيامة﴾». ثم أتى بحديث يدل على مشهد الفضيحة يوم القيامة على رؤوس الخلائق لهذا الإنسان الذي وقع في ذلك الإثم ، وكيف أن رسول الله لا يستجيب لاستغاثته ، لو استغاث به في تلك الساعة العصيبة لأنه بُلّغ وعصى ما بُلِّغه حيث زينت له نفسه أخذ ما أخذ ، رغبة في عرض زائل ، لا قيمة له أمام ثواب المجاهد الصادق في سبيل الله ، قال رحمه الله : حدثنا مسدّد قال : حدثنا يحيى عن أبي حيَّان قال : حدثني أبو زرعة قال : حدثني أبو هريرة رضي الله عنه قال : «قام فينا النبي ﷺ فذكر الغُلول فعظّمه وعظَّم أمره قال : لا ألفينّ أحدكم يوم القيامة على رقبته فرس له حَمحَمةٌ يقول : يارسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك . أو على رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك . أو على رقبته صامت فيقول : يارسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ، أو على رقبته رقاع تخفق فيقول : يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك شيئاً قد أبلغتك ».

الصامت : الذهب والفضة ، وقيل : مالا روح فيه من أصناف المال .

سبحان الله كم يحمل هذا النص المبارك ، من التذكير واستثارة كوامن الإيمان بأن الدنيـا متاع زائل ، وأن ما عند الله خير وأبقى !! قال المهلـب : «هذا الحديث وعيد لمن أنفذه الله عليه من أهل المعاصي ، ويحتمل أن يكون الحمل المذكور لا بد منه ،عقـوبة لـه بذلك ، ليفتضـح على رؤوس الأشهاد . وأمـا بعد ذلـك : فإلى الله الأمر في تعذيبـه أو العفو عنه» . وقال غيره : «هـذا الحديث يفسر قوله عـز وجل ﴿يأت بما غلَّ يوم القيامة ﴾».

وقد جاء عند الإمام مسلم ـ بمناسبـة الغلول ـ ما يكشف عن ارتباط الإيمان وكماله ، بـالاستقامـة على شرع الله وعدم تجاوز حـدوده سبحانـه ، وأنه لا يـدخل الجنة إلا المؤمنـون ؛ فقد روى بسنـده عن عبـدالله بن عبـاس رضي الله عنهما قال: حدثنـي عمر بـن الخطاب رضي الله عنـه قال : «لما كـان يوم خيبر أقبـل نفر مـن صحابة النبي ﷺ فقالوا : فلان شهيد ، فـلان شهيد ، حتى مروا على رجل فقالوا: فلان شهيد ، فقال رسول الله ﷺ : كلا إني رأيته في النار في بُرْدة غلّها أو عباءة، ثم قال رسول الله ﷺ : يـا ابن الخطاب اذهب فنـاد في الناس أنّه لا يدخـل الجنة إلا المؤمنون ، قال: فخرجت فناديت : ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون » .

قوله ﷺ : « إني رأيته في النار في بردة غلّها ـ أو عباءة ـ » أما البُردة بضم الباء: فكساء مخطط وهي الشملة والنمرة وجمعها بُـرَد بفتح الراء . وأما العباءة : فمعروفة ويقال فيها أيضاً : عباية بالياء ، قاله ابن السكّيت وغيره . وقوله ﷺ :« في بردة »: أي من أجلها وبسببها . وقد استنبط الإمام النووي من هذا الحديث وسابقه الذي أوردناه من قبـل : غلظ تحريم الغلول وأنه لا فـرق بين قليله وكثيره حتى الشراك ، وأن الغلول يمنع من إطلاق اسم الشهادة على من غلّ إذا قتل .

هذا : وتحت باب « تعظيم الغلول » من السنن أخرج أبو داود بسنده عن زيد ابن خالد الجهني « أن رجلاً من أصحـاب النبي ﷺ توفي يوم خيبر ، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال : صلـوا على صاحبكم ، فتغيرت وجوه الناس لـذلك ، فقال : إن

صاحبكم غلّ في سبيل الله ، ففتشْنا متاعه ، فوجدنا خرزاً من خرز يهود لا يساوي درهمين» . وأخرجه ابن ماجة في كتاب الجهاد ـ باب الغلول ـ من السنن من رواية زيد بن خـالد الجهني أنه قـال : «توفي رجل من أشجـعَ بخيبر ، فقال النبي ﷺ : «صلوا على صاحبكم » فأنكر الناس ذلك وتغيرت وجوههم ، فلما رأى ذلك قال: إن صاحبكـم غلّ في سبيل الله . قـال زيد : فالتمسوا في متـاعه فإذا خـرزات من خرزات يهود ، ما تساوي درهمين ».

وصلى الله وسلم وبارك على الأسوة الحسنة معلّم الناس الخير الذي ترك الأمة على بيضاء نقية ليلُها كنهارها لا يزيغُ عنها إلا هالك وعلى آله وصحابته ومن اتبع سنته واهتدى بهديه المبارك الميمون .

من خير ما يزين سلوك المؤمن في علاقته بربه الرحمن الرحيم : أن يكون من أهل الذكرى والتذكر ـ فما يتذكر إلا من ينيب ـ بعيدَ القلب والعقل عن الغفلة وسبل الغافلين ، الغافلين الذين ذرأهم الله لجهنم وساءت مصيراً . ذلك بأنهم لم يستخدموا عقولهم وحواسَّهم في مرضاة الله تعالى ، بل وضعوها في طاعة الهوى والشيطان ﴿ ولَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّم كثيراً من الجنِّ والإنْس، لَهُمْ قُلوبٌ لا يَفْقَهونَ بها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصرونَ بها وَلَهُم آذانٌ لا يَسْمعون بها أولئكَ كالأنْعامِ بَلْ هُمْ أَضلُّ أولئك هُم الغافِلون ﴾ .

من هنا كان الوقوع في شرك الغفلة عنوان الإعراض عن الحق ، والركون إلى ما هو ملهاة وانصراف عن ذكر الله واليوم الآخر ، وذلك هو الخسران المبين .

ومن الواضح ـ كما تدل الأخبار الصحيحة الموثقة ــ أن الكثير ممن تحطِمهم أهوال القيامة ، ويفتضحون في مشاهدها على رؤوس الأشهاد ، يكونون من الغافلين الذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، وجعلوا من الركون إلى ما فيها من المتاع الزائل ، حائلاً بينهم وبين النظر إلى الآخرة بعين البصيرة ، والعملِ ليوم تشخص فيه الأبصار ﴿ وتَرى المجْرمينَ يَومَئِذٍ مُقرَّنين في الأَصْفادِ . سرابيلُهم مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجوهَهُم النَّارُ ﴾ .

وإذا كان الأمر كذلك : فالعمل ليوم الجمع الذي هو آتٍ لا محالة ــ أخذاً بالمنهج الأقوم الذي سلكه إمام المتقين سيدنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام ، والسلف الصالح من بعدهم وحتى يوم الناس هذا ــ دليلُ التبصُّر الإيماني وحسنِ الأحدوثة ، ناهيك عن التصديق الجازم بما دلت عليه معالم الهداية في كتاب الله وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ، حين كشفت بجلاء

ووضوح لا مزيد عليهما ،عن عاقبة كلٍ من أهل الهداية والاستقامة ، وأهل الضلالة والانحراف، يوم يجمع الله الخلائق ليوم لا ريب فيه ، وتوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

فترى أولئك البررة الآخذين أنفسهم بذلك المنهج المبارك ، يفرحون أشد الفرح إذا وُفّقوا إلى ما يقربهم إلى الله زلفى ، ويجعلهم من أهل السعادة في ذلك اليوم العصيب . ويحزنون أشدّ الحزن إذا فاتهم شيء من ذلك الخير ، لأن مطلوبهم أبداً أن تنالهم رحمة الله ، ويفوزوا بمرضاته، فيزحزحوا عن النار ، ويدخلوا جنة الخلد التي وعد الرحمن عباده بالغيب؛ ﴿إنه كان وعده مأتِيّاً ﴾. روي عن مالك ابن دينار «أنه كان يتقنع بعباءة ثم يقول : إلهَ مالِك : قد علمتَ ساكن الجنة من ساكن النار ، فأيُ الدارين دار مالك ؟ وأيُ الرجلين مالك ؟ ثم يبكي. وكان يقول رحمه الله : لو استطعت أن لا أنام ، لم أنم ؛ مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعواناً لفرقتهم ينادون في منار الدنيا كلها : يا أيها الناس النارَ النارَ . وقد أوردت بعض ذلك عنه في مناسبة سابقة . وكان يقول : لو كان لأحد أن يتمنى، لتمنيت أن يكون لي في الآخرة خص من قصب فأَروى من الماء وأنجوَ من النار».

ولم لا يكون الربانيون على هذه الشاكلة ، والرسول ﷺ ــ وهو نعم الأسوة الحسنة للأمة ــ كان يكثر أن يسأل الله الجنة ، وأن يستعيذ به من النار ، أخرج أبوداود في السنن بسنده عن أبي صالح رحمه الله عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ «أن رسول الله ﷺ قال لرجل : كيف تقول في الصلاة ؟ قال : أتشهّد ثم أقول: اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار . أما إني لا أحسن دندنتك ودندنة معاذ ، فقال رسول الله ﷺ : حول ذلك ندندن أنا ومعاذ » ورواه ابن ماجة بلفظ: أتشهد ثم أسأل الله الجنة ، وأعوذ به من النار . أما والله ما أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ: فقال : « حولها ندندن » . قال البوصيري في الزوائد : صحيح ورجاله ثقات. وقال الإمام أحمد في المسند : حدثنا معاوية بن عمرٍو قال : حدثنا زائدة

عن الأعمش عن أبي صالح عن بعـض أصحاب النبي ﷺ أنه قال : « قال النبي ﷺ لرجـل : كيف تقول في الصـلاة ؟ قال : أتشهد ثـم أقول : اللهم إني أسـألك الجنة وأعوذ بك من النار ـ أما إني لا أحسـن دندنتك ولا دندنة معاذ . فقال النبي ﷺ : حولها ندندن ».

الدندنة : أن يتكلـم الإنسان بكلام تسمع نغْمته ولا يفهم لخفـائه . قال ابن الأثير في كتابـه « النهاية في غريـب الحديث » : (فيه أنـه سأل رجلاً ما تـدعو في صلاتك ؟ فقال : أدعو بكذا ، وأسأل ربي الجنة ، وأعوذ به من النار . فأما دندنتك ودندنـة معاذ : فـلا نحسنها ، فقـال عليه الصـلاة والسلام : «حـولهما ندنـدن ». وروي: «عنهما ندندن » ثم قـال : الدندنة أن يتكلـم الرجل بـالكلام تسمع نغْمته ولا يفهم، وهو أرفع من الهينمة قليـلاً ، والضمير في حولهما للجنة والنار أي حولهما ندندن وفي طلبهما .. إلى أن قـال : وأما «عنهما ندندن » فمعناه أن دنـدنتنا صادرة عنهما وكائنة بسببهما).

والأحاديث في دعائه ﷺ بهذا الدعاء وأمثاله وتعليم ذلك الصحابة رضي الله عنهم كثيرة وفيرة . وكل أولئك من رحمته ﷺ بأمته وتوجيهها وجهة العمل الصالح وحسـن التضرع إلى الله ،طمعاً بـالجنة واتقـاءً للنـار ، وطالما فصّـل عليه الصـلاة والسلام القـول في الجنة ونعيمهـا ،والنار وأهـوالها وأحوال أهلهـا . عن أبي هـريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقتهم فلفحتهم لفحة ، فلم تدع لحماً على عظم إلا ألقته على العرقوب » رواه الطبراني في «الأوسط» والبيهقي في كتاب « البعث والنشور » مرفوعاً . قال المنذري : ورواه غيرهما موقوفاً عليه وهو أصح .

وماذا أنت قائل بمشهد المجرمين وهـم مقرنون في الأصفاد ، وبسيماهم التي يعرفون بها ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم فيـؤخذُ بالنّواصي والأقْدام ﴾ أي بعلامات تظهر عليهم . قال الحسـن وقتادة : يعرفونهم باسوداد الوجـوه وزرقة العيون . قال

الحافظ ابن كثير : قلت: هذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء. وبعد التَعـرُّف عليهم تجمع الـزبانيـة ناصية المجـرم مع قدميـه ويلقونـه في النار كذلـك. وقال الأعمش عـن ابن عباس رضي الله عنهما : يؤخـذ بناصيته وقـدمه ، فيكسر كما يكسر الحطـب في التنـور . وعنـه وفي رواية أخـرى : يُجمـع بين رأسـه ورجليه ثم يقصف كما يقصف الحطب . رواه البيهقي . وروى عن الضحاك قوله : يجمع بين نـاصيته وقـدميه في سلسلة مـن وراء ظهره . ونرى عنـد السدي قـوله : يجمع بين ناصية الكافر وقدميه ، فتربط ناصيته بقدمه ويفتل ظهره .

اللهم إنا داعون بدعاء نبيك عليه الصلاة والسلام ؛ فنسألك الجنة ونعوذ بك من النار . لك العتبى حتى ترضى ،وأنت المحمود على كل حال .

نار لا تطفأ.. وعذاب لا ينفد

من صفات المؤمن الذي يرجو الله واليوم الآخر : أنه يدعو الله رغباً ورهباً ، ولا يتوانى عن السباق في مضمار العمل الصالح ، والقيام بالطاعات وفعل الخيرات ، رجاء أن يكون من الناجين من عذاب الله يوم القيامة ، الفائزين بجنته ورضاه . وفي الوقت نفسه ، يتخذ من الترغيب بما أعد الله لعباده الطائعين المخبتين ، يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ، من الخير العميم . ومن الترهيب مما توعّد به من ظلموا أنفسهم ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وغرّهم بالله الغرور ، من سوء العاقبة والعذاب الغليظ .. يتخذ من ذلك كله عوناً ـ بعد الله ـ على نفسه الأمارة بالسوء ، فيدينها ويزكيها ، ويجعل اليوم الآخر نصب عينيه ،طامعاً برحمة الله ومغفرته ،خائفاً من عقابه الأليم .

وذلكم هو العقل المبصر ؛لا العقل الذي تقوده الأهواء والشهوات ؛ فالأمر عندما تأزف الآزفة لا يحتمل التسويف . والأخبار عن الذين يحكم عليهم بأن يذوقوا العذاب الأليم : تضطرب لها القلوب وتقشعر من هول ما تنذر به الأبدان . أرأيت إلى مشهد أولئك الذين كفروا بآيات الله ؛ كيف يصليهم ربنا القادر القاهر نار جهنم ! وكيف أنه كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب؟! **﴿ إنّ الذينَ كَفَرُوا بـآياتِنا سَوْف نُصْليهِمْ ناراً كُلَّما نَضِجـتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلوداً غَيْرها ليذُوقوا العذابَ إنَّ الله كانَ عَزيزاً حكيماً ﴾** إنه مشهد كشف رسول الله ﷺ عن بعض صوره المرعبة، التي تحفز إلى أخذ النفس بالجد في طاعة الله تعالى ، وقطع ما بينها وبين من ضَربت العماية قلوبهم ، وانقلبوا على أعقابهم خاسرين ؛ قال ابن مردويه : حدثنا محمد بن إسحاق عن عمران قال : حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحارث قال : حدثنا شيبان بن فرّوخ قال : حدثنا نافع أبو هرمز قال : حدثنا نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : «تلا رجل عند عمر

هذه الآية ﴿**كلما نضجت جلودهم**﴾ الآية فقال: أعدها عليَّ ــ وثَمَّ كعب ـ فقال: يا أمير المؤمنين أنا عندي تفسير هذه الآية ، قرأتها قبل الإسلام ، قال : هاتها يا كعب، فإن جئت بها كما سمعتُ من رسول الله ﷺ صدّقناك ، وإلا لم ننظر إليها ، فقال : أني قرأتها قبل الإسلام : كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، في الساعة الواحدة عشرين ومائة مرة ، فقال عمر : هكذا سمعت من رسول الله ﷺ) ورواه البيهقي بلفظ : « يا كعب أخبرني عن تفسيرها فإن صدَقت صدّقتُك، وإن كذبت رددت عليك ، فقال : إن جلد ابن آدم يحرق ويجدَّد في ساعة أو في يوم مقدار ستة آلاف مرة ، قال : صدقت» .

ويبدو ــ والله أعلم ـ أن العدد هنا لا مفهوم له والمراد به الكثرة ؛ فقد روى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري رحمه الله : «كلما أنضجتهم فأكلت لحومهم قيل لهم : عودوا فعادوا ». كما روى بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قرأ رجل عند عمر هذه الآية ﴿**كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها** .. ﴾ الآية فقال عمر: أعدها عليّ. فأعادها ، فقال معاذ بن جبل ؛ عندي تفسيرها : تُبّدل في ساعة مائة مرة . فقال عمر : هكذا سمعت رسول الله ﷺ » .

وإنا مع سؤالنا المولى لطفه ، والضراعة إليه أن يجعلنا بمنه وكرمه من الناجين، لابد أن ننتبه على أن كون الآية تكشف عن مشهد من مشاهد العذاب الأليم لأولئك الذين كفروا بآيات الله ،لا يُنسي أن عصاة المؤمنين يدخلون جهنم إذا شاء الله ذلك ، فيؤدبون بالعقاب المكتوب عليهم، جزاء ما اجترحوا من السيئات، ثم في خاتمة المطاف ، يُخرجون من النار ويُدْخلون الجنة ، على تفصيل نطقت به الأحاديث الصحيحة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقد أوردت في صفحات مضت بعضاً منها . وهذا ما يوجب الحذر ، والحرص على التزود بما ينفع يوم اللقاء، ويباعد بين المؤمن وبين أن يكون ممن تسعّربهم نار السعير ؛ شأن من يظلمون أنفسهم ، ويلِغون في إثم الظلم للآخرين ، وتمهد لهم الشياطين ـ شياطين الإنس والجن ـ سبل الطغيان والجناية على عباد الله المؤمنين. أجل : إن

المؤمن حين يسلك هذا المسلك المرضيّ يفوز بالجنة ـ إن شاء الله ـ وينجو من عاقبة الظلم ومرتعه الوخيم ﴿ **يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالمِينَ مَعْذِرَتُهم وَلَهُمْ اللَّعْنَةُ ولَهُمْ سوءُ الدّار** ﴾ والعقل المؤمن يقضي بإيثار ما يبقى على ما يفنى ؛ خصوصاً وأن النصوص قد دلّت على أن صَبغة واحدة في النار ـ وهي الغمسة ـ تنسي أنعَم أهل الدنيا من أهل النار ، ما كان فيه من النعيم في دار الفناء ، وصَبغة واحدة في الجنة تنسي أشدَّ الناس بؤساً في الدنيا ما كان فيه .

وقد مر بنا من قبل ما روى الإمام مسلم بسنده عن ثابت البُناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيُصبغُ في النار صَبغةً ثم يقال : يا ابن أدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ بك نعيم قطّ ؟ فيقول : لا والله يارب . ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبَغ صَبغة في الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يارب ما مرّ بي بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط » يصبَغ صَبغة : أي يغمس غمسة كما يغمس الثوب في الصِبغ . وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان قال : حدثنا حماد قال : أنبأنا ثابت عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بأشد الناس كان بلاءً في الدنيا من أهل الجنة ، فيقول اصبغوه صبغة في الجنة ، فيصبِغُونه فيها صَبغة ، فيقول الله عز وجل : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ أو شيئاً تكرهه ، فيقول : لا وعزتك ما رأيت شيئاً أكرهه قط ، ثم يؤتى بأنعم الناس كان في الدنيا من أهل النار ، فيقول اصبِغُوه فيها صَبغة ، فيقول : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط ، قرة عين قط ؟ فيقول : لا وعزتك ما رأيت خيراً قط ولا قرة عين قط » .

هكذا تنير مشاهد القيامة السبيل للسالكين ، وتذكّر بحقائقها الغافلين ، وتدفع إلى العمل الصالح المقّصرين ؛ فما من امرىء يعقل عن رسول الله ﷺ ما نبّه عليه، من وجوب أن يؤثر المؤمن ما يبقى على ما يفنى ، وأنه لا يستوي من يسلك طريق أهل الجنة ، ومن يسلك طريق أهل النار .. إلا بادر بالأعمال الصالحة

المعوقاتِ والفتنَ ، وسارع إلى مغفرة من مولاه عز وجل، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين . وذلك ما حرص ربانيو هذه الأمة الماجدة ، أن يأخذوا به أنفسهم ، ويؤدوا حق الله في نصح الآخرين وتوجيههم إلى العمل به . روى أبو نعيم في الحلية بسنده عن يزيد بن هارون قال : قال أبو عبيدة : قال الحسن ـ وهو البصري ـ أجزل الله مثوبته : (رحم الله امرءاً عرف ثم صبر ، ثم أبصر فبَصُر ؛ فإن أقواماً عرفوا فانتزع الجزع أبصارهم ، فلاهم أدركوا ما طلبوا ، ولا هم رجعوا إلى ما تركوا . اتقوا هذه الأهواء المضلِّة البعيدةَ من الله ، التي جماعها الضلالة وميعادها النار لهم محنة . من أصابها أضلته ، ومن أصابته قتلته. يا ابن آدم دينك دينك فإنه هو لحمك ودمك ، وإن يسلمْ لك دينك يسلمْ لك لحمك ودمك ، وإن تكن الأخرى ، فنعوذ بالله ، فإنها نار لا تطفأ ، وجرح لا يبرأ ، وعذاب لا ينفد أبداً ، ونفس لا تموت ، يا ابن آدم إنك موقوف بين يدي ربك ومرتهَن بعملك ، فخذ مما في يديك لما بين يديك ؛ عند الموت يأتيك الخبر ، إنك مسؤول ولا تجد جواباً ، إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همه)..

وعلى هذا السنن من الدعوة إلى إحياء القلوب بذكر الله واليوم الآخر وإعطاء التبصُّر بحقيقة أن يوم القيامة لا ريب فيه ، ما يستحق من العمل والمخافة من الله.. على هذا السنن كان من كلامه كما أخرج أبو نعيم في الحلية من رواية أحمد بن حنبل قال : حدثنا محمد بن سابق قال : حدثنا مالك من مِغْوَل عن حميد قال : (بينما الحسن في يوم من رجب في المسجد ـ وهو يمصُّ ماءً ويمجُّه ـ تنفّس تنفّساً شديداً ، ثم بكى حتى ارتعدت منكباه ، ثم قال : لو أن بالقلوب حياةً !! لو أن بالقلوب صلاحاً !! لأبكيتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة ، إن ليلة تمخّض عن صبيحة يوم القيامة لهي الليلة . ما سمع الخلائق بيوم قط ، أكثر فيه من عورة بادية ، ولا عين باكية من يوم القيامة).

وادٍ تتعوذ منه جهنم

لا يرتاب امرؤ ذاق حلاوة الإيمان ،واستيقنت نفسه ما جاء به الخبر الصادق عن الغيب ،أن الطريقَ القاصدة إلى العقبى الكريمة ـ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ـ التِزَامُ الهدي المحمدي ؛ إيماناً وعملاً ودقة في معايير ما هو من أمور الدنيا وما هو من أمور الآخرة ، ثم سلوكُ السبيل التي تباعد بين الإنسان وبين الوقوع في أحابيل الهوى والشيطان ؛ فلا يغرُّه بالله الغرور ، ولا ينسى في غمرة الحياة الدنيا وزينتها ، أنها دار فناء لا دار بقاء ، وأن السعيد من جعل النجاة في الآخرة نصب عينيه ، وأن السفر بين العاجلة والآجلة ،لا بد له من الزاد وخير الزاد التقوى.

ذلك طريق أهل الفلاح ؛ من سلكه كان الترغيب في الجنة ونعيمها الذي لا ينفد، والترهيب من النار وما فيها من عذاب السعير ، وأنها ساءت مستقراً ومقاماً، سلَّماً إلى المسارعة في الخيرات والقربات ، وإسهارِ الليل وإظماءِ النهار في عبادة الله عز وجل؛ طمعاً في الفوز بالنعيم المقيم والنجاة من النار .. النار التي حرها شديد، وقعرها بعيد ، ومقامعها من حديد . ولا تسل عن طعام أهلها وشرابهم، وهي تلفح وجوههم، وكلما نضجت جلودهم بُدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب. قال الترمذي في جامعه الصحيح (السنن) حدثنا عباس الدوري البغدادي قال: حدثنا يحيى بنُ أبي بُكيْر قال : حدثنا شريك عن عاصم هو ابن بهدلة عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أوقد على النار ألفَ سنة حتى احمرّت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضّت ، ثم أوقد عليها ألفَ سنة حتى اسودّت فهي سوداء مظلمة » قال أبو عيسى: حديث أبي هريرة في هذا موقوفٌ أصح . ولا أعلم أحداً رفعه غيرَ يحيى بن أبي بُكير عن شريك ورواه ابن ماجة والبيهقي في كتابه (شعب الإيمان) مختصراً . اللهم سلّم سلّم يا كريم،

اللهم مغفرتَك ورحمتـك يا أرحم الراحمين . اللهم إنا نسألك الجنـة وما قرب إليها من قـول أو عمل ونعوذ بك مـن النار وما قرّب إليهـا من قول أو عمل يـا سميع الدعاء يارب العالمين . وروى البزار عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ «أنه ذكر ناركم هـذه فقال : إنها لجزء من سبعين جزءاً مـن نار جهنم ، وما وصلـت إليكم حتـى ـ أحسبـه قال ـ نُضحت مـرتين بـا لماء لتضيء لكم ، ونـار جهنم سـوداء مظلمة». وأخرجه الحاكـم وصححه ورواه ابن ماجة عن أنـس أيضاً ولفظه : « إن نـاركم هـذه جزء مـن سبعين جزءاً مـن نار جهنـم . ولولا أنها أطفئـت مرتين مـا انتفعتـم بها ، وإنها لتدعـو الله عز وجـل أن لا يعيـدها فيهـا » قال البـوصيري في «الزوائد »: أخرجه الحاكم كما رواه المصنف ـ يعني ابن ماجة ـ وقال: صحيح على شرط الشيخين وبعضه في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

ومهما هوّن من شـأن جهنم الغافلون ، أو أصمّوا آذانهم عـن سماع أخبارها ؛ فالأمـر أشد والهول أعظـم نسأل الله العافيـة ، ويا ويل كـل ظالم لنفسـه يجعل الله الواحد القهّار نداً ويشرك به ، وياسوء عقبـى كل جبار عنيد وكل شيطان مريد .. ويل لهم جميعـاً ،ولمن يتعلق بأذيـالهم، من لفـح لظى وما تفعلـه بهم نار السعير ! أورد الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى في سورة المرسلات ﴿**هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فـإن كان لكم كيد فكيدون . ويلٌ يـومئذ للمكذبين**﴾ «ما روى ابن أبي حاتم بسنده عن حسـان بن المخارق أو ابن أبي المخارق عن أبي عبدالله الجَدَلي أنه قال : «أتيت بيت المقدس فإذا عبادة بن الصامت وعبدالله بن عمرو وكعب الأحبار يتحدثون في بيت المقدس ، فقال عبادة : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخـرين بصعيـد واحـد ينفذهـم البصر ، ويُسمعهـم الداعـي ويقول الله: ﴿**هذا يـوم الفصل جمعناكم والأولين . فـإن كان لكم كيـدٌ فكيدون**﴾ اليوم لا ينجو منـي جبار عنيد ، ولا شيطان مريـد . فقال عبدالله بن عمـرو : فإنا نجد في الكتـاب أنه يخرج عُنـق من النـار ، فتنطلق حتـى إذا كانـت بين ظهراني الناس نادت : أيها الناس إني بعثت إلى ثلاثة ؛ أنـا أعرَف بهم من الأب بولده ومن

الأخ بأخيه ، لا يُغيبهم عني وَزَر ، ولا تُخفيهم عني خافية : الذي جعل مع الله إلهاً آخر ، وكلٍّ جبار عنيد ، وكلِّ شيطان مريد . فتنطوي عليهم ، فتقذف بهم في النار قبل الحساب بأربعين سنة» وأورده السيوطي في « الدر المنثور في التفسير بالمأثور». العُنق من النار : الطائفة . والوَزَرُ : بفتح الواو والزاي : الملجأ .

والحق أن الأخبار الصادقة قد تظاهرت عن الهول الهائل الذي يطبع جهنم ، وعن أن الواناً من العذاب فيها تكون لفئات من أهل الضلالة بأعيانهم ؛ روى ابن ماجة بسنده عن ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «تعوّذوا بالله من جُبّ الحُزْن . قالوا : يا رسول الله وما جُبُّ الحُزْن ؟ قال : وادٍ في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة . قيل : يارسول الله من يدخله ؟ قال : أعدّ للقرّاء المرائين بأعمالهم ، وإن من أبغض القراء إلى الله الذين يزورون الأمراء الجَوَرَة ». ورواه الترمذي وقال : حديث غريب . قال الحافظ المنذري : ورواه الطبراني من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « إن في جهنم لوادياً تستعيذ جهنم من ذلك الوادي كلّ يوم أربعمائة مرة ، أعِدَّ للمرائين من أمة محمد ﷺ » . جب الحُزن أو الحزَن : الجب : البئر التي لم تطْوَ ، والحَزَن بفتحتين أو ضم وسكون : ضد الفرح . قال الطِيبي : وهو علم . والإضافة كما في « دار السلام » أي دار فيها السلام من الآفات.

وإذا كان هذا للمرائين الذين لا يريدون وجه الله أو يسخطون الله بمرضاة الناس ، حيث تسقط الأقنعة ، وينكشف الزيف ، ويظهر من كان عمله خالصاً لله عز وجل ، ومن كان مرائياً ؛ يقول أو يفعل اتباعاً للهوى ، وتحقيقاً لغرض من أغراض الدنيا ، أو طلباً لمرضاة من يقدم رضاهم ـ والعياذ بالله ـ على رضا من بيده ملكوت السماوات والأرض ، وهو الرازق ذو القوة المتين ..

إذا كان ذلك الوادي من وديان جهنم ـ وقانا الله شرها وأعاذنا والمسلمين من لفحها وزمهريرها ـ لهؤلاء ، فماذا عن الذين لا يفتؤون يسيئون إلى المؤمنين ولا

يكفون عن أذاهم ما استطاعوا إلى ذلـك سبيلاً ؟!! روى ابن أبي الدينا بسنده عن يزيـد بن شجرة الـرهاوي قال : « إن لجهنم لجِبـاباً في كل جـب ساحل كسـاحل البحر فيه هوامٌ وحيّـاتٌ كالبخاتيّ وعقارب كالبغال الدُّلُلِ ، فـإذا سأل أهل النار التخفيف ، قيل : اخرجوا إلى الساحل ، فتأخذهم تلك الهوام بشفاههم وجنوبهم وما شـاء الله من ذلك فتكشِطهـا ، فيرجعون فيبادرون إلى مُعْظَـم النيران ، ويسلّط عليهم الجَرَب ، حتى إن أحدهـم ليحُك جلدَه حتى يبدوَ العظم فيقـال : يا فلان هل يؤذيك هـذا ؟ فيقول : نعم ، فيقال له : ذلك بما كنـت تؤذي المؤمنين » ترجم الحافظ ابـن حجر ليزيـد بن شجرة وقال : مختلـف في صحبته . وقال الـذهبي في «سير أعلام النبـلاء » أبو شجـرة الرهاوي : فقـديم يقـال : له صحبـة . كان أمير الجيش في غزو الروم . أرسل عن النبي ﷺ وروى عن أبي عبيدة واستعمله معاوية رضي الله عنه . قال شبـاب : استُشهد سنة ثمان وخمسين . وقال ابـن سعد : وقتل هو وأصحابه في البحر سنة ثمان . قال منصور عن مجاهد : كان يزيد بن شجرة مما يذكرنا نبكي . وكان يُصدّق بكاءه بفعله رضي الله عنه .

اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل ، وجنبنا مزالق الرياء والهلكة، اللهم واجعلنا بمنك وكرمك هداة مهتدين، واسلك بنا طريق الجنة التي وعدت عبادك الـذين لا خـوفٌ عليهم ولاهـم يحزنون ، وصلى الله وسلـم وبارك على نبـي الهدى والرحمة فيما رغّب ورهّب ، وحذّر وأنذر ، وجزاه الله عن الأمة خير ما يجزى نبيٌ عن أمته في الآخرين .

إذا ذكر أهل التوفيق والفلاح، فحيَّهلا بأولئك الذين خافوا ربهم أشد الخوف، ورجوه أعظم الرجاء ، فلا الخوف جعلهم من أهل اليأس والقنوط ، ولا الرجاء حملهم على التقاعس عن عمل الصالحات ونسيان ما يكون من أهوال يوم الحساب. وهذا دليل أنهم انتفعوا بما عرفوا عن مسؤولية العبد يوم القيامة ، وأحسنوا التذكّر لمشاهد ذلك اليوم العصيب، وتزودوا له بالإكثار من الطاعات، وفعل القربات قدر المستطاع ؛ والملاحظ أن الكتاب العزيز قد أثنى الثناء الكريم على المؤمنين من عباد الله، بأنهم يجمعون بين شدة الخوف من الله ، والإحسان في العمل استعداداً ليوم المعاد ، ذلك قول الله تبارك وتعالى في سورة المؤمنون : **﴿إنّ الذين هُمْ من خَشْية رَبِّهم مُشفِقُون . والذين هُمْ بآياتِ رَبِّهمْ يُؤْمنُون . والذين هُمْ بربهمْ لا يُشْركون . والذينَ يُؤْتُون ما آتوْا وَقُلوبُهُمْ وَجِلَةٌ أنهُمْ إلى ربهم راجعون . أولئكَ يُسَارعُون في الخيْراتِ وَهُمْ لها سابِقون ﴾**.

ولما كان هؤلاء البررة الموفقون قد قدروا اليوم الآخر حق قدره ، وأَوْلَوْا ما تكون عليه العاقبة فيه ، لكلٍ من أهل الهداية وأهل الضلالة ، ما تستحق من العناية والاهتمام .. كان تطلعهم إلى الخاتمة تطلعاً شديداً ، نابعاً من الرغبة الصادقة في النجاة يوم الدين ؛ فهم يرجون مولاهم أن يكرمهم بحسن الخاتمة ، ويعوذون به من سوئها ؛ لأن حسنها عنوان ما يكون بعد الموت ـ برحمة الله ـ من الزحزحة عن نار الجحيم والفوز بما يكون للسعداء من جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً .

وفي هذا الإطار من الإحسان الإيماني ، كان السلف الصالح يخافون أشد الخوف من سوء الخاتمة . قال سهل التستري : «خوف الصّدّيقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال : **﴿والذين**

يؤتون ما آتـوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾» ولا شك أن حسن الخاتمة يتمثل في أن يختـم للمرء بكلمـة التوحيـد (لا إله إلا الله محمـد رسول الله) هـذه الكلمة الطيبـة التي آمـن بها في حياتـه ، وعمل بمقتضـاها مخلصـاً الديـن لله عز وجل. عقـد الإمام البخـاري في كتاب الجنـائز من الجامـع الصحيح بـاباً عنـوانه «بابٌ في الجنائز ومن كـان آخر كلامه لا إله إلا الله . وقيل لوهـب بن منبه : أليس مفتاح الجنة لا إلـه إلا الله ؟ قال : بلى ولكن ليس مفتاح إلا له أسنـان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتـح لك وإلا لم يفتح لك». وقول البخاري في تـرجمة هذا الباب وهو أول باب في كتاب الجنـائز : «ومن كان آخر كلامه لا إلـه إلا الله» فيه إشارة ـ كما يقـول بعض العلماء ـ إلى مـا رواه أبو داود والحاكـم من طـريـق كثير بن مـرة الحضرمي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » . وذهـب الزين بن المنير رحمه الله إلى أن البخاري قد حـذف جواب (من) مـن الترجمة مراعاة لتـأويل وهب بـن منبه ، فأبقـاه إما ليوافقه ، أو ليبقى الخبر على ظاهره .

ولعل من النافع المفيد حقاً ، أن نشير إلى عظيم ما يتميّز به العالم العامل من يقظة على طريق الآخرة ، وما يكرمه الله بـه من حسن الخاتمة ، لما أنه ـ بتوفيق الله ـ كان على المورد العـذب من العمل بسنـة النبي ﷺ وخـدمتها والذود عنهـا . فقد روى ابن أبي حاتم في ترجمة الحافظ أبي زرعـة أنه لما احتُضر أرادوا تلقينه ، فتذكروا حديث معاذ « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » فحدثهم به أبو زرعة بإسناده ، وخـرجت روحه في آخر قـول «لا إله إلا الله ». وقد أخرج مسلـم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» وأخرجه الترمذي والنسائي من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بهذا اللفظ ، وفي رواية للنسائي عـن عائشة رضي الله عنها قالت : قـال رسول الله ﷺ : « لقنوا هلكـاكم لا إلـه إلا الله » قـال الترمذي بعـد إخـراج رواية « لقنـوا مـوتاكـم... » الحديث . وفي الباب عن أبي هريرة وأم سلمة وعـائشة وجابر وسعدى المرّيّة وهي

امرأة طلحة بن عبيد الله . قال أبو عيسى : حديث أبي سعيد : حديث حسن غريب صحيح . وقد نقل الحافظ ابن حجر عن الزين بن المنيِّر (أن هذا الخبر - يعني حديث معاذ - يتناول بلفظه من قالها فبغته الموت ، أو طالت حياته لكن لم يتكلم بشيء غيرها . ويخرج بمفهومه من تكلَّم ، لكن استصحب حكمها من غير تجديد نطق بها . فإن عمل أعمالاً سيئة ،كان في المشيئة ، وإن عمل أعمالاً صالحة، فقضيته سعة رحمة الله ، أن لا فرق بين الإسلام النطقي والحكمي المستصحب والله أعلم).

ومن سعة رحمة الله تعالى بعبده المؤمن ، ما نرى من بيان النبي ﷺ للأدب الذي ينبغي أن يكون عليه عواد المريض ، وهو مقبل على الله في سياقة الموت ، والمردّ فيما بعد ؛ إما إلى جنة عرضها السماوات والأرض فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، أو إلى نار حامية أعاذنا الله منها ليس لأهلها طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع . روى الترمذي بسنده عن أم سلمة قالت : قال لنا رسول الله ﷺ : « إذا حضرتم المريض - أو الميت - فقولوا خيراً فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون » قالت : فلما مات أبو سلمة ، أتيت النبي ﷺ فقلت : يارسول الله إن أبا سلمة مات . قال : فقولي : اللهم اغفر لي وله وأعقبني منه عقبى حسنة » . قالت: فقلت ؛ فأعقبني الله منه من هو خير منه ؛ رسول الله ﷺ . قال أبو عيسى : حديث أم سلمة حديث حسن صحيح، وقد كان يستحب أن يلقن المريض عند الموت قول لا إله إلا الله .

والحديث أخرجه النسائي بلفظ « فلما مات أبو سلمة قلت : يا رسول الله كيف أقول : قال : «قولي : اللهم اغفر لنا وله وأعقبني عقبى حسنة» فأعقبني الله عز وجل منه محمداً ﷺ . وفي شأن تلقين المريض عند الموت قول لا إله إلا الله حكى الترمذي عن بعض أهل العلم قوله : «إذا قال ذلك مرة ، فما لم يتكلم بعد ذلك ، فلا ينبغي أن يلقَّنَ ولا يُكثر عليه في هذا » قال : وروي عن عبدالله بن المبارك أنه لما حضرته الوفاة ، جعل رجل يلقنه لا إله إلا الله وأكثر عليه ، فقال له

عبدالله : إذا قلتها مرةً فأنا على ذلك ما لم أتكلم بكلام . وإنما معنى قول عبدالله: أنه أراد ما روي عن النبي ﷺ : « من كان آخر قوله لا إله إلا الله دخل الجنة » وقد أورد الحافظ ابن حجر ما حكى الترمذي عن ابن المبارك ثم قال : (وهذا يدل على أنه يرى التفرقة في هذا المقام) .

ومهما يكن أمر : فالقضية التي حولها دندنة الصالحين وإليها تطلع المؤمنين خوفاً من الحور بعد الكور ، أن تكون الخاتمة بحسنها وضيائها عنوان النجاة من عذاب الله يوم الدين ، والفوز برحمة الله ورضوانه في دار المتقين . «لما حضرت أبا هريرة رضي الله عنه الوفاة بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : يبكيني بُعد السفر، وقلة الزاد ، وضعف اليقين ، والعقبة الكؤود التي المهبط منها إما إلى الجنة وإما إلى النار » .

ومن هذا المنطلق ، يذكر في ترجمة عبدالملك بن مروان أنه لما حضرته الوفاة جعل يقول : والله لوددت أني عبد لرجل من تهامة أرعى غنيمات في جبالها ولم ألِ ـ يعني لم يتولَّ شيئاً من أمر المسلمين ـ وروي عن المزني ـ رحمه الله ـ قال : دخلت على الشافعي ـ أجزل الله مثوبته ـ في مرضه الذي مات فيه ، فقلت: كيف أصبحت يا أبا عبدالله ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلاً ، ولإخواني مفارقاً، ولسوء فعلي ملاقياً ، ولكأس المنية شارباً ، وعلى الله عز وجل وارداً ، فوالله ما أدري أروحي تسير إلى الجنة فأهنيها ، أم إلى النار فأعزيها . ثم بكى وأنشد :

فلما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي نحو عفوك سلما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو مِنَّةً وتكرما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما

رحم الله الإمام الشافعي وأجزل مثوبته في الآخرين ورزقنا حسن الانتفاع بسيرة أولئك الربانيين الذين كانوا على السنة ؛ رجاءً لرحمة الله وخوفاً من عذابه ، وذلك هو الفوز المبين .

الذين يكبكبون في جهنم

الحقائق التي تبرزها مشاهد القيامة ، لها في قلب المؤمن موقع يتفق مع القدر الذي أوتيَه من التصديق الجازم واليقين ، فما كان من بشارة :فرح به واستبشر ، وما كان مـن نذارة: حـزن منه وعـاد على نفسه بمزيـد من التـزكية ، ودفـع إلى الإقبال الصادق على الله عز وجل .. والمؤمن لا ينكر أن الجنة تزلف يوم الفصل للمتقين، وأن الجحيـم تُبَرَّزُ للغاويـن، كما قال ربنـا جـل شأنـه : **﴿وأُزْلفت الجنّةُ للمُتقين وبُـرِّزت الجحيمُ للغـاويـن . وقيـل لهم أيْن مـا كُنْتـم تعْبـدون . من دون الله هـلْ ينصرونكُم أو ينتصرون ، فكُبْكُبوا فيها هم والغاوون . وجنودُ إبْليس أجْمعون ﴾** .

هكذا تظهر جهنم لأهلها قبل أن يـدخلوها ، حتى يستشعروا الروع والحزن ، كما تُقَرَّبُ الجنة وتُـدنى ، كي يستشعر أهلها الفرح بفضـل الله ؛ لعلمهم أنهم من أهل النعيم المقيم . ولا تسل عن أولئـك الضالين المضلين وأهل الغواية الظالمين كيف يقلبون على رؤوسهم ، ويلقى بعضهـم على بعض في جهنم ، بعد أن يجمعوا ويطرحوا فيها **﴿ فكبكوا فيها هم والغـاوون . وجنود إبليس أجمعون ﴾**. أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الناس يمرون يوم القيامة على الصراط ، والصراط دَحْضٌ مَزَلَّـة ، يتكفأ بأهله والنار تأخذ منهم ، وإن جهنم لتنُطف عليهم مثـل الثلج إذا وقع ، لها زفير وشهيق ، فبينما هم كـذلك إذ جـاءهم نـداء من الـرحمن : عبادي مـن كنتم تعبـدون في دار الدنيـا ؟ فيقولون : ربَّنـا تعلم أنا إياك كنـا نعبد ؛ فيجيبهم بصوت لم تسمـع الخلائق مثله قـط: عبادي حـق عليَّ أن لا أكلكم اليـوم إلى أحد غيري ، فقـد عفوت عنكـم، ورضيت عنكـم ، فتقوم الملائكـة عندئذ بالشفـاعة ، فينحَّـون من ذلـك المكان ، فيقول الذين تحتهـم في النار : فما لنا من شافعين ولا صديق حميـم ، فلو أن لنا كرَّة فنكون مـن المؤمنين ، قال الله : **﴿فكبكبوا فيها هم والغاوون ﴾**» قال ابن عباس

رضي الله عنهما : ادُّخِروا فيها إلى آخر الدهر . دحض : زلق لاتكاد تستقر قدم من يمشي عليه .

ويا لشدة بؤس من يحذَّرون فلا يحذرون ، ويذكَّرون فلا يذكرون . إن الذين يتمرغون في أوحال الصدِّ عن سبيل الله والظلم في الدنيا ، وتتلطخ أيديهم بدماء المسلمين ، لهم الحظ الأوفى من تلكم المشاهد الجهنمية التي تتقطّع من هولها وشدة أخذها الأكباد ؛ فتراهم وهم يطرحون في السعير ، ويكبكبون فيها، يصطرخون ولا من مجيب ، بعد أن يطلب منهم أن يعيدوا الدماء التي سفكوها في أجسادها .. ويتمنون ، لو كان الواحد منهم في الدنيا تراباً ، ولم يقع فيما وقع فيه .. ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين الجاحدين الظالمين . أخرج ابن مردويه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : « إن أمتي ستحشر يوم القيامة ، فبينما هم وقوف إذ جاءهم منادٍ من الله : ليعتزل سفاكو الدماء بغير حقها ، فيُميَّزون على حدة ، فيسيل عندهم سيل من دم ، ثم يقول لهم الداعي : أعيدوا هذه الدماء في أجسادها ، فيقولون : كيف نعيدها في أجسادها ، فيقول : احشروهم إلى النار ، فبينما هم يجرُّون إلى النار ، إذ نادى مناد فقال : إن القوم قد كانوا يهللون ، فيوقفون منها مكاناً يجدون وهجها ، حتى يُفرغ من حساب أمة محمد ﷺ ، ثم يكبكبون في النار هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون » هذه حال من غلبت عليهم شقوتهم ، ولم يرفعوا لأخبار القيامة وأهوالها رأساً ، وظلوا في الغواية والظلم لدين الله وأهله سادرين .

أما من عقلوا عن الله ورسوله ما أراد : وأخذوا أنفسهم بما توجبه طريق أهل الفلاح من الاستقامة على دين الله والاستعداد للموت ولما بعد الموت ، والاعتبار بعاقبة كل من أهل السعادة ، وأهل الشقاوة ، ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾.. أما هؤلاء : فيحظون بالنجاة من الكبكبة في النار ، ويفوزون بما يفوز به المتقون من جنات ونهر ، ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾. أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي أمامة أن عائشة رضي عنها قالت:

«يا رسول الله ، يكون يومٌ لا يغني عنـا فيه من الله شيءٌ ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم في ثلاثة مواطـن ؛ عند الميزان ، وعند النور والظلمة ، وعنـد الصراط ، من شاء الله سلّمه وأجازه ، ومن شاء كبكبه في النار ، قالت : يا رسول الله وما الصراط ؟ قال : طريق بين الجنة والنار يجوز الناس عليه ، مثل حد الموسى ، والملائكة صافون يميناً وشمالاً يخطفونهم بـالكلاليـب مثل شـوك السعدان وهـم يقولـون : سلّم سلّـم ، وأفئدتهم هواء ؛ فمن شاء الله سلّمه ، ومن شاء كبكبه في النار ».

و ـ كما أسلفنا ـ ما من ريب في أن العـاقل يستمطر رحمة الله وكريم فضله في دار العمل ، باتبـاع ما أمر به واجتناب مـا نهى عنه ، وسلوك الطريـق الأقوم التي أوضح معا لمهـا خير ما يكون الإيضاح سيـد العالمين وخاتم المرسلين محمـد عليه الصلاة والسـلام ، والموفق التوفيـق كلَّه مـن جعل الآخرة همَّه ، ودار مـع الكتاب العزيز في رحى الحرب الدائرة بينه وبين الباطل وأهله حيث دار ، لافرق بين رغب ورهب، ولا بين منشط ومكره ، وكان مع السنة المطهرة لا يريم عنها ولا يحيد . إنه إن حمل نفسه على هـذا النهج المبـارك ، حسنت ـ بفضـل الله ـ عقبـاه يوم الـدين وأتته الدنيا وهـي راغمة . أخرج الترمذي بسنده عن أنس بـن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانـت الآخرة همّه ، جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شملـه ، وأتته الدنيا وهـي راغمة . ومن كـانت الدنيا همّه ، جعـل الله فقره بين عينيه ، وفرّق عليه شمله . ولم يأته من الدنيا إلا ما قدّر له » .

صلى الله على رحمة العالمين سيدنـا رسول الله.. ما أعظم هـذا البيان وأنفعه ؛ فلكم يكون الذي جعل الآخرة همّه على نور من ربه يُعقب الخير يوم القيامة، ولكم يكون من جعل الدنيا همّه على ظلام يجعله يتخبط ، فتسوء من وراء ذلك العقبى ، يوم لا يغني مال ولا بنون . وأخرج الحديث ابن مـاجة من روا ية أبان بن عثمان بن عفان قال : خرج زيد بن ثابت من عند مروان بنصف النهار . قلت : ما بعث إليه هذه السـاعة إلا لشيء سأل عنه . فسـألته فقال : سألنـا عن أشياء سمعناهـا من رسول الله ﷺ سمعت رسـول الله ﷺ يقول : « من كانت الدنيـا همّه فرّق الله عليه

أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له . ومن كانت الآخرة نيّته ، جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة». وأخرجه أحمد أيضاً من رواية أبان من حديث طويل بلفظ « ومن كانت نيتُه الدنيا فرّق الله عليه ضيعته » .

ومن هنا وجّه النبي ﷺ إلى جعل الهموم هماً واحـداً ، هو همُّ المعاد وما يكون عليه الأمر في دار البقاء ، وإلا ساءت الحال في الدنيا والآخرة والعياذ بالله . وذلكم هو التوحيد الخالص ، الذي يسعد صاحبه بعدم نسيان الله واليوم الآخر في كل ما يأخـذ وكل مايـدع . والمؤمن مطلوب منـه أن يعمُر الـدنيا ولكن وفـق منهج الله ، وذكرٍ لعرصات القيامة ويوم الحسـاب ، وأن الدنيا دار عمل وكسب، والآخرة دار مسؤوليـة وجزاء ﴿ مـن عمـل صـالحاً فلنفسـه ومن أسـاء فعليهـا ثـم إلى ربكـم ترجعون﴾.

وصلى الله وسلم وبـارك على إمام المتقين وخاتـم النبيين وعلى آله وصحـابته ومن أخذ بسنته وعمل بهديه إلى يوم الدين ..

أهل الآخرة.. وأخذ الحذر في الدنيا

ما أكثر ما يسّر ربنا تبارك وتعالى لعباده من صنوف الخير ، وما أعظم ما فتح لهم من مغاليق الهداية، التي ترتفع بهم إلى سدةِ النجاة من عذاب السعير يوم القيامة ، والإسعادِ بدار المقامة يوم يحشر الناس لرب العالمين .. وتبدو آثار ذلك واضحة للعيان ، في ذلك اليوم الذي يوفي الله فيه العباد دينهم الحق، ويعلمون أنه ـ جل شأنه ـ هو الحق المبين . فالذين تذكّروا وانتفعوا بالهدي الذي دعاهم رسول الله ﷺ إليه، نجوا من عقاب الله وكانوا من الفائزين ، والذين اتخذوا القرآن ظهرياً، وأعرضوا عن هديه عليه الصلاة والسلام ، أصابتهم قارعة النقمة، وحلّ بهم العذاب المهين ؛ حتى إنك لترى يوم القيامة مئات من المؤمنين، يتمنون أن لو لم تعجل لهم استجابة لدعاء دعوه في الدنيا؛ لما يجدون من إكرام الله لهم في ادخار دعواتهم لتكون عطاءً في جنة الخلد .

وعلى العكس من ذلك: يتمنى أهل الغفلة والإعراض عن الله ، لو أن بينهم وبين ما أسلفوا من مساءات في الدنيا أمداً بعيداً ، لما يرون من تحقق الوعيد الذي كانوا به كافرين ﴿ **يوم تجدُ كلُ نفسٍ ما عملتْ منْ خيْرٍ مُحضراً وما عمِلتْ من سُوءٍ تودُّ لوْ أنَّ بيْنَها وبَيْنَهُ أمداً بعيداً ، ويُحَذِّرُكُم الله نَفْسهُ والله رؤوفٌ بالعباد** ﴾.

أخرج الحاكم في المستدرك بسنده عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه فيقول : عبدي إني أمرتك أن تدعوني ووعدتك أن أستجيب لك ، فهل كنت تدعوني ؟ فيقول : نعم يارب ، فيقول : أما إنك لم تدعني بدعوة إلا استجبتُ لك، أليس دعوتني يوم كذا وكذا لِغَمّ نزل بك أن أفرّج عنك ففرَّجت عنك، فيقول : نعم يارب ، فيقول : إني عجّلتها لك في الدنيا . ودعوتني يوم كذا وكذا لِغَمٍ نزل بك أن أفرّج عنك فلم تر فرجاً ؟ قال : نعم يارب ، فيقول : إني ادخرت

لـك بها في الجنة كـذا وكذا . ودعـوتني في حـاجة أقضيهـا لك في يـوم كذا وكـذا فقضيتها ؟ فيقول : نعم يارب ، فيقول : إني عجّلتها لـك في الدنيا ، ودعوتني يوم كذا وكذا في حاجـة أقضيها لك ، فلم تر قضاءها ؟ فيقـول : نعم يارب ، فيقول : إني ادّخرت لك بها في الجنة كذا وكذا . قـال رسول الله ﷺ : فلا يَدَعُ الله دعوة دعا بها عبدُه المؤمن إلا بيَّن له إما أن يكون عجّل لـه في الدنيا ، و إما أن يكون ادّخر له في الآخرة . قال : فيقـول المؤمن في ذلك المقام : يـاليته لم يكن عُجِّل لـه شيء من دعائه »

هكذا تشرق الرحمة الـربانية بضيائهـا على المؤمن المخلص في عبوديتـه لله عز وجل ، فيسعد في الدنيا ، ويجد من الكرم الإلهي يوم الحساب في جنات عدن، ما لم يخطر على قلبه في يوم من الأيام ، و إذا كان الأمر كذلك : والعبد بأمسِّ الحاجة في ساعـات الشدة مـن ذلك اليوم ، إلى نفحـة من نفحـات الله تنجيه مـن طعام ذي غُصّةٍ وعذاب أليم ، وتنظِمـه في عِقد من رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئـك الذين تُزلف لهم الجنة غير بعيد . إذا كان الأمر كذلك : فحريٌّ با لمؤمن أن يأخذ حِذره في دار الفناء حتى يلقـى الله يوم يلقاه وهو طاهـر الذيل ، نقي الثـوب ، لا تثقله عن طريق النجـاة أوزاره ، ولا تقعده عن المرتقى الكـريم خطاياه ، يضيء طـريقَه يوم يـدلهمُّ الكرب إخـلاصٌ في الـدين ، وعمـل بشريعـة سيد المرسلين ، وصـدق في الوجهة رجاءً وخـوفاً ؛ فهو يرجو رحمة الله ويخشى عذابه ،والله جـل شأنه لا يُضيع مثقال ذرة من عمل .

وذلكم ما ازدان به مسلك أهل التوفيـق ، أولئك الذين دأبوا على الاجتهاد في طاعة الله ، والعمل على حسـن التأسي برسول الله ﷺ ذكراً للآخـرة ، وعدمَ نسيان لأهوال يوم الفصـل موعِد الخلق أجمعين ؛ولذلـك ترى الواحد منهـم ـ على تعدد مذاهبهم في العمل والزهادة ـ حريصاً الحرص كلّه على أن تأتيه منيته وهو من أهل التذكـر ، إيماناً وعمـلاً ، بعيداً عـن الغفلة وطـريق الغـافلين . روى أبو نعيـم في « الحلية » والذهبي في « السير » وغيرهما أن إبراهيم بن بشار الخراسانيَّ خادمَ القدوة

الإمام العارف سيد الزهاد أبي إسحاق العجلي إبراهيم بن أدهم نزيل الشام المتوفي سنة ١٦٢ هـ قال : « أمسينا مع إبراهيم بن أدهم ذات ليلة ، وليس معنا شيء نفطر عليه ، ولا بنا حيلة ، فرآني مغتماً حزيناً فقال : يا إبراهيم بن بشار ، ماذا أنعم الله على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة في الدنيا والآخرة ، لا يسألهم الله يوم القيامة عن زكاة ، ولا عن حج ولا عن صدقة ،ولا عن صلة رحم ، ولا عن مواساة ؛ وإنما يسأل ويحاسب عن هذا هؤلاء المساكين .. أغنياء في الدنيا فقراء في الآخرة ، أعزة في الدنيا ، أذلة يوم القيامة ، لا تغتم ولا تحزن ، فرزق الله مضمون سيأتيك ، نحن والله الملوك الأغنياء ، نحن الذين قد تعجلنا الراحة في الدنيا ، لا نبالي على أي حال أصبحنا وأمسينا ، إذا أطعنا الله عز وجل ، ثم قام إلى صلاته وقمت إلى صلاتي ، فما لبثنا إلا ساعة ، إذا نحن برجل قد جاء بثمانية أرغفة وتمر كثير ، فوضعه بين أيدينا وقال : كلوا رحمكم الله . قال : فسلّم وقال : كل يا مغموم ؛ فدخل سائل فقال : أطعموني شيئاً فأعطاه إبراهيم ثلاثة أرغفة مع تمر، وأعطاني ثلاثة ، وأكل رغيفين ، وقال : المواساة من أخلاق المؤمنين ».

ويحسن التنبيه على أن إبراهيم رحمه الله كان حريصاً على أن يأكل من كسب يده ، ولا يجد غضاضة ـ على فضله وزهادته ـ أن يأجر نفسه لحراسة بستان ـ أو حصد زرع يوم حصاده ـ وما إلى ذلك . وقال ابن بشار ـ كما في « سير أعلام النبلاء» للذهبي ـ «وكنت معه ـ أي مع إبراهيم بن أدهم ـ فأتينا على قبر مسنّم ، فترحم عليه وقال : هذا قبر حميد بن جابر أمير هذه المدن كلها . كان غارقاً في بحار الدنيا ثم أخرجه الله منها . بلغني أنه سُرّ ذات يوم بشيء ونام ، فرأى رجلاً بيده كتاب ، ففتحه ، فإذا هو كتاب بالذهب: لا تُؤثِرنّ فانياً على باق ولا تغتَرّنّ بملكك ، فإن ما أنت فيه جسيم لولا أنه عديم ، وهو مُلك لولا أنه هُلك ، وفرح وسرور لولا أنه غرور ، وهو يوم لو كان يوثق له بِغد ، فسارع إلى أمر الله ، فإن الله تعالى قال: ﴿وسَارعُوا إلى مغْفِرةٍ من ربّكم وجنةٍ عرضُها السماوات والأرض أُعدت للمتقين﴾ آل عمران (١٣٣) . فانتبه فزعاً وقال : هذا تنبيه من الله وموعظة

فخرج مما هو فيه وقصد هذا الجبل فعبد الله حتى مات » .

وأنت واجد أن ورع أهل التقوى ، خوفاً من المساءلة في يوم لا بيعٌ فيه ولا خُلَّة ، قبس من هدي رسول الله ﷺ الذي وجه الأمة إلى ما فيه النجاةُ يوم الحسرة، والفوزُ بمرضاة الله عز وجل ، ويتأكد وجوب الحيطة والحذر مما يوقع في الهلكة يوم الدين إذا كنا على ذكر من أن الأمة الإسلامية ،مطلوب منها ـ مع إباحة الطيبات ـ أن تعمُرالأرض في طاعة الله ،وتُعدَّ ما تستطيع من قوة من أجل الجهاد في سبيل الله، وأن تحكم ضوابط الإسلام في التصرفات جميعها ، فساحات العمل متسعة الأرجاء على صعيد الاقتصاد وكسب المال و إنفاقه ، والسياسة والاجتماع ، والبناء الحضاري ـ على وجه العموم ـ والمسلم في كدحه إلى ربه بصدق و إخلاص وخوضه غمار الحياة تحقيقاً لرسالته في الأرض ، لا يشغله عن الآخرة شاغل ، ولا يصرفه عن الوقوف عند حدود الله وعدم اعتدائها صارف .. ولو كانت الأخرى، فهي طريق الهلكة يوم الدين . قال الإمام الترمذي : حدثنا هنّاد وأبو زرعة وغير واحد قالوا : أخبرنا قبيصة عن إسرائيل عن هلال بن مقلاص الصيرفي عن أبي بشر عن وائل عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من أكل طيباً وعمل في سُنة ، وأمن الناس بوائقه دخل الجنة ، فقال رجل: يا رسول الله إن هذا اليوم في الناس لكثير قال : وسيكون في قرون بعدي » . قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث إسرائيل وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٥٤٦) : رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح غريب ، والحاكم ، وقال صحيح الإسناد .

البوائق : جمعٌ مفرده بائقة ، وهي الداهية من الشر والظلم ، قال ابن الأثير في «النهاية» ومنه « لايدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » أي غوائله وشروره . والبوائق : الدواهي جمع بائقة وهي الداهية .

المحرمات وإعانة الظالمين..

المسؤولية والجزاء

ما أكرمه وأعزه موقفاً ؛ حرص المؤمن على التزام الطاعة ، وحجز نفسه عن المخالفة عن أمر الله ورسوله ، كيما يكون ـ بعون الله وفضله ـ يوم الدين في زمرة أولئك الذين يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، ناجياً من أن يكون في عداد أولئك الذين مأواهم جهنم وساءت مصيراً . وأبواب الخير مُشرعة متاحة لمن يجاهد نفسه وهواه ، ولا يستبدل عاجلاً بآجل ، أن يدخلها ويكون ـ بعون الله ـ من أهل ذلك الفضل العظيم . أما من يركن إلى الدنيا ، ويرضى بالقعود عن اللحاق بركب أهل الآخرة الطائعين المجاهدين ، الصابرين المنيبين: فقد ظلم نفسه وكان من الخاسرين . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوٌّ مبين** ﴾ البقرة آية (١٦٨) فقام سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه فقال : « يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ، فقال له النبي ﷺ : يا سعد أطب مطعمك ، تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده ، إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ، ما يتقبل منه عمل أربعين يوماً ، وأيُّما عبد نبت لحمه من سُحت فالنار أولى به» . رواه ابن مردويه والطبراني في « الصغير » ، وأحد الرواة عند ابن مردويه متكلم فيه عند العلماء .

السحت : الحرام . وقيل : الخبيث من المكاسب . وعن ابن سيرين ـ كما جاء عند البخاري ـ كان يقال : السحت الرشوة في الحكم . أرأيت إلى السحت كيف يقود صاحبه إلى جهنم؟ .

وأخرجَ الترمذي بسنده عن طارق بن شهاب عن كعب بن عُجرة رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ: « أعيذك بالله ياكعب بن عجْرة من أمراء يكونون من بعدي : فمن غشي أبوابهم ، فصدّقهم في كذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني ولست منه ، ولا يرد عليّ الحوض . ومن غشي أبوابهم أو لم يغش. فلم يصدقهم في كذبهم ،ولم يعنهم على ظلمهم؛ فهو مني وأنا منه وسيرد عليَّ الحوض . يا كعبُ بن عجرة ! الصلاة برهان ، والصوم جُنة حصينة ، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، يا كعب بنَ عجرة ! إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به . يا كعب بنَ عجرة ! الناس غاديان : فغاد في فكاك نفسه فمعتقها وغاد فموبقها ». قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . ورواه ابن حبان في صحيحه . وجاء عند الإمام أحمد في المسند من رواية جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لكعب بن عجرة : أعاذك الله من إمارة السفهاء قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : أمراء يكونون بعدي ، لا يقتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي فمن صدقهم بكذبهم ولم يُعنهم على ظلمهم ، فأولئك مني وأنا منهم وسيردون علي حوضي. يا كعبُ بنَ عجرة ! الصوم جنة ، والصلاة قربان ، أو قال : برهان . يا كعب بن عجرة ! إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت ، النار أولى به . يا كعب بن عجرة ! الناس غاديان : فمبتاع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها » وأخرجه النسائي ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

معتق نفسه : مبعدها عن نار جهنم بما يعمل مخلصاً من الصالحات ، ويكثر من الطاعات والقربات . وموبقها : مهلكها بكثرة المعاصي واقتراف السيئات؛ فطوبى لمن ابتاع نفسه وغدا في فكاكها ،فأعتقها من النار ، وفاز برضا الله في جنة الرضوان !.

وجزى الله الكريم المنان رسولنا عليه الصلاة والسلام خير الجزاء بما هدى إلى الصراط المستقيم ، وبما وضع أمته على المحجة البيضاء النقية التي تسلك

بالمستمسك بها طريقاً قاصدةً إلى دار النعيم ، وتحجزه عن أن يكون من أهل الجحيم . والحق أن الناظر في هدي النبي صلوات الله وسلامه عليه لا يعدم أن يقع على الصلة الوثيقة بين ما رغب فيه من الاستقامة، والعمل الصالح ، وحسن الخلق وما هو من ذلك بسبيل ، وبين مشاهد النور والعطاء الإلهي يوم القيامة ؛ إذ أنه عليه الصلاة والسلام ، قاد بإرشاده وتعليمه إلى حيث يكون العاملون المخلصون من أهل تلك المشاهد المباركة الميمونة . كما أن الناظر في ذلك الهدي الميمون ، لا يعدم أن يقع على الصلة بين ما رهّب ﷺ وحذّر من الوقوع فيه من الاعتداء على حدود الله ، وارتكاب ما نهى الله عنه والتعامل بسوء خلق مع الناس، وما إلى ذلك من مهاوي الضلال ، وبين تلكم المشاهد المروعة يوم الدين ؛ لما أنه عليه الصلاة والسلام قد أخذ بحجز الناس عن النار ، ولكن أهل الخسران أبوا إلا أن يكونوا من أهل تلك المشاهد ، ويقعوا فيها والعياذ بالله . عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا من أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه . والذي نفسي بيده لا يُسلم عبد حتى يُسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه . قالوا : وما بوائقه يا رسول الله ؟ قال : غشْمُه وظُلْمه . ولا يكسب عبد مالاً من حرام فيبارك له فيه ، ولا يتصدق به فيقبَل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار . إن الله تعالى لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » رواه أحمد في المسند وغيره .

هكذا يكشف المصطفى عليه الصلاة والسلام عن الداء الذي يودي بصاحبه إلى جهنم ، ويضع الأيدي ببيان عظيم مشرق على الدواء ، وتراه صلوات الله وسلامه عليه ، يضع القواعد النورانية التي ينقاد إليها المنصفون أولو النهى، ويدخُل بعظمته وهديه أعماق النفس الإنسانية ؛يعالجها ويوجه استعدادها وجهة الخير بعيداً عن السطحية وكلام المتطفلين : إنه ـ فداه أبي وأمي ـ لا ينطق عن

الهوى ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ . أخرج الإمام الترمذي في الجامع «سنن الترمذي» عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «استحيوا من الله حق الحياء ، قال : قلنا : يارسول الله ـ أويا نبي الله ـ إنا لنستحيي والحمد لله . قال: ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى . ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء ». قال أبو عيسى : حديث غريب إنما نعرفه من حديث أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد .

وما من ريب في أن هذا الحياء ـ كما حدّده النبي عليه الصلاة والسلام ـ يحمل صاحبه على أداء حقوق الله وحقوق العباد على الوجه الذي ينبغي ، وبذلك يكون لبنة صالحة قوية في بناء المجتمع المسلم . وهذه الحال التقية النقية ، التي لا ينسى صاحبها الله واليوم الآخر ، ويصبح ويمسي وهو على ذكر للموت ولما بعد الموت تكون ـ بفضل الله ـ مُدخله إلى الفوز بسعادة الدارين ، وأن يكون في الآخرة من المقربين في جنات النعيم .

والحديث أخرجه أحمد أيضاً في المسند عن ابن مسعود رضي الله عنه من رواية أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد وجاء في هذه الرواية «ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما حوى ، وليحفظ البطن وما وعى ، وليذكر الموت والبلى . ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء » .

اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، واكتبنا في زمرة من يستحيون منك ـ وأنت الغفور الرحيم ـ حق الحياء ، واجعلنا ـ بلطفك وإحسانك ـ من ورثة جنة النعيم . وصلِّ اللهم وسلم وبارك على من أبان عن الخالق جل شأنه ما أراد ، وأوضح لأمته معالم الطريق إلى الفوز بسعادة الدارين .

الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً..

يوم تحدِّث مشاهد القيامة أخبارها فترى ــ يا أيها الإنسان ـ عقبى أهل الفلاح والنجاح وعقبى أهل الضلالة والصدِّ عن سبيل الله ، يومئذ يتبيّن الغافلون أنهم لم يكونوا على شيء من الحق ، وأنهم ليسوا من العمل لما خلق له الإنسان ؛ في قليل ولا كثير . ويوم تحدث مشاهد القيامة أخبارها، وتعلنُ حقيقة المسؤولية والجزاء إعلانَها ـ فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ــ في ذلك اليوم العصيب الذي يحمل من شدة الهول ما يحمل ، ويأخذ الفزع من سوء العاقبة في عرصاته بمجامع القلوب .. يضيء نور الخشية من الله ،لأهل الخشية طريقهم، فتنقشع الظلمة ، ويفوزون بجنة النعيم ؛ فضلاً من الله ورضواناً . ويا نعم ما يفعل المؤمن في الدنيا حين يستعلي على المعوقات ويسلك طريق من قال الله فيهم : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ قال الحافظ ابن كثير أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ـ كلما كانت المعرفة والعلم به أكمل ـ كانت الخشية له أعظم وأكثر . روي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال في هذا: العالم بالرحمن :من لم يشرك به شيئاً ، أحل حلاله ، وحرَّم حرامه ، وحفظ وصيته ، فأيقن أنه ملاقيه ، ومحاسب بعمله . وقال سعيد بن جبير : الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عز وجل .

وهذه الخشية التي تؤول بصاحبها إلى الفوز بمرضاة الله ، وأن يحشر في زمرة المنيبين المتقين .. هذه الخشية عنوان كمال الإيمان . قال الحسن البصري : الإيمان من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغَّب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه ، ثم تلا الحسن : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور**﴾. وهكذا يكون من الأهمية بمكان : أن يقوم البرهان على تلك الخشية ، بالتزام كل ما فيه طاعة الله،

والرغبة فيما رغب فيـه سبحانه ، والبعد عما رهّب منه في كتابـه أو على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام .

والحق أن منهج الهداية إلى مـا فيه خير الفرد والجماعة في الدنيـا والآخرة ـ كما هـو واضح في كتـاب الله وسنة نبيـه عليـه الصلاة والسـلام ـ قطـع على المتبطلين الغافلين انتحال الأعذار ، والتعلُّلات الشيطانية الكاذبة . وقد ترك النبي ﷺ الأمة على بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلا هالك . فليـس من صورة من صور المؤاخذة التي يشهدهـا العباد يوم الـدين ، على المخالفـة عن أمـر الله ورسوله ، إلا وهـي حجة ناطقـة ، يفترض أن تشد من أزر العـاملين ، وتوقـظ المهملين الغافلين ، وتحدث ـ من وراء ذلـك ـ ما تحدث من طمـأنينة في حياة الفرد واستقـراره في المجتمع ؛لأن إنسـانية الإنسـان مصونـة ، والحقوق والـواجبـات آخذة حقهـا وفق شريعـة الله، واستقامة الأمة على العمل بها .

هـذا واحـد مـن الأمثلـة على هذه السـاحـة ، تعـز على الحصر قـال الإمـام البخاري: حـدثنا عبـدان عن أبي حمزة عـن الأعمش عـن شقيق عـن عبدالله بـن مسعود رضي الله عنـه عن النبي ﷺ قـال : « من حلف على يمين يقتطـع بها مال امريء مسلـم هو عليها فـاجر لقي الله وفي روايـة لقي الله يـوم القيامة وهـو عليه غضبان » . فـأنزل الله تعـالى : ﴿**إن الذيـن يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنـاً قليلاً أولئـك لا خـلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهـم الله ولا ينظـر إليهـم يوم القيـامـة ولا يزكيهم ولهم عـذاب أليم**﴾ . فجـاء الأشعث بـن قيس فقـال : ما حـدّثكم أبـو عبدالـرحمن ؟ فيّ أنزلت هـذه الآية ، كانـت لي بئر في أرض ابن عـم لي ، فقال لي : شهودَك . قلت : ما لي شهودٌ . قال : فيمينُه . قلت : يارسول الله إذن يحلف . فذكر النبي ﷺ هذا الحديث ، فأنزل الله ذلك تصديقاً له ».

فليحذر الذين يـؤذون عباد الله ويغتصبون حقوق المسلمين ـ أياً كـانت هذه الحقوق ـ أن يكونـوا يوم القيامة ممن تؤجـج بهم نار السعير ؛ لأنهم يلقون الله وهو

عليهم غضبان . وقد جاء التصريح عند مسلم وغيره بإيجاب الله النار ، وتحريمه الجنة لمن اقتطع حق امريء مسلم بيمينه . أخرج الإمام مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من اقتطع حق مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة » ورواه أحمد وأبو داود والترمذي .

ياله من مشهد مرعب مَهول !! يستمتع هذا المؤذي بحق المسلم في الدنيا، فيعاقب بأن يكون من وقود جهنم في الآخرة . ونجد في بعض روايات الحديث تفصيلاً أوفى مما في رواية الإمام البخاري التي فيها ذكر الأشعث رضي الله عنه. فعند مسلم من رواية أبي عبدالرحمن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرىء مسلم هو فيها فاجر ، لقي الله وهو عليه غضبان ». قال : فدخل الأشعث بن قيس فقال : ما يحدثكم أبو عبدالرحمن ؟ قالوا : كذا وكذا . قال : صدق أبو عبدالرحمن فيَّ نزلت . كانت بيني وبين رجل أرض باليمن فخاصمته إلى النبي ﷺ فقال : « هل لك بينة؟ فقلت : لا . قال : فيمينه . قلت : إذن يحلفُ ـ أو يحلفَ ـ فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرىء هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان » ، فنزلت ، ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ..** ﴾ إلى آخر الآية .

وحملت إلينا بعض الروايات واقعة أخرى توعدّ فيها النبي ﷺ مقترف تلكم الجناية ذلك الوعيد الشديد ، وهو وعيد حسبك من شدته أن يغضب الله عليه ، ومن لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان فقد أوجب له النار وحرّم عليه الجنة. روى مسلم بسنده عن الأحوص عن سماك عن علقمة بن وائل عن أبيه قال : «جاء رجل من حضرموت ، ورجل من كِنْدة إلى النبي ﷺ ، فقال الحضرمي: يارسول الله إن هذا قد غلبني على أرض لي كانت لأبي ، فقال الكِندي : هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها حق ، فقال رسول الله ﷺ للحضرمي : ألك بينة ؟ قال: لا . قال : فلك يمينه . قال : يا رسول الله إن الرجل فاجر لا يبالي على ما

حلف عليه ، وليس يتورع من شيء ، فقال : ليس لك منه إلا ذلك . فانطلق ليحلف ، فقال رسول الله ﷺ لما أدبر : أمالئن حلف على ماله ليأكله ظلماً ، لقي الله وهو عنه معرض » . وله من رواية أخرى عن وائل بن حجر عن أبيه قال: «كنت عند رسول الله ﷺ فأتاه رجلان يختصمان في أرض فقال أحدهما : إن هذا انتزى على أرضي ــ أي غلب عليها ـ في الجاهلية وهو امرؤ القيس بنُ عابسٍ الكِنديُّ ، وخصمه ربيعة بن عِبْدان . قال : بينتك . قال : ليس لي بينة . قال : يمينه . قال : إذن يذهب ـ أو يذهب ـ بها . قال : ليس لك إلا ذاك ، قال : فلما قام ليحلف قال رسول الله ﷺ : « من اقتطع أرضاً ظالماً لقي الله وهو عليه غضبان » .

ذلكم نطق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه ، وإنها للفتنة العمياء والضلال البعيد ، أن يضرب الران على القلوب بالأسداد ، فيسود الظلم ، ويستعلن الاعتداء على حقوق العباد ، ولا من ينكر على الظالم ولا من يأخذ على يديه ؛ فأهل الصلاح مقهورون ، وزبانية الفساد والإفساد يسرحون ويمرحون . ويح أولئك الظالمين ، من يوم تشخص فيه الأبصار ، وتشهدهم الخلائق يُدَعُّون إلى نار جهنم دعّاً ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ .

وصلاة الله وأزكى تسليماته على نبي الرحمة الذي لم يأل جُهداً في بيان كل ما يجب بيانه للأمة وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته أجمعين.

المفلس.. والطرح في النار

من أمـارات الفلاح المشرقة في حيـاة المؤمن : أن يكـون وقّافاً عنـد حدود الله عزوجل ، كلِفاً أبداً بما يجعله من أهل الرضا ، يرجو رحمة مولاه التي بها يحظى بجنة النعيم ،والإقامة الخالـدة في دار الكرامة ، كما يخاف صادقاً من سـوء الحساب يوم المعاد ، وهو اليوم العبوس القمطـرير الذي شره مستطير ، منتشر عام على الناس، إلا من رحم الله ﴿**يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقُوا ففي النار لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ . خالدين فيها مادامت السماواتُ والأرضُ إلا ما شاء ربُّـك إن ربَّك فعَّال لما يريد . وأما الـذين سُعدوا ففي الجنة خالـدين فيها مادامت السمواتُ والأرضُ إلا ما شاء ربُّك عطاءً غيرَ مجذوذ**﴾ .

والمفلح حقـاً من أخـذ نفسه بمنهاج أهـل السعادة ، فكانـت له جنـة عدن خالـداً فيها مادامت السماوات والأرض ، ونـأى بها عن أن يكون من أهـل الشِقوة الذيـن يؤول أمـرهم إلى نـار تلظى ، لهم فيهـا زفير وشهيق . والمؤمـن لا يتعدى في عمله سنـة الله في عاقبة كـل من الفريقين ، وأنـه لا تزر وازرة أخرى ؛ فهـو يعمل جاهداً مخلصاً يرجو رحمة الله ويخشى عذابه ، كيما يكون ـ بتوفيق الله ـ من الناجين الفائزين.

ولقد قـصّ علينا القرآن قصـة كفار قريـش يوم كانـوا يقولون لمن آمـن منهم واتبع هدى الله : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا ﴿ **اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم**﴾ أي وآثامكـم إن كانت لكـم آثام في ذلك علينا ، فـأكذبهم الله تبارك وتعـالى مبيناً أنهم لا يحملون من خطـاياهم شيئاً ، وأنهم كـاذبون مفترون ؛ ذلكم قولـه تعالى في سـورة العنكبـوت : ﴿**وقـال الذيـن كفروا للـذيـن آمنوا اتبعـوا سبيلنا ولنحمـل خطاياكم ومـا هم بحاملين من خطاياهـم من شيء وإنهم لكاذبون**﴾ تلكم سنة

الله التي لا تتبدل في أنَّ كلَّ إنسـان يؤخذ بعمله وهو مسؤول يوم القيـامة مسؤولية فردية عما كسبت يداه ، ولا يحمل أحد وزر أحد ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ وكما قال جل شأنه : ﴿ **وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى** ﴾ فليتق الله امرؤ في عاقبة أمره ، وليكن دائماً على ذُكر من طبيعة المسؤولية يوم الدين ، كائناً ما كان الثغر الذي أقامه الله عليه في الدنيا .

غير أن مما يجب التنبيـه عليهْ : أن مـن المشاهـد المروعة يـوم القيامـة ، مشهد أولئك الذين أجرموا في الدنيا بما كانـوا يضلون الناس ، ويدعونهم إلى ما هو عداءٌ لله ولرسله عليهم الصلاة والسلام ، مشهدهم وهم يُسحبون في النار على وجوههم مَقُولاً لهم : ﴿ **ذوقوا مسَّ سقر** ﴾، حيث يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة مضافاً إلى ذلك أوزار أخرُ ، يُضاعف لهم العذاب ، بسبب ما أضلوا عباد الله ، وزينوا لهم الباطل وكـانوا من الجاحديـن المفترين. ﴿**وليحملنَّ أثقالهم وأثقـالاً مع أثقالهم، وليُسألنَّ يوم القيامة عما كانوا يفترون** ﴾ هكذا ينطق مشهد عذاب هؤلاء يوم الدين بمسؤوليتهـم عن ضلالهم في أنفسهـم، وعن دعوتهم الضـالَّة لـلآخرين وقـذفهم إياهم في حمأة الغواية والمظاهـرة على الحق وأهله من المؤمنين . كل هذا من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيء ، كما قال ربنا جل شأنه: ﴿ **ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم** ﴾ .

ألا وإن هـذا المشهد النـاطق ببشـاعة الجريمـة التـي يقترفها أولئـك الذيـن يصدون عن سبيل الله ويبغـونها عوجاً ، ويعملون على تمزيق شمل الامـة بإبعادها عن الطريق السوي ، ومجافاتها لحقيقة التوحيد ، وتعطيل شريعة الله ، والعمل على أن تحتكم إلى معايير شيطانية مستوردة ... إن هذا المشهد الناطق بذلك كله، يشي بمشهد يقـابله ، زاخر بـالنور والإشراق ، دلت عليـه السنة المطهرة !! إنـه مشهد أولئك الذين أنعـم الله عليهم بالهداية ، وقاموا بحقهـا في الدعوة إليها ، والحرص على أن تكون الأمة على حـال تدور فيه مع الحق حيث دار ؛ فقـد جاء في الحديث الصحيح الـذي رواه مسلم عن أبي هريـرة رضي الله عنه قوله ﷺ : « مـن دعا إلى

هدىً كان له من الأجر مثلُ أجور مـن اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليـه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقـص من آثامهم شيئاً ». وفي الصحيح أيضاً نجـد قوله عليه الصلاة والسـلام « ما قُتلتْ نفسٌ ظلماً إلا كـان على ابن آدم الأول كِفْلٌ منهـا لأنه أول من سنّ القتل ». وحين تجدُ هذه الحقيقة التي نطق بها ووجه إليها من لا ينطق عن الهوى ﷺ مكانها من العقول والقلوب ، تكشـف عن أن من يقصِّر في الدعوة إلى الخير ـ وهو قادر عليها ـ فقد سفه نفسه وحرم الخير الكثير .

وياويح أولئك الدعاة على أبواب جهنم، الذين من استجاب لدعوتهم جَرُّوه إلى نار السعير ، يا ويحهم من ذلك العذاب الأليم يوم لا ينفع الظالمين معذرتُهم ، ولا يغني عن أهل الضلالـة والدعاة إليها ، ما كانوا ينشدونـه في الدنيا من مال أو جاه، أو إرضـاء لأعداء الله والحق الـذي أوحى به إلى نبيـه عليه الصـلاة والسلام؛ فالأولون يكرمـون بأجورهم ومثل أجور مـن دعوهم إلى حظيرة الخير ، من غير أن ينقص ذلـك من أجـورهم شيئـاً ، وهؤلاء يفتضحـون بتحمل أثقـالهم وأوزارهم، مضمـوماً إليهـا آثام مـن تبعهم ، مستجيبـاً لتمويهاتهم وأضـاليلهم ، مـن غير أن ينقص من تلك الأوزار والآثام شيئاً .

هذا : وقد ختمت آية سورة العنكبوت التـي عرضت لأهل الضلالة الداعين إليهـا وكـونِهم يحملـون أثقالهم وأثقـالاً مـع أثقـالهم يـوم القيـامة بقـولـه تعـالى : ﴿**ولَـيُسْأَلُنَّ يوم القيامـة عمَّا كانوا يفترون**﴾ وفي هذا تأكيد لمسـؤوليتهم عما كانوا يكذبـون ويختلقون من البهتـان والصدِّ عن سبيـل الله . وقد ذكر الحافـظ ابن كثير يرحمه الله ما روى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بلَّغ ما أرسـل به ثم قال : « إياكم والظلـم فإن الله يعزم يوم القيامـة فيقول : وعزتي وجلالي لا يجوزني اليوم ظلـم ، ثم ينادي منادٍ فيقـول : أين فلان بن فـلان ؟ فيأتي يتبعه من الحسنات أمثـال الجبال ، فيشخص الناس إليه بأبصـارهم ، حتى يقوم بين يدي الرحمن عز وجل ، ثم يأمر المنادي فينادي : من كانت له تباعة أو ظلامة

عند فلان بن فـلان فهلم !! فيُقبلون حتى يجتمعوا قيامـاً بين يدي الرحمن ، فيقول الرحمن: اقضـوا عن عبدي ! فيقولـون : كيف نقضي عنه ؟ فيقول : خـذوا لهم من حسنـاته ، فـلا يزالـون يأخـذون منها حتـى لا يبقى منهـا حسنة ، وقـد بقي مـن أصحاب الظلامـات ! فيقول: اقضوا عن عبـدي ، فيقولون : لم يبق لـه حسنة .. فيقول : خذوا مـن سيئاتهم فاحملوها عليـه . ثم نزع النبي ﷺ بهذه الآيـة الكريمة **﴿وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾** . نزع : استشهد .

وهذا الحديث له شـاهد في الصحيح أوردناه في مناسبة أخـرى ، يوضح هذا المشهد تمام الإيضـاح ويعرِّف بصـاحب الـواقعة ؛ إذ يطلـق عليه النبـي ﷺ اسم المفلس . ذلكم ما أخرج مسلم في صحيحـه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيـامة بصلاة وصيامٍ وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هـذا !! فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار ».

ألا ما أكثر الـدروس والعبر في هذا الهدي المحمدي، وأقلَّ المعتبريـن . إن ما يؤول إليه أمر هـؤلاء المفلسين من الطرح في النار يوم يقوم النـاس لرب العالمين .. جديرٌ بالوقفـة الإيمانية المتبصرة التي تدعو إلى البعد عن كل مـا يوقع في الإفلاس الحقيقي بين يـدي من لا تخفـى عليه خـافية ، والعمـلِ على حسن التعـامل وأداء حقوق الآخـرين ، كـاملة غير منقوصـة ، وعدمِ الإيـذاء لعباد الله .. فمـن أصلح العمل استدرّ رحمة الله ، فكان من الناجين ، ومـن تعدى حدود الله ؛ فوقع فيما نبّه عليه النبي عليه الصلاة والسلام ، افتضح على رؤوس الأشهاد يوم الدين ، وكانت عاقبة أمره خسراً ، وأي خسـارة أشد من الطرح في النار ـ والعياذ بـالله تعالى ـ بعد هذا الافتضاح والناس قيام ينظرون !!

العطاء الرباني.. الآفاق والجنة

لله ما أعظم ما امتنّ الله به على هـذه الأمة بهدي النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فهو ﷺ الـرحمة المهداة للعـالمين ، وهو البشير النذيـر ، وهو الـذي سلك بـالأمة السبيل القويـم والصراط المستقيم ، ولم يدع طـريقاً من طرق الهداية إلى الخير ، إلا دلَّهم عليه ورغّب فيه ، كما لم يدع طريقاً مـن طرق الضلالة والشر ، إلا كشف عن عواره ورهّب منه . وهكذا رسم عليـه الصلاة والسلام المنهج الخيِّر المشرق ، وكان خير أسوة في تطبيقه والعمل به. وعاقبةُ الأمة ــ أن لو التزمت هذا المنهج ـ سعادة في الدنيا ، وجنات تجري من تحتها الأنهار في دار الخلود .

وساحـة الفضل متسعة الأرجـاء في ظل هذه الحقيقـة ، فأنّى تلفّـتَ المؤمن ، وجد موائد العطاء منصـوبة ؛ وما عليه إلا أن يُقبل عليها بقلبـه وعقله وجوارحه ، ويأخذَ نفسـه بذلك الهدي المحمدي ، الـذي هو نعم البيان لكتـاب الله الذي لا يأتيه البـاطل من بين يديـه ولا من خلفه تنزيـل من حكيم حميد . ومـا أكثر وأوفر مشاهـد الفضل الكبير يوم القيامـة لأولئك السعداء الموفقين !!. أخـرج البخاري بسنده عن شداد بن أوس رضي الله عنه عـن النبي ﷺ قال : « سيّد الاستغفار أن يقول العبـد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنـت خلقتني وأنا عبدك وأنـا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعـت ، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها في النهار موقناً بها ، فمات من يومـه قبل أن يمسيَ فهو من أهل الجنـة ، ومن قالها من الليل وهـو موقن بها ، فمات قبل أن يصبحَ فهو من أهل الجنة » .

أرأيت : يستغفر الله تعالى موقناً بما يقول : مصدقاً تصديقاً جازماً بدلالة تلكم الكلمات النورانيـة التي يناجـي بها مولاه بخشوع وخضـوع ، فيكون ممن تـدركهم رحمة الله ويفوزون في الآخرة بالنعيم المقيم .

وماذا أنت قائل بدلالة ذلك المشهد العظيم البالغ التأثير العميق الدلالة !! مشهد ما يعطاه النبي عليه الصلاة والسلام من المقام المحمود ؛حيث الأهوال العظام ، والشدة الشادَّة التي تضرب على الخلائق بالأسداد ؛ إذ يكرمه الله بالشفاعة لهم في فصل القضاء ، ثم يكون دعاؤه الكريم لأمته . ولا تسل عن إكرام الله وإحسانه وفضله العظيم الذي لا يُحَدُّ . وهذا كله من موجبات التذكير بالعمل ليوم المعاد ، وأن يحرص المؤمن على فعل الطاعات وعمل الصالحات ، كيما يكون ذلك طريقه إلى رحمة الله تعالى التي بها يزحزح عن النار ويُحِلُّهُ الله دار الكرامة ويحظى بما يتفضل سبحانه به على عباده المتقين ؛مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في دعوة فرفع إليه الذراع ـ كانت تعجبه ـ فنهس منها نهسة وقال : « أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون مم ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فينظرهم الناظر ، يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا ترون إلى ما أنتم فيه إلى ما بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم ! فيأتونه فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى إلى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فقال : إن ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري : اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض، وقد سمّاك الله عبداً شكوراً ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما بَلَغْنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ فيقول : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم ، فيقولون : يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟! فيقول :

إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله .. إلى أن يقول : اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى فيقولون : يا موسى أنت رسول الله فضّلك الله برسالاته وبكلامه ،على الناس ؛ اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله .. إلى أن يقول : اذهبوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى فيقولون : ياعيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وكلمتَ الناس في المهد اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟! فيقول عيسى : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ـ ولم يذكر ذنباً ـ نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمد ﷺ »

وفي رواية فيأتوني فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟! فأنطلق فآتي العرش ، فأقع ساجداً لربي ، ثم يفتح الله عليّ من محامده ، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع . فأرفع رأسي ، فأقول : أمتي يارب ، أمتي يارب ، أمتي يارب . فيقال : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب . ثم قال : والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة ، كما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى » رواه البخاري ومسلم .

واذا كان الأمر كذلك: فليس من مكرور القول ، أن هذه الكلمات الطيبات المباركات من النبي عليه الصلاة والسلام ،مدعاةٌ للكثير الكثير من الاهتمام الذي يشحذ العزائم ويوقظ الهمم للعمل على أن يكون المؤمن بقوله وفعله وسلوكه ـ بعون الله وفضله ـ ممن تشملهم تلك البشارة العظيمة التي لا يقدر قدرها ،والتي هي عنوان النجاة من عذاب الله ، والفوزِ بدار كرامته ﴿ **يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله** ﴾.

وفي حرص على الوجهة السليمة ، ابتغـاء أن يكون المؤمن على سواء الصراط في العمل للآخرة ، تطالعنا الكثير من نصوص الحديث النبوي التي تفتح للمؤمن ـ أن لو عمل بمضـامينها ـ آفاق السعادة الأخروية التي يتطلـع إليها أهل الصدق مع الله ، الـذين اتخذوا من الـدنيا مـزرعة للآخـرة ، ومن العمل الصـالح بـاباً إلى حسن العاقبة يوم الدين . موقنين أن الأمر ـ أولاً وآخراً ـ بيده سبحانه وهو على كل شيء قدير .

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريـرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من غدا إلى المسجد أو راح أعدّ الله له في الجنة نُزُلاً كلما غدا أو راح » وأكرم بهذا النزل الذي موطنه جنة الخلد التي تزلف للمتقـون . ويا بؤس من يعلم الطريق إلى هذه التجارة الرابحة، ثم يتوانى عن تحصيلها طاعةً للنفس الأمارة بالسوء والشيطان .. والموعد يوم الحساب .

وفي متـابعـة لمعـالم هـذا الفضل الإلهي على لسـان المصطفـى عليـه الصـلاة والسـلام صاحـبِ الشريعة ومبينِ الكتـاب العـزيز ، نقـع على ما روى أبـو داود والترمذي عـن بريـدة رضي الله عنه عـن النبي ﷺ أنـه قال : « بشِّروا المشـائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » .

ياله مشهداً بالغ العِظة والإشراق، مشهد هؤلاء المشائين إلى بيوت الله في تلك الأوقات التـي يأوي فيها النـاس إلى منازلهم ومواطن استقـرارهم طلباً للـراحة. و «مشاؤون» صيغة مبالغـة تدل على صدق الوجهة والمثابـرة ، وتشعر بما يجدون من لذة العبادة ، وتحمُّـل المشاق في سبيلها!، فأجسـامهم تتجافى عن الـراحة المادية، لأن راحتهـم في بيوت الله صـلاةً وذكراً وتـلاوة لكتاب الله ، وطلبـاً للعلم، أعظـم منهـا، إن لذة العمـل بما يكون زلفـاهم إلى الله، تنسيهـم ما يمكـن أن يكون مـن التعب والمشقة في هذه الدار . وما عند الله خير وأبقى .

اللهم اجعلنـا من أهـل النور التام يـوم القيامة إنـك أنت المتفضـل المنان .
وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيد الأولين والآخرين وعلى آله وصحابته أجمعين .

العناية بإصلاح الآخرة التي إليها المعاد، حرصاً على حسن العاقبة يوم القيامة : من الأمور التي يجب، أن تنال حظها الأوفى من الاهتمام في حياة المؤمن .
وذلكم ما تميز به نهج النبي ﷺ وبارك، وربى أصحابه الكرام عليه، وبلغ من اهتمامه عليه الصلاة والسلام بذلك ـ وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ـ أنه ـ إلى جانب العمل ـ كان يدعو ربه بإصلاح آخرته التي فيها معاده .
أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر» وهذا منه ـ ﷺ ـ إحسان في تربية أصحابه، والمسلمين من ورائهم، على الجدّ في طلب الآخرة، والضرع إلى الله تعالى أن يجعلهم من أهل النجاة والفوز بمرضاته، والنعيم المقيم في جنة الخلد يوم الدين ؛ ذلكم بأن العبرة بما يكون عليه الأمر هناك يوم الفصل، حيث تقف الخلائق بين يدي ذي القوة المتين سبحانه .

وإذا كان الأمر كذلك : فإن المؤمن مدعو لأن يحسن الغرس في الدنيا، سلامةَ قصد وصالحَ عمل، كي يكون ممن ينشر الله عليهم رحمته في ذلك اليوم، ويدخل دار النعيم مع الداخلين، وإلا ساءت العاقبة، وحلت الندامة، ولات ساعة مندم !! ولكم بصّرت سنة رسول الله الأمة، وفتحت الأعين على مشاهد مروعةٍ يوم القيامة تضطرب القلوب لذكر ما تحمل من الهول، وهي مشاهد لا تشي بانعدام العمل ظاهراً في الدنيا، ولكنها تنبىء عن الدخَل الذي صحب ذلك العمل، فكانت العاقبة الخاسرة التي ينطق بها ما ينال صاحبَها من العقاب الأليم . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول

الناس يُقضى يوم القيامة عليه : رجل استُشهد فأتي به ، فعرَّفه نِعَمَه ، فعرفها ، قال: فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استُشهِدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء ! فقد قيل . ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجلٌ تعلم العلم وعلّمه ، وقرأ القرآن ، فأتي به فعرّفه نِعَمَه فعرفها. قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلّمته ، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم ! وقرأت القرآن ليقال : قارىء !! فقد قيل. ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال . فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت ، ولكنك فعلت ليقال: جواد ! فقد قيل ، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار » رواه مسلم .

إن هذه الحقائق التي تكشف عنها تلكم المشاهد ، جديرة بأن تثير في قلب الإنسان وعقله مزيداً من الحرص على محاسبة النفس ، والعمل على سلوك طريق أهل الفلاح بتزكيتها ، كيما تكون الأعمال خالصة لله عز وجل ، بعد أن تكون وفق ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام . قال الله جل شأنه : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** ﴾ وإنما الأعمال بالنيات كما بيّن النبي عليه الصلاة والسلام . فمن أراد صادقاً أن يسلم له العمل يوم المعاد ، فليأت ما يأتي من الصالحات والقربات والمبرات ، علماً، وجهاداً ، وعبادة ، ونفقة .. وما إلى ذلك ، وهو صادق الوجهة ، همُّه أن يرضى الله عنه ، ويكونَ من أهل القبول . أخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » .

فالله تعالى يخبر عن هذا المرائي الذي أشرك مع الله غيره في العمل ، أنه يتركه وشركه ؛ أي لا ينظر إليه ولا يتقبل عمله ، بل تكون عاقبته أن يحبط عمله ، ويحرم

الأجر والثواب ، لأنه أطاع الشيطان والهوى في الجنوح عن الإخلاص لله تبارك وتعالى ؛ فإذا جاء يوم القيامة انكشفت الحقيقة ، ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾ أجارنا الله مما يستلزم الفضيحة على رؤوس الأشهاد بين يديه . روى البخاري ومسلم عن جندب بن عبدالله بن سفيان رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « من سمّع سمّع الله به ومن راءى راءى الله به » وأخرجه مسلم أيضاً من رواية ابن عباس رضي الله عنهما .

قال علماؤنا رحمهم الله : « سمّع » ـ بتشديد الميم ـ أظهر عمله للناس رياءً . و « سمّع الله به » : فضحه يوم القيامة . وقال الإمام النووي : معنى من « راءى راءى الله به » أي من أظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم راءى الله به ؛ أي أظهر سريرته على رؤوس الخلائق.

وهذا النبي عليه الصلاة والسلام يتوعَّد من يجعل الدنيا همّه ،فيقوده الغرض الهابط لتعلم علمٍ مما يُبتغى به وجه الله عز وجل ، بحيث ينحصر مبتغاه في عرض من الدنيا .. يتوعده بأن لا يجد عَرف الجنة يوم القيامة . أخرج أبو داود في سننه بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من تعلّم علماً مما يُبتغى به وجه الله عز وجل ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ، لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة » ـ يعني ريحها ـ .

من هنا كان حرص الصحابة رضي الله عنهم ، ومن تبعهم بإحسان ـ عبر تاريخنا الطويل ـ على صلاح الآخرة ، وكان معنى هذا الحرص المبارك : الاستقامة على الطريقة ، والدأب على عمل الصالحات والجهاد في سبيل الله بإخلاص وصدق عزيمة ، وثبات في مواطن الرغبة والرهبة ، وما يكون من المنشط والمكره ، ولسوف ترى الخليقة يوم المعاد ، المشاهد الناطقة بذلك كلِه ، الدالةِ على خيرية ذلك السلوك النيّر المستقيم .

أرأيت إلى الصحابي الشهيد عبدالله ، والد جابر رضي الله عنهما ، ماذا بلغ من

حرصه على سلامة العاقبة في الآخرة ، وكيف كان يشغله ـ وهو يحسّ أنه مقبل على الموت والشهادة في سبيل الله ــ قضاء دينه ، وأن يستوصي ولده بإخوته خيراً ، كي يلقى الله وهو متخفف مما يثقل الكاهل من حقوق الآخرين ، الأمر الذي قد تسوء الحال معه إن لم تدرك المرءَ رحمة الله سبحانه وتعالى !! أرأيت إليه وهو يوصي ولده عبدالله بذلك ليلة حضرت أحد ، وهو يعدّ نفسه لخوض معركة الحق مع الباطل، ولا يرى إلا أنه مقتول في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ ؟! أخرج البخاري بسنده عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : « لما حضرتْ أحدٌ ، دعاني أبي من الليل فقال : ما أُراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ ، وإني لا أترك بعدي أعزّ عليّ منك ، غير نفس رسول الله ﷺ، وإن عليّ ديناً فاقضه ، واستوص بأخواتك خيراً. فأصبحنا فكان أولَ قتيل ، ودفنت معه آخر في قبره ، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع آخر ، فاستخرجته بعد ستة أشهر ، فإذا هو كيوم وضعتُه ، غيرَ أذنه ، فجعلته في قبر على حدة » إنه الصدقُ في طلب الشهادة ، والصدقُ في أن يلقى عبدالله رضي الله عنه مولاه يوم الدين ، وليس شيء من أوضار المخالفة عن شرع الله يثقل كاهله عن دخول الجنة ، بعد الفوز بما يتفضل به المولى على الشهداء في سبيله من الخير الذي لا ينفَدُ وإكرامِهم بأن يكونوا أحياء عنده سبحانه يُرزقون .

والحق أن في سيرة هؤلاء البررة ، الذين حملوا عن رسول الله إلى الأمة دين الإسلام ؛ إيماناً وعلماً وعملاً وجهاداً وكانوا ـ كلٌ في موقعه ـ على خير ما يَكون الحب والطاعة للرسول عليه الصلاة والسلام .. الحق أن في سيرتهم عموماً ، وعملهم للآخرة ــ على وجه الخصوص ـ معالم مشرقة على طريق هذه الأمة ؛ فيها من الحياة ، وواقع الإنسان ـ الذي اتجه بصدق وجهة الإسلام ـ ما يعصم ـ بإذن الله ـ من مضلات الفتن والصوارف عن متابعة منهج الحق ، مهما كانت التبعات والأعباء ؛ لأن مَرضاة الله بحسبان ، ومثوبته جل شأنه في الآخرة بحسبان . له الحمد في الأولى والآخرة .

وصلاة الله وأزكى تسليماته ، على نبينا نبي الهدى والرحمة ، وعلى آله وصحابته ومن استقام على سنته واتبع هداه إلى يوم الدين .

أين عقبى من عقبى.. لا تستويان

كلما تفاقمت مصائب الأمة ، وتشعبت بها سبل الحياة ، ازدادت الحاجة إلى تحديد الارتباط بما تمليه سنن الله التي لا تتخلف ولا تتبدّل ، والانضباط بضوابط الكتاب والسنة ، على صعيد العلاقة الوثيقة بين طرائق الحياة وسلوك الفرد والجماعة في دار العاجلة ، وبين العاقبة المترتبة على ذلك يوم الوعيد ، يوم يوفّى العبادُ دينَهم الحقَّ ﴿ **ويعلمون أن الله هو الحق المبين** ﴾.

ولا يُعْوِزُكَ أن تجدَ في كتاب الله وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ، العديد من نصوص الترغيب بالخير وما يمت إليه بصلة ، وبيان ما ينبني عليه من سلامة العقبى وحسن المآب ، يوم يحشر الناس لرب العالمين ، والترهيب مما هو عكس ذلك ، والكشف عما ينبني عليه من سوء المصير ، وقباحة المنقلب والعياذ بالله .

ها نحن أولاء أمام واحد من النماذج التي تشرق بهذه الحقيقة ، حيث نصوص الكتاب وبيانها من النبي عليه الصلاة والسلام . قال الله تبارك وتعالى في سورة الرعد: ﴿**أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب**﴾ ثم أتى - جَلَّ ثناؤه ـ على تفصيل لأخلاق أولي الألباب فقال: ﴿**الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار**﴾ ثم بين تعالى ما هي عقبى الدار فقال سبحانه : ﴿**جناتُ عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ .

هكذا يدخل هؤلاء المكرَّمون الجنة ، وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ، ومن

ههنا للتهنئة بـدخول دار النعيم ، إنه لمشهـد يفرح قلب المؤمن ، ويعلي مـن همته للعمل الأخروي وفق تلكم الأخلاق التـي وُصف بها أولو الألباب . وعند دخولهم الجنـة تَفِد عليهـم الملائكـة يحيُّونهم مهنئين إيـاهم بما حصـل لهم مـن التقريـب والإنعـام ، والإقامـة في دار السـلام ، في جـوار الصديقين و الشهـداء ، والأنبيـاء والرسل الكرام .

قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أبو عبدالـرحمن قال : حدثني سعيد بن أبي أيوب قال : حدثنا معروف بن سويـد الحراني عن أبي عُشَّانَةَ المعافري عن عبدالله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هل تدرون أول من يـدخل الجنة من خلـق الله ؟ قالوا : الله ورسولـه أعلم . قال : أول من يـدخل الجنة من خلق الله: الفقراء المهاجرون الـذين تُسَدُّبهم الثغور ، وتُتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهـم ـ وحاجته في صـدره لا يستطيع لها قضاءً ـ فيقـول الله تعالى لمن يشاء مـن ملائكتـه : ائتوهـم فحيُّوهـم . فتقول الملائكـة : نحن سكـان سمائك وخيرتك مـن خلقك ، أفتـأمرنا أن نـأتي هؤلاء فنسلم عليهـم ؟ قال : إنهم كـانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، وتسدُّبهم الثغور وتُتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحـاجته في صدره ، فلا يستطيع لها قضـاء ـ قال : فتأتيهـم الملائكة عند ذلك، فيـدخلون عليهـم من كـل باب، ﴿سـلام عليكم بما صبرتـم فنعم عقبـى الدار﴾.

ورواه أبو القاسم الطبراني بسنـده عن أبي عُشَّانَةَ أنه سمع عبـدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قـال: « أول ثلة يدخلون الجنة فقـراء المهاجرين ، الـذين تُتَّقى بهم المكاره، و إذا أُمروا سمعوا وأطـاعوا ، و إن كانت لرجل منهـم حاجة إلى سلطان لم تُقض ، حتى يموت وهي في صدره، و إن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها، فيقول : أيـن عبادي الذين قاتلـوا في سبيلي ، وأوذوا في سبيلي ، وجاهدوا في سبيلي ؟ ادخلـوا الجنـة بغير عـذاب ولا حساب . وتـأتي الملائكـة فيسجـدون ويقولـون : ربنا نحـن نسبحك الليـل والنهار ، ونقـدس لك ، مـن هؤلاء الـذين

آثرتهم علينا ؟ فيقول الرب عز وجل : هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي ، وأوذوا في سبيلي : فتدخل عليهم الملائكة من كل باب : ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ .

ترى !! كم تكون أمتنا على الجادة اليوم ، إذا فقهت هذا البيان النبوي لكتاب الله في شأن أولئك البررة الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وحاولت ـ بكثير من العناية والجد ـ أن تأخذ التربيةُ على فقه هذه الحقائق مكانَها اللائق في بناء الفرد والجماعة ، والإعداد لمواجهة التحديات إعداداً متكاملاً ، يجمع بين العمل على عمارة الأرض بعلم وفهم للواقع ، وبين التوجه الصادق إلى الآخرة وطلب النجاة فيها ؟! إنها إن فعلت ذلك ، كان هذا التوجه عنوانَ استئناف لمسيرة السلف الصالح بُناةِ حضارة الاسلام ، الحضارةِ التِي تسعد الفرد في الدنيا والآخرة . ناهيك عن وضع حد لمرحلة القلق والاستخذاء أمام العدو الداخلي في أعماق النفس ، وأمام العدو الخارجي المهين .

ومن صور العطاء لهؤلاء الذين يقال لهم: ﴿ **سلام عليكم بما صبرتهم فنعم عقبى الدار**﴾ ما روى عبدالله بن المبارك عن بقية بن الوليد أنه قال: حدثنا أرطاة ابن المنذر قال : سمعت رجلاً من مشيخة الجند يقال له : « أبو الحجاج » يقول: جلست إلى أبي أمامة فقال : (إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم ، وعند طرف السماطين باب مبوَّب ، فيقبل الملك فيستأذن ، فيقول أقصى الخدم للذي يليه : « ملَك يستأذن » ويقول الذي يليه: «ملَك يستأذن » حتى يبلغ المؤمن فيقول : ائذنوا ، فيقول أقربهم إلى المؤمن : ائذنوا ، ويقول الذي يليه للذي يليه : ائذنوا ، حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب ، فيفتح له ، فيدخل ، فيسلم ثم ينصرف) رواه ابن جرير الطبري .

أما الظالمون الناقضون لعهد الله الضالون سواء السبيل: فمآلهم شر مآل ، وعاقبتهم على النقيض من عاقبة أولئك البررة الكرام ؛ ذلكم قوله عز وجل: ﴿**والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل**

ويفسـدون في الأرض أولئـك لهم اللعنة ولهم سـوء الـدار ﴾ أجل لهم بصنيعهـم السيء المرذول الإبعاد والطـرد عن رحمة الله تعالى ، ولهم سوء العـاقبة والمآل ، وإذا رأيت مشهد عذابهم الأليم يوم القيامة ، رأيت ما يخيف ويفزع أشد الفزع ، ويذكِّر بعِظم المسؤولية ووثيق العلاقة بين ما كانوا عليـه في الدنيا ، وبين ما آل إليه أمرهم في الآخرة ، يوم الوعيد ؛ إنهم الجاحدون المنافقون . قال أبو العالية رحمه الله في قوله تعالى : ﴿والذين ينقضون عهد الله ﴾ الآية : « هي سـت خصال في المنافقين : إذا كان فيهم الظهْرة على الناس، أظهروا هذه الخصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا ائتمنوا خانوا ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يـوصـل، وأفسدوا في الأرض ، وإذا كـانـت الظهْـرة عليهم ، أظهـروا الثـلاث خصـال : إذا حدثوا كـذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا ائتمنوا خانـوا ». وهذا من أبي العالية مأخوذ من بيان النبي ﷺ فيما بيَّن من شأن المنافقين وخصالهم .

سبحان الله أيـن عقبى هـؤلاء من عقبـى أولئك ﴿ تلك عقبـى الذيـن اتقوا وعقبى الكافرين النار ﴾. ألا إن أولي النهى عندما يتدبـرون هذه الأخبار الصادقة في كتاب الله الكريم والسنـة النبوية المطهرة ، يختارون ـ بلا ريـب ـ الطريق الأولى التي تحسـن معها العـاقبة ، ويبصرهم النـاس معها يوم الـدين ، وقـد ازدانت بهم مواكب النور المتلاحقة إلى خير مفاز .. إلى دار النعيم المقيم ، حيث العطاء الذي لا يُحَدّ وفضل الله الجوادِ الكريم الـذي لا تنفد خزائنه سبحانه وتعـالى . وذلك ما أخـذ به الـذيـن تربـوا في مـدرسـة النبوة أنفسهـم ، ودرج على ذلـك من تبعهـم بإحسان، فأوفوا بعهـد الله ، ولم تقعدهم مطامع الدنيا وزخارفهـا عن اللحاق أبداً بـركب الصـديقين والشهـداء والصالحين ؛وحسـن أولئـك رفيقاً . روى البخـاري ومسلم وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال : غاب عمي أنس بن النضر رضي الله عنه عن قتال بـدر فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتـال قاتلت المشركين ، لئن اللهُ أشهـدني قتـال المشركين لَيَرَيَنَّ الله مـا أصنـع ؛ فلما كـان يوم أحـد وانكشـف المسلمون ، قال : اللهم أعتـذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني أصحابـه ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنـي المشركين ـ ثم تقدم فاستقبله سعد بن معـاذ فقال : ياسعد

بنَ معاذ الجنة ورب الكعبة إني أجد ريحها من دون أحد . قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع . قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ، أورمية بسهم . وجدناه قد قتل ومثّل به المشركون ؛ فما عرفه إلا أخته ببنانه . قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً**﴾ .

أخبار القيامة، وما يتحقق فيها من موعود الكريم المنَّان سبحانه وتعالى عبادَه الطائعين المخبتين ،ومن وعيد ماتوعَّد به الصادِّين عن سبيله، والطغاة الظالمين .. هذه الأخبار عملت عملها، وما تزال، في نفوس السعداء الذين أهمهم أمر الآخرة، وأقض مضاجعهم خوف يوم الحساب ، فتراهم ـ أبداً ـ من خشية ربهم مشفقون ؛ وديدبهم مضاعفة العمل الصالح ، وكلِ ما يقربهم إلى الله زلفى، وينأى بهم عن مسلك من أضلّ الله وكانوا من الغافلين المفسدين . أقول هذا وبين يدي صفحات نيرات من سيرة التابعي الثقة العابد عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي أبي عبدالله الكوفي المتوفى سنة عشرين ومائتين . قال الإمام البخاري : سمع أبا هريرة وابن عمرو رضي الله عنهما ، وقال ابن حبان في « ثقات التابعين » : كان من عبَّاد أهل الكوفة وقرائهم . بلغ من إدراكه ـ رحمه الله ـ لأهمية ملء الوقت بالطاعة وتقوى الله ، ومن حسّه الإيماني بحقيقة أن الأجل آت لا ريب فيه ، وأن مقتضى ذلك عدمُ الركون إلى الأمل والاغترار بالدنيا .. بلغ من إدراكه المبصر وحسّه الإيماني المشرق لذلك كله أن يقول : (ما أحد يُنزل الموت حقَّ منزلته إلا عَدّ غداً ليس من أجله ، كم من مستقبلٍ يوماً لا يستكمله ، وراجٍ غداً لا يبلغه . لو تنظرون إلى الأجل ومسيرِه لأبغضتم الأمل وغروره) وفي رواية أخرى ـ كما نرى في الحلية لأبي نُعيم ـ (كم من مستقبل يوماً لا يستكمله ، ومنتظر غداً لا يبلغه ، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره).

والحق أن ما حملت الأخبار الصادقة إلى الأمة عن مشاهد القيامة وما يكون فيها ، جدير بأن يشد أزر المجتهدين في الطاعة ، والإكثار من عمل الصالحات والقربات ، وأن يوقظ الكسالى الذين يركنون إلى حطام العاجلة ، وينسون يوم الدين ؛ فإذا عقل المؤمن عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله عليه الصلاة والسلام ،

استقام له طريق النجاة بعون الله ، وبدا على سلوكه الأثر الواضح لانتفاعه بما ورد في شأن القيامة وما فيها من الأخبار ، ولقد ترك النبي ﷺ أمته على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها ؛ ويا بؤس من يعرض عنها ويقع فريسة للهوى والشيطان. ومن المعالم الخيِّرة في هذه البيضاء النقية ما جاء من التنبيه على وضع الأمور مواضعها، وعدم تقديم الحياة الدنيا الفانية ، على الحياة الآجلة الباقية. يقول ربنا جل شأنه : ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى** ﴾ تقدمونها على أمر الآخرة الذي فيه نفعكم وصلاحكم، في معاشكم هنا ، ومعادكم يوم الحساب .

والحقيقة التي لا ريب فيها ، أن ثواب الله في الدار الآخرة ، وما أعدّه لعباده المتقين من نعيم الجنة الذي لا يزول : خير وأبقى ، فالدنيا دانية فانية ، والآخرة شريفة باقية . والعاقل مستنير البصيرة : يؤثر ما يبقى على ما يفنى ، ويعطي العمل لدار البقاء والخلد ، ما يستحق من العناية والاهتمام .

هذا : وفي تصور صحيح هذه الحقيقة وإدراك لأبعادها ، يجد الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن عمله دون الذي يجب في هذا المضمار . روى الإمام أبو جعفر الطبري بسنده عن عرفجة الثقفي قال : « استقرأت ابن مسعود - أي طلبت منه أن يقرأ - ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ فلما بلغ : ﴿**بل تؤثرون الحياة الدنيا**﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه وقال : آثرنا الدنيا على الآخرة ؛ فسكت القوم ، فقال : آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها ، وزويت عنا الآخرة ، فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل» . قال الحافظ ابن كثير : وهذا منه - رضي الله عنه - على وجه التواضع والهضم ، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو ، والله أعلم .

ولا بدع أن يبلغ أبو عبدالرحمن بن مسعود هذا المبلغ العظيم تدبُّراً وتواضعاً - وهو من هو في علمه وصلته بالقرآن وهدي النبي عليه الصلاة والسلام - !! قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود الهاشمي قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر قال:

أخبرني عمرو بن أبي عمرو عن المطلب بـن عبدالله عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مـن أحب دنياه أضرّ بآخرته ، ومـن أحب آخرته أضرّ بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى » قال ابن كثير : تفرد به أحمد.

ومن الواضح البيِّن في هدي النبي عليـه الصلاة والسلام ، أنه ـ صـلوات الله وسلامه عليه ـ كان لا يَدَعُ أن يُحْكِمَ العلاقة بين شُعَب الحياة ومسالكها في الدنيا، وبين ما يكون مـن تحقق الوعد والـوعيد في الآخرة ، والكيِّس الفَطِـنُ من اتخذ من معيار الكتـاب والسنة، ثم فهوم أئمـة الهدى وسيرتهم في العمل ليوم المعـاد ، نوراً يضيء له الطريق ، فيؤثر ما يبقى على مـا يفنى ، ولا يدع أن يكون ـ في قوله وفعله وسائر تصرفاته ـ على الجادة التي أوضح معالمها سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليـم ؛ إنه إن فعـل ذلك ، كان بعـون الله وفضله مـن أهل النجـاة يوم الدين، والخطـوة بما أعد الله لعباده الصالحين . ها نحن أولاء نجـده ﷺ يجعل من حسن الخلق باباً عريضاً يحظى من يدخله بالدرجة العالية من القرب يوم القيامة ، وعلى العكس من ذلك يكون مصير المعرض عن هذا الباب،عافانا الله من ذلك .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قـال : « ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسـن ، وإن الله يُبغض الفاحش البذيء » . أخرجه الترمذي في « السنـن » وابن حبـان في صحيحه وقـال الترمذي : حـديث حسـن صحيح. وزاد في روايـة له « وإن صاحـب حسن الخلق ليبلـغ به درجة صـاحب الصوم والصلاة ». ورواه بهذه الزيادة البزار بإسنـاد جيد ولم يذكر فيه : «الفاحش البذيء ». ورواه أبو داود مختصراً ؛ قـال : « ما من شيء أثقل في الميـزان من حسن الخلق ». فمن شاء أن يحظى بهذا العطـاء يوم لايجد المرء إلا ما قدَّم ، وأن يكون في عداد من تزدان بهم مشاهد أهل النجاة من النار ، والفوز بالجنة : فليأخذ نفسه بما وجه إليـه نبينا المصطفـى عليه الصـلاة والسلام . عـن أبي هريـرة رضي الله قال : «سئل رسول الله ﷺ عـن أكثر ما يدخـل الناسَ الجنةَ ؟ فقال : تقـوى الله وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يُدخـل الناس النار؟ فقال: الفم والفرج». رواه الترمذي

في جامعه الصحيح «السنن» وابن حبان في صحيحه والبيهقي في كتاب «الزهد» وغيره وقال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب .

صلى الله على رسول الله ، كم تعمل تلكم البشائر والنذارات عملها في تربية الأمة وتقويم الأخلاق عند الفرد والجماعة ، أن لو استقامت الأمور، وظل الارتباط قائماً بين الأخلاق في الدنيا وبين ثمراتها وما يؤول إليه الأمر في الآخرة . وعن أنس رضي الله عنه عن رسول ﷺ قال : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، وشرف المنازل ، وإنه لضعيف العبادة وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم ». قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني ورواته ثقات سوى شيخه المقدام ابن داود وقد وثق .

وما أكرمه وأغلاه مشهداً : مشهد القرب من رسول الله ﷺ يوم القيامة ، لأولئك الذين هم أحاسن الناس أخلاقاً ، ومن أحب المؤمنين إليه عليه الصلاة والسلام . أخرج الإمام البخاري بسنده عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: «إن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ، وقال : إن من أحبكم إلي أحسنكم أخلاقاً » وروى الإمام الترمذي بسنده عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله رضي اللهعنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن من أحبكم إليَّ وأقربِكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً . وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون . قالوا : يارسول الله قد علمنا « الثرثارون والمتشدقون » فما المتفيقهون ؟ قال : المتكبرون ». قال : أبو عيسى : والثرثار : هو الكثير الكلام ، والمتشدق: الذي يتطاول على الناس في الكلام ويبذو عليهم . وفي رواية لأحمد في المسند وابن حبان في صحيحه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ألا أخبركم بأحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة ؟ فأعادها مرتين أو ثلاثاً قالوا : نعم يا رسول الله قال : أحسنكم خلقاً» . اللهم اجعلنا ممن يعلمون فيعملون ، وهب لنا أن نفوز يوم القيامة بالقرب من نبينا محمد عليه الصلاة والسلام يا سميع الدعاء .

عمل الجنة.. وعمل النار

الحزن والسهر

من مظاهر الانتفاع القلبي بما جاء عن الله تعالى وعن الرسول عليه الصلاة والسلام في شأن الآخرة، وما تزخر به المشاهد العظام التي تنطق بتوفية الله عباده دينهم الحق : أن يزداد المؤمن حرصاً على التقرب إلى الله تعالى بالعبادة والجهاد وصالح العمل ، مع إخلاص النية وصدق التوجه إليه سبحانه ؛ وتلك أمور تضيف إلى زيادة الإيمان ما تحدث ـ بفضل الله ـ من مضاعفة في رقة القلب ولطافة الشعور الأخروي ، والإحساس الصادق بما تعنيه أهوال يوم القيامة في تلكم الساعات العصيبات التي يتطلع فيها الخلائق إلى ما يكون إليه المآب ، وما يستقر عليه المصير . وعندما يتجه المؤمن هذه الوجهة المباركة ، يكون على النبع السلسبيل ــ إن شاء الله ــ من سنة النبي عليه الصلاة والسلام وسيرته الميمونة المشرقة بالخير والعطاء . وما أكثر ما يقع الناظر فيما كان عليه السلف الصالح رجالاً ونساءً ، من نماذج تنم عن حسن التأسي بالمصطفى صلوات الله وسلامه عليه ؛ حيث التوجه إلى الآخرة ، وإيثار الباقية على الفانية .

وهذه النماذج الكريمة أمانة في أعناق المسلمين بعامة ـ والعلماء منهم بخاصة ـ عليهم أن يحتذوها ـ وهم يحملون أمانة العلم والعمل في الأمة ، لما أنهم على إرث من إرث النبوة ، والمنهج الذي يحمل صاحبه ـ برحمة الله وعونه ـ إلى دار الخلد ، نقياً طاهراً في عداد البررة المتقين . وفي الجعبة اليوم مبتدأً هذه الكلمات شذرات يسيرة عن شيخ الإسلام ، إمام الحفاظ ، سيد العلماء العاملين الورعين والعباد الزاهدين في زمانه ، الذي حمله العمل بالعلم ، وخوف يوم الحساب، على أن يصدع بالحق ولا يخافَ في الله لومة لائم ، أبي عبدالله سفيان الثوري المتوفى سنة

ست وعشرين ومائة للهجـرة . جاء في « صفة الصفوة » للإمام أبي عبـدالرحمن بن الجوزي : عن أبي زيد محمد بن حسان قال : سمعت عبدالرحمن بن مهدي يقول : (ماعـاشرت في الناس رجلاً أرق من سفيـان ، وكنت أرمقه الليلة بعـد الليلة ، فما كان ينام إلا أول الليل ، ثم ينتفض فزعاً مرعوباً ينادي : النار !! شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات ، ثم يتوضأ ويقول على إثر وضوئه : اللهم إنك عالم بحاجتي غير مُعْلَم ، وما أطلب إلا فكاك رقبتي مـن النار ، إلهي إن الجزع قد أرقني ، وذلك من نعمـك السابغة علي ، إلهي لـو كان لي عـذر في التخلي ، ما أقمت مـع الناس طرفة عين . ثم يقبل على صلاته؛ وكان البكاء يمنعه من القراءة ، حتى إن كنت لا أستطيع سماع قراءته من كثرة بكائه ، ومـا كنت أقدر أن أنظر إليه استحياءً وهيبةً منـه).

إنها لنعمة سـابغة حقـاً ، أن تأخـذ أخبار يوم المعـاد مأخـذها مـن النفس ، وتعمل في القلب والعقل عملها ، وينعكس ذلك على العلاقة بين العبد وخالقه جل شـأنه ، فترى مـلء الوقـت بالعلـم والعمل ، وبـالعبادة الخاشعـة والخضوع الصادق بين يـدي الله عز وجل ، وتستشعر رقـة القلب التي يصحبها البكـاء من خشية الله ، والصـدق في المواطن ، والإحسـاس العميق بما يمكـن أن يكون عليـه الحال يوم الحشر الأكبر ، حتى كأن الجنة والنار أمام المؤمن ، يراهما رأي العين .

وقد ألمحت غير مرة إلى أن من رحمة الله بهذه الأمة ، ما نطق به الكتاب العزيز وبينته أحاديـث النبي عليه الصلاة والسـلام ، من الإيذان بتلك الأبـواب المفتحةِ من أبـواب الخير في الدنيا ، المؤذنـةِ بوصول مـن يلجها إلى شـاطىء السلامـة يوم الدين بفضـل الله أرحم الراحمين . ونحن اليـوم على موعد نتابـع معه الحديث عما تثمر محاسن الأخلاق لأصحابها من الخير في الدنيا والآخرة ؛ ها نحن أولاء نقرأ في سورة آل عمـران قول الله تعـالى : ﴿**وسارعـوا إلى مغفرة من ربكـم وجنة عـرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين**﴾ ثم جاءت الآيات على العـديد من صفات هؤلاء المتقين وأخلاقهم وختمت بتأكيد تلك البشارة العظيمة وهو قوله سبحانه:

﴿أولئك جـزاؤهم مغفـرة من ربهم وجنات تجري مـن تحتها الأنهار خـالديـن فيها ونعم أجر العاملين﴾ وذِكْرُ الجنة التي عرضها السماوات والأرض ، يذكرنا بطرف من بيان النبي ﷺ على هذه الساحة . قال الإمام البخاري : حدثنا يحيى بن صالح قال : حدثنا فُليـحٌ عن هلال بن علي عن عطاء بن يسـار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبـي ﷺ : « من آمن بالله وبرسوله وأقـام الصلاة وصام رمضان ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي وُلد فيها . فقالوا : يارسول الله ، أفلا نبشر الناس ؟ قال : إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجـاهـديـن في سبيل الله ، مـا بين الـدرجتين كما بين السماء والأرض ؛ فـإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ـ أُراه قال : وفوقه عرش الـرحمن ـ ومنـه يفجّر أنهار الجنـة » قال محمـد بـن فُليح عـن أبيه « وفـوقه عـرش الرحمن».

وأنـت واجد أن في قـول النبي ﷺ : « وجلـس في بيتـه » تأنيسـاً ـ كما يقـول الحافظ ابـن حجر ــ لمن حُرم الجهـاد ، وأنه ليـس محروماً مـن الأجر ، بـل له مـن الإيمان، والتزام الفرائض مـا يوصله إلى الجنة ، وإن قصّر عن درجة المجـاهدين . والـذي قـال: يارسـول الله أفـلا نبشر النـاس ؟ هـو معـاذ بن جبـل كما في روايـة الترمذي، أو أبو الدرداء كما وقع عند الطبراني ، وأصله في النسائي ؛ لكن قال فيه : «فقلنا » وقـال الطيبي في شرح قول النبـي ﷺ : « و إن في الجنة مائة درجـة » هذا الجواب من أسلوب الحكيم ، أي بشِّرهم بـدخول الجنة ، بما ذكر من الأعمال ، ولا تكتفِ بـذلك : بل بشِّرهم بـالدرجات، ولا تقتنع بـذلك : بل بشرهم بـالفردوس الذي هو أعلاها .

واستظهر الحافظ غير هذه الوجهة ، إذ قال بعد نقل كلام الطيبي : قلت : لو لم يرد الحديث إلا كما وقع هنا ، لكان ما قال متجهاً ، لكن وردت في الحديث زيادة دلت على أن قوله ﷺ : « في الجنة مائة درجة » تعليل لترك البشارة المذكورة ؛ فعند الترمذي من رواية معاذ المذكورة « قلت : يا رسول الله ألا أخبر الناس ؟ قال: ذر

الناس يعملون ، فإن في الجنة مائة درجة » فظهر أن المراد : «لا تبشِّر الناس بما ذكرتُه من دخول الجنة لمن آمن وعمل الأعمال المفروضة عليه ، فيقفوا عند ذلك ، ولا يتجاوزوه إلى ما هو أفضل منه ، من الدرجات التي تحصل بالجهاد». وهذه هي النكتة في قوله ﷺ : « أعدها الله للمجاهدين » وإذا تقرر هذا : كان فيه تعقب أيضاً على قول بعض شراح كتاب المصابيح : «سوّى النبي ﷺ بين الجهاد في سبيل الله ، وبين عدمه وهو الجلوس في الأرض التي وُلد المرء فيها» . ووجه التعقب: أن التسوية ليست على عمومها ، ولكنها في أصل دخول الجنة ، لا في تفاوت الدرجات كما تقرر والله أعلم.

والحديث المذكور رواه الإمام أحمد أيضاً ولكن بلفظ «هاجر في سبيل الله» بدل «جاهد» فقد أخرج في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان ، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة ، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها ، قالوا : يا رسول الله، أفلا نخبر الناس ؟ قال : إن في الجنة مائة درجة أعدها الله عز وجل للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ؛ فإذا سألتم الله عز وجل، فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة... » الحديث .

وطرق الجنة مفتحة ميسّرة لمن يسر الله سلوكها له ؛ ومن ذلك حسن الخلق ـ كما سبق ـ ، غير أن الأمر يحتاج إلى علو في الهمة، وصدق في العزيمة ؛ لأن الجنة ـ كما جاء في الحديث الصحيح ـ حفت بالمكاره ، كما حفت النار بالشهوات . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبدالله بن يزيد قال : حدثنا نوح بن جَعْونة السُّلَمي ، عن مقاتل بن حيان عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنظر معسراً أو وضع له ، وقاه الله من فيح جهنم ، ألا إن عمل الجنة حَزْنٌ بربوة ـ ثلاثاً ـ ألا إن عمل النار سهل بسهوة ، والسعيد من وُقي الفتن . وما من جُرعة أحب إلى الله من جُرعة غيظ يكظمها عبد ،ما كظمها عبدٌ لله إلا ملأ جوفه إيماناً » قال الحافظ ابن كثير : انفرد به أحمد ، إسناده حسن ليس فيه مجروح ، ومتنه حسن .

وتجدر الإشارة الى ما سبق من أن التوبة ليست على عمومها ،ولكنها في أصل دخول الجنة لا في تفاوت الدرجات .

الحزن : المكان الغليظ الخشن . والرّبوة بضم الراء وفتحها: ما ارتفع من الأرض . والسَّهوة : الأرض اللينة التربة . شبّه المعصية في سهولتها على مرتكبها بالأرض السهلة التي لا حُزونة فيها . وقد شبه الطاعة ـ من قبل ـ في صعوبتها على النفس بالمكان الغليظ الخشن في مرتفع من الأرض لابد من الصعود إليه . الجُرعة : بالضم : الاسم من الشرب اليسير . وبالفتح : المرة منه .

أحاسنُ المؤمنين أخلاقاً.. والقُرب العظيم

بصائر كتاب الله الكريم، وحديثِ المصطفى عليه الصلاة والسلام ، في شأن اليوم الآخر ، وما يشهد فيه العباد من مثوبة الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وعقاب الذين عموا وصمُّوا واتبعوا الأهواء والشهوات !! هذه البصائر المشرقة الهادية: أمانة ،لا يتخلف عن أداء حق الله فيها ، إلا ظالم لنفسه ، ضلّ سعيه وكان من الغافلين . ذلك لأن أداء حق الله في هذه الأمانة ، عنوان خيرية يقي صاحبه السوء في العاجلة ، ويبشر بالزيادة من فضل الله في دار القرار ، يومَ توفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون .

ومن هنا ،وجدنا أهل السعادة يشتد حرصهم على أن يكونوا على الجادة في أمر البشارة والنذارة ، والترغيب والترهيب ؛ فالبشارة لا تقعد الواحد منهم عن العمل ، بل تشد من أزره في الاستزادة من الخير الذي يضمن معه ــ بإذن الله ـ حسن العقبى، فكلما فرغ من عمل مبرور ، انصرف إلى عمل آخر ينصَب في تحقيقه، تقرباً إلى الله تعالى .ورسول الله أسوته في ذلك ﴿ **فإذا فرغتَ فانصَبْ وإلى ربك فارغب** ﴾ .

كما أن النذارة لا تيئسه ، بل تحرك كوامن الإيمان في قلبه ، فينصرف عن التهاون في عمل أهل الآخرة ، ويحاذر ـ قولاً وعملاً ـ أن يكون ممن يتَّبعون خطوات الشيطان ، وينقلبون على أعقابهم خاسرين . من هنا كان هذا الصنف المبارك من الناس شديد الانتفاع بما يرد من البشائر المرتبطة بإحسان العمل وسلامة السلوك، وبما يرد من النذارات المرتبطة بما هو عكس ذلك .

أقول هذاوأنا بسبيل النظر في نصوص نبوية كريمة أخرى تتعلق بالأخلاق وما إليها ، ترغيباً في محاسنها ، وترهيباً من مساوئها ، وتكشف عن آثار ذلك في

عقبى المؤمن يوم الدين .

فإذا كان في مشاهد القيامة ـ كما رأينا من قبل ـ مشهد أولئك الذين يبدون وهم أقرب الناس مجلساً من رسول الله ﷺ ، بسبب ما يتصفون به من مكارم الأخلاق ، فإن من تلك المشاهد ، مشهد أولئك الذين أبعدهم عن رسول الله ﷺ يوم الدين ، ما كانوا عليه في الدنيا من مساوىء الأخلاق ؛ والأخلاق في دين الإسلام: جوهرها وأساسها : انضباط السلوك بمعايير الكتاب والسنة ، يشهد لذلك ما ثبت في الحديث الصحيح من قول عائشة رضي الله عنها ــ وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ ــ: «كان خلقه القرآن» . وقد مر بنا فيما سبق من القول ، ما أخرج أحمد في المسند وابن حبان في صحيحه من رواية عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ، وما أخرج الترمذي من رواية جابر بن عبدالله رضي الله عنهما في شأن من يحملهم كريم الخلق إلى مكان الأقربية يوم القيامة من مجلس رسول الله ﷺ ، ومن تثقلهم مساوىء أخلاقهم، فيعاقبون بالإبعاد ـ والعياذ بالله ـ عن مجلسه صلوات الله وسلامه ، بل يكونون أبعد الناس منه وأنه ـ ﷺ ـ فسّر المتفيهق بالمتكبر . وهذه رواية أخرى لأحمد عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه يقول فيها : قال رسول الله ﷺ : « إن أحبّكم إليَّ وأقربكم مني في الآخرة أحاسنُكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني في الآخرة أسوأكم أخلاقاً : الثرثارون المتفيهقون المتشدقون » .

وقد أشرت من قريب إلى تفسير الترمذي لصفات أولئك الذين لم يذكرهم رسول الله ﷺ بخير ، بل أخبر عن سوء ما يكون من مشهدهم يوم الدين . ولمزيد من البيان أُورِدُ تفسير الحافظ المنذري حيث قال : الثرثار ــ بثاءين مثلثتين مفتوحتين ــ: هو الكثير الكلام تكلفاً ، والمتشدق : هو المتكلم بملء شدقه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه . والمتفيهق : أصله من الفهْق وهو الامتلاء ، وهو بمعنى التشدق ، لأنه الذي يملأ فمه بالكلام ، ويتوسع فيه إظهاراً لفصاحته وفضله، واستعلاءً على غيره ، ولهذا فسّره النبي ﷺ بالمتكبر .

هذا :وليس مـن مكرور القول التنبيه على أن الحريص على سلامـة عقباه يوم المعـاد، يكون أبـداً على حـذر من أن يقـع في شيء من مسـاخـط الله التي تـودي بصاحبها إلى سـوء المصير ، بل يكون على العكس من ذلـك : لا يدع أن ينظر فيما رغبَ فيه الشارع ، فيأتيَ به على خير وجـه وأكمله ، كي يجزى على صنيعه ـ بفضل الله ـ الجزاء الأوفى يوم الحساب . وموائد الخير والعطاء منصوبة، والعاقل من سعى للآخرة سعيها ، وأقبل على الله بعزيمة وصدق . قال الإمام الترمذي : حدثنا سلمة ابن شبيب قال : حـدثنا عبدالله بن إبراهيم الغِفاريُ المدنيُ قـال : حدثني أبي عن أبي بكر بن المنكدر عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاث من كنّ فيه نشر الله عليه كنفه وأدخله جنته ؛ رفقٌ بالضعيف ، وشفقة على الوالدين ، و إحسان إلى المملوك » قال : هذا حـديث حسن غريب ، وأبوبكر بنُ المنكدر هو أخو محمد بن المنكدر .

فمن الواضح ، أن اتصاف المسلم بتلك الخلال الثلاث التي سَداها ولُحمتها الـرفق بـالضعيف ، والشفقـة على الوالـدين ، والإحسـان إلى المملوك ، أضـاءت طـريقه إلى أن يكـون في كنف الله ورحمتـه يوم القيـامـة ، وأن يُدخلـه جنة الخلـد؛ فسبحان الكريم الوهاب .

قال صاحب « النهاية » في مادة « كنف » (وفيـه « يُدنى المؤمن من ربه حتى يضعَ عليـه كنفه» أي يستره وقيـل : يرحمه ويلطـف به : والكنَـف ـ بـالتحريـك ـ الجانب والناحية . وهذا تمثيل لجعله تحت ظل رحمته يوم القيامة . ومنه حديث أبي وائل « نَشَر الله كنَفَه على المسلم يـوم القيامة هكذا ، وتعطَّـف بيده وكمّه» . وجمع الكَنَفِ أكناف) . فهنيئـاً لمن يبدون ـ يوم العـرض الأكبر ـ وهم قِوام هـذا المشهد المشرق بفضل الله ورحمته ،جزاءَ ما كانوا عليه مـن حسن الخلق ، وفق ما وجّه إليه ورغب به رسول الله ﷺ .

والحق أن البشارة العظيمة التي أهداها النبـي ﷺ لأحاسن المؤمنين أخلاقاً ـ

وهي كونهم أحبَ الناس إليه وأقربهَم منه مجلساً يوم القيامة ـ تُسلم المرء إلى حيث يبصر في كل بشرى على حسن الخلق توكيداً لحقيقة تلك البشارة ، ويا فوز منْ يخالطون هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام مخالطة عمل وحسن امتثال، واستمساك بمحاسن الأخلاق التي دعا الأمة إليها ، ورغب في التخلق بها ؛ وهم واجدون ــ إن وفقوا لذلك ـ أنهم على حال يغبطون عليها ، يوم يقول رب العزة لجهنم: ﴿ **هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾.

وبعد : فهذه مكرمة يزجي النبي ﷺ البشارة بها لمن يكظم غيظه ــ وكظم الغيظ من مكارم الأخلاق ـ وهو قادر على أن ينفذه وينتصر ، نبصرها في مشهد من مشاهد القيامة يُدخل على قلب المؤمن من الأنس والفرح بفضل المولى عز وجل ما الله به عليم . أخرج الإمام أحمد في المسند عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من كظم غيظه ـ وهو يقدر على أن ينتصر ـ دعاه الله تبارك وتعالى على رؤوس الخلائق حتى يخيِّره في حور العين أيتَهن شاء . ومن ترك أن يلبس صالح الثياب ـ وهو قادر عليه ــ تواضعاً لله تبارك وتعالى، دعاه الله تبارك وتعالى على رؤوس الخلائق حتى يخيِّره الله تعالى في حلل الإيمان أيَّتهن شاء » وأخرجه أبو داود وابن ماجة والترمذي ولفظه « من كظم غيظاً وهو يقدر على أن يُنفِذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيِّره في أي الحور شاء » .

وكظم الغيظ : أن يكف المرء عن إمضائه والانتصار لنفسه ابتغاء وجه الله ، وهو قادر على ذلك . وإنما حُمد الكظمُ ــ كما يقول الإمام الطيبي ـ لأن فيه قهراً للنفس الأمارة بالسوء ، ولذلك مدح الله الكاظمين بقوله : ﴿**والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**﴾ فإذا تخلق المؤمن بهذا الخلق استحق تلك الكرامة يوم القيامة.. فدعاه الله على رؤوس الخلائق وخيّره في أي الحور شاء. وفي ذلك ما فيه من شهرة بين الناس ، والثناء عليه ، والمباهاة به في ذلك الموقف العظيم..

الظلم ظلماتٌ يوم القيامة

كان من وضع الأمور مواضعها في منهج النبي ﷺ ــ وهو يعلم الناس الكتاب والحكمة ويزكيهم ـ أن أعطى للكشف عن عاقبة كلٍ من الإحسان والإساءة في الدنيا ، يوم يحشر الناس لأحكم الحاكمين ، ما يستحقه من الأهمية ؛ وذلك على سنن الكتاب العزيز ، وكلما ازداد حرص الأمة على الاحتكام إلى ضوابط الشريعة المطهرة في الشؤون جميعها ، ظهرت أهمية الكشف المومى إليه في تقويم الاعوجاج عند الفرد والجماعة ، وشد الأمة إلى الصراط السوي ، لما أنها تكون بذلك قد جمعت الخير من أطرافه ؛ فهي تقوم بعمارة الأرض والإفادة من تسخير الله الكون للإنسان : علماً وعملاً وأخذاً بالأسباب ، وفي الوقت نفسه ، يكون التوجه الأخروي الذي يبدو من ثمراته ـ في إطار التكامل والنظرة الشاملة إلى العاجلة والآجلة ـ رسم المناهج التي تجعل المسلم، وهو يدير حركة الحياة ، لا ينسى الله واليوم الآخر ؛ فترى الحرص على الاستقامة ابتغاء مرضاة الله ، والدأب على فعل الطاعات ، والإكثار من القربات والجهاد في سبيل الله ؛ لما أن ذلك سبيل النجاة ــ بعون الله وفضله ـ يوم الدين زحزحةً عن نار السعير ، وتقلباً بنعمة الله وفضله في جنة عدن حيث العاقبة للتقوى .

ولننظر في شذرات من توجيهاته ﷺ المسلمين ، وهم يبنون الحياة الإسلامية، كيف وثق ﷺ علاقة الإحسان في الدنيا ، بمثوبته في الآخرة ، والإساءة في الدنيا، بعقوبتها هنالك ، وجلَّى ـ فداه أبي وأمي ـ قيمة المسؤولية والجزاء تجليةً تجعل أثر النظرة إلى العاقبة يوم المعاد ، ذات أثر فعال في توجيه شؤون الحياة على صعيد الفرد والجماعة والأمة . قال الإمام مسلم : حدثنا عبدالله بن مسلمة بن قعنبٍ قال: حدثنا داود ـ يعني ابن قيس ـ عن عبدالله بن مِقسم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا

الشحَّ فان الشح أهلك من كان قبلكم ؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » هكـذا يحذّر النبي عليه الصـلاة والسلام من أمـرين اثنين يبدو الـوقوع فيهما شراً مستطيراً في حياة الأمة؛ أما أحدهما : فهو الظلم، وأما الثاني: فهو الشح.

ولقد سلـك ﷺ في التوجيـه إلى الاحتراس من الـوقوع في الشـح ـ الـذي هو البخل الشديد مـع الحرص ، وهو ذو نسب إلى الظلم ـ مسلك النـذارة من الفتنة العمياء التي لفّت بظـلامها من وقعوا فيه ممن كان قبلنا مـن اليهود وغيرهم ، تلك الفتنة: هـي ما حملهـم عليه الشـح من سفـك دماء بعضهـم بعضاً ، واستحـلال بعضهم محارم بعـض ـ والعياذ بـالله ـ واحتمالُ أن الهلاك كائن في الآخـرة قائم ـ والله أعلم ـ ويحتمل أنه أصابهم ما أصابهم من الأذى في الدنيا ، والعذاب الأليم ينتظرهم في يوم المعاد .

وعلى هذا : فلسوف يكون من المشاهد المؤثرة حقاً يوم القيامة : مشهد أولئك الأشحّة ـ وقـد حكم عليهم بالهلاك في الآخرة مع مـاذاقوه من الويل في الـدنيا ـ. ولعل من الخير التذكير بما قـاله بعض العلماء بأن الشح أشد مـن البخل وأبلغ في المنع من البخل ، وقيل : هو البخل الشـديد مع الحرص . وقيل : البخل يكون في أفراد الأمور ، والشحُّ عام . وهنالك من يقول بأن الشح هو الحرص . وهنالك من يقول بأن الشـح هو الحرص على ما ليس عنده ، والبخـل بما عنده ، والمعنى المراد من مجموع الأقوال واضح كل الوضوح ، وتجاوز الحق فيه إلى الباطل أوضح .

أما عن الأمر الأول ـ وهو الظلم ـ فـاتجه الهدي النبوي في التحذير من الوقوع فيـه إلى التذكير بسـوء العـاقبة وشـدة ظـلامها في ذلـك اليـوم العصيب. « اتقـوا الظلـم»: اجعلـوا بينكـم وبين الظلـم وقايـة مـن تقـوى الله وتحكيـم شرع الله في أنفسكم وفيمن ولاكم الله أمرهم ، لأن الظلم ظلمات على صاحبه يوم المعاد ، فهو لا يهتـدي في تلكم السـاعات العصيبـات ، يوم يفـر المرء من أخيـه وأمه وأبيـه ، سبيـلاً ، وتراه وقـد تسربل ثـوب المهانـة في جهنم ، وأي ظلمات أشـد من تلـك

الظلمات التي أخبر عنهـا القرآن الكريم مثـل قوله جـل وعلا : ﴿ **ولا تحسبنَّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لـدى الحناجر كـاظمين ما للظـالمين من حميم ولا شفيـع يطاع** ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ **ترى الظالمين مشفقين مما كسبـوا وهو واقع بهم ..** ﴾ . هنالك يفتضح الظلمة وأعوانهم وتشهد الخلائق تلك الظلمات ، ويعلـم الجميع أن ذلك المشهد المظلم المروِّع الذي آلت إليه حال الظـالمين ، ناطق على رؤوس الأشهاد ـ بضلال ما كانوا عليه في الدنيا ؛ من ظلم أنفسهم وظلم عباد الله ..

على أن الصورة التي تعنيهـا كلمة «ظلمات» في الحديث ـ وهي نكـرة ـ تبدو أوسع مـدلولاً ممـا يمكن أن تصـل إليه قـدرتنا في تحديـد مداهـا واتساع دائرتها ، وذلك متسـق تمام الاتساق ، مع الـذي تدل عليه نصوص القـرآن الكريم ـ وهي كثيرة وفيرة ـ في بيان عاقبـة الظلم والظالمين والترهيب الشديد مـن ذلك .. وذلك من بلاغة النبـي ﷺ ـ وقد أوتي جوامع الكلم واؤتمن على بيـان كتاب الله المعجز ـ «الظلم ظلمات يوم القيـامة » يذهب الـذهن في تبين ذلك كلَّ مـذهـب ، وينقلب خاسئاً كليلاً لم يحط بأبعادها والصـور التي تعنيها وتشملها . وذلك ما يبعث على الخوف الشديد الشديد من مغبَّة تلك الصفة الأثيمة يوم القيامة ، ويعمل عمله في إبعاد المؤمن عن الوقـوع فيها أو في أسبابها وكل ما هو منها بسبيل ، أيـاً كان موقع هذا المؤمن في المجتمع والأمة !!.

ودائرة السَّوْء هـذه التي تغمر بظلماتها مشهـد الظالمين ظـاهراً وباطنـاً في يوم تشخص فيـه الأبصار ، يُـرى معها وعلى التقـابل ، مشهـد المؤمنين الذيـن عملوا الصـالحات في الدنيـا ، ولم يتمرغـوا في حمأة الظلم والاعتـداء على حقوق الإنسـان المكرّم عند الله ؛ تشهدهـم الخلائق ونورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، ورحمة الله قـد نشرت عليهم ، والجنـة أزلفت لَهُمْ جـزاء مـا أسلفوا مـن خير ؛ وهل تستـوي الظلمات والنور ؟؟

هذا : وفي « كتاب المظالم » من الجامع الصحيح للإمام البخاري نقع على قوله رحمه الله «باب الظلم ظلمات يوم القيامة » حدثنا أحمد بن يونس قال : حدثنا عبدالعزيز الماجِشون قال : أخبرنا عبدالله بن دينار عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « الظلم ظلمات يوم القيامة » وأخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر . ورواه أحمد في المسند بلفظ «أيها الناس اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » وله في رواية أخرى « يا أيها الناس إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » وبهذا اللفظ أخرجه الدارمي. وأخرجه البيهقي في « الشعب » من هذا الوجه وزاد فيه : قال محارب : « أظلم الناس من ظَلَم لغيره » فياويح أعوان الظلمة ، وياويلهم من يوم كان شره مستطيراً . قال الإمام ابن الجوزي : « الظلم يشتمل على معصيتين : أخذ ماللغير بغير حق ، ومبارزة الرب بالمخالفة ، والمعصية فيه ـ أي في الظلم ـ أشد من غيرها؛ لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار . وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب ، لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر . فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى ، اكتنفت ظلمات الظلم الظالمَ حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً » .

وإذا كان الأمر كذلك ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، ولا تنفع الظالمين معذرتهم ولاهم يستعتَبون ، فلا بدع أن نرى سادة أولي النهى، لا يلهيهم زخرف الدنيا ومتاعها عن الحق ، ولا ينسيهم السلطان فيها مهما كان شأن ذلك السلطان ماهم صائرون إليه يوم الدين . أخرج أبونعيم في الحلية عن ميمون بن مِهران قال : «خرجت مع عمر بن عبدالعزيز إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور بكى ، ثم أقبل عليَّ فقال : يا أبا أيوب هذه قبور آبائي بني أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد حَلَّت بهم المُثلات ، واستحكم فيهم البلاء وأصابت الهوام في أبدانهم مقيلاً . ثم بكى حتى غشي عليه ، ثم أفاق فقال : انطلق بنا ، فو الله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور ، وقد أمن من

عذاب الله » .

أما ميمـون بن مِهران : فهـو ثقة فقيـه ولي الجزيرة لعمر رحمه الله وتـوفي سنة ١١٧هـ .

« المثـلات » جمعٌ مفرده مُثْلَـه . قـال الـراغب الأصفهـاني في « المفـردات »: (والمُـثْلةُ: نِقمـة تنزل بالإنسـان ، فيجعل مثالاً يرتـدع به غيره ، وذلك كـالنكال ، وجمعه مُثُلات و مَثُلات) وفي سورة الرعد/ ٦ ﴿ من قبلهم المثُلات ﴾.

اتقِ دعوة المظلوم!!

دخلت النار بظلم هرة

الحديث موصول برحلتنا مع بعض النصوص، التي نسعد باستجلاء ما تكشف عنه من وثيق الارتباط بين مشهد من مشاهد القيامة ـ ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ ـ وبين ما كان عليه أمر الذين يضمهم هذا المشهد من إحسان ،أو إساءة في الدنيا دار الفناء. والعهد قريب بوقفة مع عدد من الروايات لحديث التنفير من الظلم ، والوعيد عليه، ووجوب الاحتراس منه ؛ وكان من تلك الروايات قول النبي ﷺ كما في رواية البخاري « الظلم ظلمات يوم القيامة» وجاءت بعض الروايات عند أحمد بلفظ « يا أيها الناس إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » ولمسلم « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ».

ومما يزيد الأمر تأكيداً ويدل على حرص النبي ﷺ تجنيب المسلم، أن يكون واحداً ممن يلفهم مشهد الظلمات التي تحيق بالظالمين يوم القيامة ، وتعوق سبيلهم عن دخول جنة الخلد : ما نبّه عليه ﷺ من اتقاء دعوة المظلوم ؛ لأنه ليس بينها وبين الله حجاب ؛ فإذا وقع الظلم على إنسان ودعا على ذلك الظالم ، استجيبت دعوته وحلّت بظالمه النقمة في ساعات عصيبات يوم القيامة ، يكون المرء فيها أحوج ما يكون إلى شُعاع من الأمل ، يستشعر من خلاله أنه من الناجين من عذاب السعير ، ناهيك عن افتضاحه على رؤوس الخلائق أجمعين .

أخرج البخاري بسنده في كتاب المظالم من الجامع الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما «أن النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال : اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب». وجاءت الرواية أكثر تفصيلاً في كتاب الزكاة من الجامع من رواية ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى

اليمن : «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » وعند مسلم « فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » وأخرجه أبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد واللفظ عنده « واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله عز وجل حجاب » .

قال صاحب الفتح رحمه الله في شرح « اتق دعوة المظلوم » : (أي تجنب الظلم لئلا يدعو عليك المظلوم ، وفيه تنبيه على المنع من جميع أنواع الظلم . والنكتة في ذكره عقب المنع من أخذ الكرائم في قوله : «وإياك وكرائم أموالهم» الإشارة إلى أن أخذها ظلم) . ثم نقل عن بعضهم قوله : (عَطف «واتق» على عامل «إياك» المحذوف وجوباً ؛ فالتقدير : اتق نفسك أن تتعرض للكرائم ، وأشار بالعطف إلى أن أخذ الكرائم ظلم ، ولكنه عمَّم إشارة إلى التحرز عن الظلم مطلقاً).

والمؤمن الذي يخاف الله واليوم الآخر ، ويحذر من الوقوع فيما تسوء عقباه يوم المعاد ، يستوقفه أكثر وأكثر قول النبي ﷺ « فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» فهي ليس لها صارف يصرفها ولا مانع . والمراد ـ كما يقول العلماء ـ أنها مقبولة وإن كان عاصياً ، كما جاء في حديث أبي هريرة عند أحمد مرفوعاً « دعوة المظلوم مستجابة ، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه » وإسناده حسن وقال الطيبي : قوله: « اتق دعوة المظلوم » (تذييل : لاشتماله على الظلم الخاص من أخذ الكرائم ، وعلى غيره). وقوله : « فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » (تعليل للاتقاء ، وتمثيل للدعاء كمن يقصد دار السلطان متظلماً فلا يحجب) ولله جلّ شأنه المثل الأعلى .

ولا عجب في هذا: فالله تبارك وتعالى كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم وأحمد وغيرهما قد حرّم الظلم على نفسه وجعله بين الناس محرماً ونهاهم عن التظالم « ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا » بل إن الظلم منهي عنه حتى للعجماوات التي لا تعقل. ولسوف تشهد الخلائق يوم الحساب امرأة دخلت النار بظلمها لهرة ، إذ أنها حبستها حتى ماتت جوعاً ؛ فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض . وهو مشهد ذو دلالة عميقة وأثر بالغ في قلب المؤمن وعقله ؛ لما يدل عليه من شناعة الظلم التي ينطق بها ، وكيف أن الظلم يكون طريق المكلَّف إلى جهنم ــ ولو كان لمخلوق غير الإنسان ـ فما بالك بظلم الإنسان ، واغتصاب حقوقه ، وانتهاك حرماته !! وكلما اتسعت ساحة الظلم كماً وكيفاً ، تفاقم الخطب يوم القيامة ، وتراكمت الظلمات التي أعقبها ذلك الظلم ، وكان من وراء ذلك سوء المنقلب وعذاب الجحيم؛ ناهيك عن الافتضاح على رؤوس الأشهاد ، وما يتسربل به الظالم من ألوان المؤاخذة والضيق والاضطراب في نفسه ومشاعره ، ساعة يعضُّ على يديه نادماً ولات ساعة مندم !!!

أخرج البخاري بسنده عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « دخلت النار امرأة في هرة ربطتها فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » قال : وحدثنا عبيد الله عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ مثله . وله في رواية أخرى « عُذبت امرأة في هرة ربطتها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » وقد مر بنا من قبل أن النبيَّ ﷺ أُرِيَها تتقلب في الحجيم .

خَشاش الأرض : هوامُّ الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها. وظاهر هذا الحديث ـ كما يقول العلماء ـ أن المرأة عذبت بسبب قتل هذه الهرة بالحبس . وقال القاضي عياض : (يحتمل أن تكون المرأة كافرة فعذبت بالنار حقيقة أو بالحساب ؛ لأن من نوقش الحساب عذب . ثم يحتمل أن تكون المرأة كافرة فعذبت بكفرها وزيدت عذاباً بسبب ذلك ، أو مسلمة وعذبت بسبب ذلك) . قال النووي : (الذي يظهر أنها كانت مسلمة وإنما دخلت النار بهذه المعصية) يعني ظلم تلك

المخلوقة التي هي الهرة .

وأخرج الحديث أحمد وابن ماجة. وله عدة روايات عند مسلم ؛ جاء في إحداها قول رسول الله ﷺ : « عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار ، لا هي أطعمتها وسقتها ـ إذ هي حبستها ـ ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض» . وقال الإمام مسلم : حدثنا محمد بن رافع قال : حدثنا عبدالرزاق قال : حدثنا مَعْمَرٌ عن همّام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ . فذكر أحاديث منها : وقال رسول الله ﷺ : « دخلت امرأة النار من جرّاء هِرّة لها أو هرٍ ؛ ربطتها ، فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها ترمرم من خشاش الأرض حتى ماتت هزلاً » .

وقوله ﷺ . (تُرَمْرِم) هكذا هو في أكثر النسخ ـ كما يقول الإمام النووي ـ وفي بعضها تُرَمّمُ ، وفي بعضها : تَرَمَّمُ أي تتناول ذلك بشفيتها . وقوله . «من جراء هرة » أي من أجلها ، يُمَدُّ ويقصر ، يقال : من جرّائك ومن جَرّاكَ وجريرك وأجلك بمعنى واحد .

وسبحان من لا يضيع عنده عمل عامل ، ولو كان ذلك العمل مثقال ذرة **﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرةٍ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾** في مقابل المشهد الذي ندندن حوله ـ وهو جدٌّ واضح في عقبى الظلم في الآخرة ولو كان للحيوان ـ يطالعنا قبس من الهدي النبوي في شأن رحمة البهائم . روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها ، فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفمه حتى رقيَ ، فسقى الكلبَ، فشكر الله له ، فغفر له . قالوا : يا رسول الله وإن لنا في هذه البهائم لأجراً ؟ فقال : في كل كبدٍ رطبةٍ أجر » .

سمي الحي ذا كبد رطبة لأن الميت يجف جسمه وكبده .

وصلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة ، وردّ الأمة إلى هديه المبارك الميمون رداً جميلاً ، ولله الأمر من قبلُ ومن بعد ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

إن عذابها كان غراماً...

من الحقائق التي لا يتمارى بها مؤمن ، وجـوب أن يظلّ المرء على ذكر من يوم المعاد، وما يكون فيه ، وأن يكن لديه مع رجاء النجاة والفوز بجنة الخلد ، الخوفُ من أن يُلقـى يوم الحشر في العذاب المهين ، لـذا تراه يُسهر ليلـه ويظمىء نهاره في طاعة الله ، وفي الوقت نفسه ، يتضرع إلى مـولاه أن يجيره من عذاب النار ، ويحفظه من سوء المصير ؛ فلا يكـون في عداد من تقشعر لمشهدهم الأبدان ــ وهم يساقون إلى جهنم ورداً ـ حتـى إذا ألقوا فيها لم يكن لهم طعام إلا مـن ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع .

ولقد وجّـه النبي ﷺ الأمة من خـلال الوقائع هـذه الوجهة المباركـة، وسلك بالمسلمين سبيل النجاة يـوم الدين . وطوبى لمن استنارت منهـم البصائر فاهتدوا بهدي المصطفى عليه الصـلاة والسلام وكانوا من المحسنين . قـال الإمام مسلم : حـدثنا إسحـاق بن إبـراهيـم الحنظلي وحجَّاج بـن الشـاعر ــ واللفظ لحجـاج ـ (إسحاق : أخبرنا ، وقـال حجّاج : حدثنا) عبـدالرزاق قال: أخبرنا الثـوريُّ عن علقمة بنِ مَرْثَدٍ عن المغيرة بن عبدالله اليشكـري عن معرور بن سويد عن عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه قـال : « قالت أم حبيبة : اللهم متعني بـزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان ، وبـأخي معاوية ، فقال لها رسول الله ﷺ : إنـك سألت الله لآجال مضروبة ، وآثـار موطوءة ، وأرزاق مقسومـة ، لا يعجِّل شيئاً منها قبـل حِلِّه ولا يؤخر شيئاً بعد حِلِّه ، ولو سألـت الله أن يعافيك من عذابٍ في النار ، وعذابٍ في القبر ، لكان خيراً لك». وأخرجه أحمد في المسند يقال : حلَّ الأجل حَلاً وحِلاً .

وهذا وأمثالـه من النبي ﷺ : لون مبـارك من ألوان البيان لما جـاء في الكتاب الكريم حول هذا الأمر الجلل . من ذلك ما جاء من الدعاء على لسان عباد الرحمن

من قول الله تبارك وتعالى في سورة الفرقان ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً . إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ الغرام : ما كان لازماً ، يقال : فلان مغرم بكذا أي لازم له مولع به . وقيل : الغرام أشد العذاب . وكثيراً ما كان رسول الله ﷺ يتعوذ من النار ، ويعلـم أصحابه ذلك . روى أبو داود في سننه بسنده عن عمـرو بن شعيب عن أبيه قـال : « طفت، مع عبدالله ـ يعنـي أباه ـ فلما جئنا دُبُـرَ الكعبة قلـت : ألا تتعوذ ؟ قال : نعـوذ بالله من النـار ، ثم مضـى حتى استلم الحجر ، فـأقام بين الركن والبـاب ، فوضع صدره ووجهـه ، وذراعيه وكفيه هكذا ـ وبسطهما بسطـاً ـ ثم قال : هكذا رأيت رسـول الله ﷺ يفعله » ورواه ابن ماجة ووقع عنده :عن أبيه عن جده ؛ فيكون شعيبٌ ومحمدٌ طافا جميعاً مع عبدالله. وجاء في هذه الرواية : « .. فلما فرغنا مـن السبع ركعنا في دبر الكعبة ، فقلت : ألا تتعوذ بالله من النار ؟ قال : أعوذ بالله من النـار » قال : ثم مضى فاستلم الركن ، ثم قام بين الحِجْر والباب ، وألصق صدره ويديه وخدّه إليه ثم قال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ يفعل » .

جزى الله نبيَّناً محمداً ﷺ ما هو أهله ، ورفع مقامه في الآخرين ، وآتاه الوسيلة والفضيلة ،وبعثـه المقام المحمـود ، على ما علّم وبيّن ؛ ومـن ذلك تعليمـه الناس بالقـول والفعل أن يتعوذوا من النـار . روى الإمام أحمد في المسند عن ابـن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الـدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن : «اللهـم إني أعوذ بـك من عـذاب جهنم ، وأعـوذ بك مـن عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجـال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » . وكيف لا يتعوذ المؤمـن من النـار ومن عذاب النـار ، وهي على مـا هي عليـه كما جاءت نصوص الكتـاب والسنة في شـأنها ، وفي أحوال أهلها ومـا ينزل بهم مـن الأهوال الشداد !! قال الإمـام الترمذي : حدثنا سـويد قال : أخبرنا عبـدالله قال : أخبرنا سعيد بن يزيد عن أبي السمح عن ابـن حجيرة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما

في جوفه حتى يمرق من قدميه ـ وهـو الصهر ـ ثم يعاد كما كان » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب . وسعيد بن يزيد يكنى أبا شجاع مصريٌ روى عنه الليـث بن سعد . وابـن حجيرة هو عبـدالرحمن بن حجيرة المصريُ. وأخـرجه الإمام أحمد في المسنـد من روايـة أبي هريرة أيضـاً ولفظه « إن الحميـم ليصبُّ على رؤوسهم ، فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسْلُت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه » . وفي كتاب الله بعد أن تحدثت الآيات في سورة الصافّات عن المؤمنين وما لهم يوم القيامة من كريم المثوبـة وجزيل العطاء قال ربنا جل جلاله : ﴿**أذلك خير نُزُلاً أم شَجَـرَةُ الزَّقّوم . إنّا جعلنـاها فتنةً للظالمين . إنها شجـرةٌ تخرج في أصل الجحيم . طَلَعُها كأنه رؤوسُ الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطونَ. ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم**﴾ .

فالله تعـالى يذكر أن أهـل النار يأكلـون من هـذه الشجرة التي لا أقبـحَ من منظرهـا، ولا أبشعَ منها ، ناهيـك عما هي عليه مـن سوء الطعم والريـح والطبع ، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها ، لأنهم ـ على شدة ما يعانون من الجوع ـ لا يجدون إلا إياها ، وما هو في معناها ، كما قال سبحانه : ﴿ **ليس لهم طعام إلا من ضريع . لا يسمن ولا يغني من جوع** ﴾ . روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقـال : « اتقوا الله حقَّ تقاته ، فلو أن قطرة من الـزقوم قطرت في بحـار الدنيا لأفسـدت على أهل الأرض معايشهـم ؛ فكيف بمن يكون طعامَـه » ، وليس الزقوم فحسب ، ولكنه يمـزج بالحميم أيضاً ﴿**ثم إن لهم عليها لشوبـاً من حميم** ﴾ وأخرج الحديث الترمـذي والنسائي وابن ماجـة من حديث شعبة ولفظ الترمذي « قرأ رسول الله ﷺ ﴿**اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾ قال رسول الله ﷺ : لـو أن قطرة من الزقوم قُطـرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح . وعند البغوي في « شرح السنة» « فلو أن قطرة من الزقوم قطرت على الأرض لأمرّت على أهل الدنيا معيشتهم ، وكيف بمن هو طعامه ، وليس لهم طعام غيره!!» وعند

تفسير قوله تعالى في سورة الدخان : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم.. ﴾ الآيات، ونقل شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري ذلك عن مجاهد أيضاً.

ولقد كان من آثار التصديق بذلك ، ومخافة السلف الصالح أن يكون الواحد منهم في عداد الآثمين أهل هذه العقوبة ـ والمعاذ الله ـ أن عملوا ـ مع أخذ النفس بعمل الصالحات والإكثار من القربات ـ على توجيه من ولاَّهم الله أمرهم هذه الوجهة ، وأن يسألوا ربهم الجنة ويتعوَّذوا به من النار . أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي نَعامة «أن عبدالله بنَ مغَفَّلٍ رضي الله عنه سمع ابناً له يقول : اللهم إني أسألك الفردوس وكذا ، وأسألك كذا ؛ فقال : أي بنيَّ سل الله الجنة وتعوذ به من النار؛ فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول : يكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الدعاء والطَّهور » ورواه ابن ماجة مقتصراً على الدعاء . وأخرجه أبو داود من رواية أبي نَعامة أيضاً « أن عبدالله بن مغفَّلٍ رضي الله عنه سمع ابنه يقول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها ، فقال : أي بنيَّ سل الله الجنة وتعوذ به من النار ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطَّهور والدعاء » .

من هنا ، كان الذين يغبطون حقاً : هم أولئك الفطناء في كل عصر ، الذين جعلوا همَّهم سلامة العاقبة يوم المعاد ، ولم يدعوا أبداً أن يزِنوا تصرفاتهم بهذا الميزان الدقيق. من هؤلاء السعداء الإمام أبو إسحاق الشيرازي العالم العامل صاحب التصانيف والمتوفى سنة ٤٧٦ هـ جاء في «طبقات الشافعية الكبرى »لتاج الدين السبكي: (لما توفي قاضي القضاة أبو عبدالله الحسين بن جعفر بن ماكولا ببغداد أكره القائم بأمر الله الشيخ الإمام أبا إسحاق على أن يتقلد له النظر في الأحكام والمظالم شرقاً وغرباً ، فامتنع ، فوكّل به ، فكتب إليه «ألم يكفك أن هلكتَ حتى تهلكني معك » فبكى القائم بأمر الله وقال : هكذا فليكن العلماء . إنما أردنا أن يقال : إنه كان في عصرنا من وكِّلَ به وأكره على القضاء فامتنع وقد أعفيناه ..)

رحـم الله العالم الـربـاني أبا إسحـاق الشيرازي ، وأكثـر في الأمة مـن العلماء العاملين النُّصحاء الذين لا يتبدّلون الـدنيا بالآخرة ، ولا يخافون في الله لومة لائم، وأولئك هم أولو الألباب .

تجارة تنجي من العذاب الأليم

مـن رحمة الله بهذه الأمـة، مــا هيّـأ لها مـن نصَحـة لا يحيــدون في نصحهـم وتذكيرهم عن المنهـل العذب الـذي خلّفه سيـد الرحماء رسـول الله عليه الصـلاة والسلام . ومن أبرز مظاهر النصح في حياة هـؤلاء: تذكيرهم الناس باليوم الآخر ، وتحذيرهم من الغفلة عن المسؤولية يوم الحساب ، الأمر الذي يثير مشاعر التقوى ، ويحرك القلوب، ويوقظ من طائف النسيان والشيطان .. ولا تسل عن آثار ذلك في حياة مـن يستمعون القول فيتبعون أحسنـه ، في العاجل والآجل ؛ فترى الـوقوف عند حدود الله في الدنيا ، والفوز بعظيم الأجر والمثوبة يوم الحساب . ونعمت عاقبة المؤمنين الذيـن يعملون الصـالحات ، وينتفعون بما يـذكِّرهـم بالله واليـوم الآخر ، فيشمِّرون عـن ساعد الجد لمضـاعفة العمل الصالـح وتنقيته من الشـوائب ابتغاء مرضاة الله، ويحظون يوم الحشر بما يفرح قلـوبهم وينسيهم هموم الدنيا وأوضارها .. أجل يحظون بما يؤتيهم الله من فضله، من الفوز بالجنة والنجاة من عذاب السعير .

قـال : ابن أبي حـاتم: حـدثنا علي بـن الحسين قـال : حدثنـا علي بن محمـد الطنافسي قال : حدثنـا إسحاق بن سليمان ـ شيخ من أهل العراق ـ قال : أنبأنا شعيب بـن صفوان عـن رجل من آل سعيـد بن العاص قـال : « كان آخـر خطبة خطبها عمـر بن عبدالعزيـز رحمه الله وأعلى منزلته في الآخريـن : أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد : فإنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله ، وحُرم جنةً عرضها السماوات والأرض ، أفلا تعلمون أنه لا يأمن غداً إلا من حذِر هذا اليوم وخـافه وباع نافِداً ببـاق ، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمـان !! ألا ترون أنكم مـن أصـلاب الهالكين !! وسيكـون مَـن بعـدَكـم البـاقين ، حتـى تـردوا إلى خير الوارثين، ثم إنكـم في كل يوم تشيّعون غـادياً ورائحاً إلى الله عز وجـل ، قد قضى

نحبه وانقضى أجله ، حتى تغيّبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير ممهَّد ولا موسَّد ، قد فارق الأحباب وباشر التراب ، وواجه الحساب ، مرتهن بعمله ، غنيٌّ عما ترك ، فقيرٌ إلى ما قدّم ، فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواثيقه ونزول الموت بكم . ثم جعل ـ رحمه الله ـ طرف ردائه على وجهه ، فبكى وأبكى من حوله » .

والنسبُ الواضح بين هذا الكلام ، وبين معدن النبوة من هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام بيّنٌ لاشية فيه ؛ فكم حذّر رسول الله ﷺ الغافلين وأنذر ، وكم رغّب أمته في العمل لما بعد الموت ، ورهّب من الغفلة عن يوم يصدر الناس فيه أشتاتاً ليُروا أعمالهم، وترى العدل الإلهي منصوب الأعلام ؛ ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ . أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن صفوان عن أيفعَ بن عبد الكَلاعي أنه سمعه يخطب الناس فقال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال : يا أهل الجنة كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قال : لنعم ما اتّجرتم في يوم أو بعض يوم ! رحمتي ورضواني وجنتي ، امكثوا فيها خالدين مخلدين . ثم يقول : يا أهل النار ، كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم . فيقول : بئس ما اتّجرتم في يوم أو بعض يوم ! ناري وسخطي ، امكثوا فيها خالدين مخلدين ». وما من ريب في أن وسيلة المؤمن ـ مستعينا بالله ـ إلى الربح العظيم يوم الدين : رحمته وجنته ورضوانه : تقوى الله في السر والعلن ، وخشيتُه سبحانه بالغيب في استقامة وإخلاص يباعدان بينه وبين الغفلة والغافلين ... إنه إن أخذ نفسه بهذا : كان ـ بفضل الله وعونه ـ من الناجين من عذاب الله الأليم، الفائزين بما أعدّ لأوليائه الصالحين المتقين .

وفي كتاب الله تعالى واحدة من حقائق كثيرة تأخذ بيد المؤمنين إلى ذلك الأفق الرحب يوم تأزف الآزفة ، فينالون مع المغفرة والرحمة والنصر على الأعداء ، جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين . ذلكم قول الله جل شأنه في سورة الصف : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب**

أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ فيا نعم ذلك المشهد العظيم يوم القيامة ، مشهد أولئك الذين أظلتهم العناية ، وتنسّموا عبير الهداية ، وغمرتهم نفحات الرحمن فجمعوا إلى الإيمان بالله ورسوله : أن جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، مخلصين صادقين . موقنين بما أعد الله للمجاهدين في سبيله من الفضل الكبير والعطاء الجزيل .

وعملاً بالهدي الرباني الكريم؛ كان الصحابة رضوان الله عليهم يحرصون أشد الحرص على فعل ما يكون سبيلهم إلى حسن العاقبة يوم اللقاء . جاء في سبب نزول سورة الصف ـ ومنها هذه الآيات وقوله تعالى : **﴿ إنّ الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾** ـ ماروى أحمد والترمذي وابن أبي حاتم واللفظ له عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه «أن ناساً قالوا : لو أرسلنا إلى رسول الله ﷺ نسأله عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ؟ فلم يذهب أحد منا، وهِبنا أن نسأله عن ذلك ، قال : فدعا رسول الله ﷺ أولئك النفر رجلاً رجلاً حتى جمعهم ونزلت فيهم هذه السورة ﴿ سبّح ﴾ الصف . قال عبدالله بن سلام : فقرأها علينا رسول الله ﷺ كلّها . «قال أبو سلمة : وقرأها علينا عبدالله بن سلام كلّها . قال يحيى بن أبي كثير : وقرأها علينا أبو سلمة كلَّها . قال الأوزاعي : وقرأها علينا يحيى ابن أبي كثير كلها . قال أبي : وقرأها علينا الأوزاعي كلَّها ».

ألا وان في النصوص ما يشهد أن الذين يأتون بأحب الأعمال إلى الله: هم من يحبهم الله تعالى ؛ وأكرم بهذه المحبة من فضل ... أخرج الترمذي في كتاب صفة الجنة من السنن ـ « الجامع الصحيح ـ عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يبغضهم الله . فأما الذين يحبهم الله : فرجل أتى قوماً فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم فمنعوه ، فتخلّف رجل في أعقابهم

فأعطاه سراً لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه . وقوم ساروا ليلتَهم حتى إذا كان النومُ أحبَّ إليهم مما يُعدَل به نزلوا فوضعوا رؤوسهم ، فقام أحدهم يتملقني ويتلو آياتي . ورجل كان في سرية ، فلقي العدوَّ فهُزموا وأقبل بصدره حتى يُقتل أويُفتح له . والثلاثة الذين يبغضهم الله : الشيخ الزاني ، والفقير المختال ، والغنيُّ الظلوم». ورواه أحمد بنحوه والنسائي وابن أبي حاتم .

وإذا كان الأمر كذلك : فما ظنك بعاقبة هؤلاء المحبوبين يوم العرض على الله الذي أحبهم سبحانه !!

وهذا مشهد من مشاهد القيامة لزمرة من الشهداء ، وما أعز وأغلى منازل الشهداء . فعن نعيم بن همّار الغطفاني رضي الله عنه « أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : أيُّ الشهداء أفضل ؟ قال : الذين إن يلقوا في الصف لا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا ، أولئك ينطلقون في الغرف العلا من الجنة ويضحك إليهم ربهم ، وإذا ضحك ربك إلى عبد في الدنيا فلا حساب عليه » رواه أحمد وأبو يعلى بإسنادين جيدين ورواه الطبراني بنحوه من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .
﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾..

كذبت... سئلت أيسر من ذلك

لله ما أشدَّ ما يظلم الإنسان نفسه قبل ظلم الآخرين، حين يكفر بالرحمن ويصدُّ عن سبيل الله؛ ولو عقل واتخذ من سبيل الإنصاف للحقيقة سبيلاً، لعوفي مما يصيبه من التمزق والقلق النفسي في الدنيا، ولكان له منجاة مما ينتظر الجاحدين في الآخرة من العذاب المهين.

ولقد حملت إلينا النصوص النبوية الموثقة ـ فيما حملت ـ أخبار واحد من المشاهد التي تؤذن يوم القيامة بما فعل الجحود بالكافر؛ إذ أوصله إلى أن يقذف في النار ويهلك مع الهالكين، وهي أخبار تحمل لوناً من الحوار الذي لا يملك الكافر معه إلا أن يستكين للحقيقة، ولكن بعد فوات الأوان. أخرج الإمام البخاري بسنده عن قتادة عن أنس رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ كان يقول: «يُجاء بالكافر يوم القيامة، فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقال له: قد كنت سئلت أيسر من ذلك» ولفظه عند مسلم «يقال للكافر يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم: فيقال له: قد سئلت أيسر من ذلك». وجاء التصريح في روايات أخر بأن الذي يخاطب الكافر الخطاب المذكور، هو الله تبارك وتعالى، أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبي عمران الجوَنيِّ عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا، أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم. أن لا تشرك (أحسبه قال) ولا أُدخلَك النار، فأبيت إلا الشرك».

والإشارة إلى ما جرى من أخذ العهد على الإيمان والناس في صلب آدم

واضحة . وهـو ما نجده عند أحمد والبخـاري أيضاً قال عبدالله ابـن الإمام أحمد : حدثني أبي قال : حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا شعبة عن أبي عمران الجونيِّ قال : سمعـت أنس بـن مالك يحدث عـن النبي ﷺ قـال : « يقول الله عـز وجل لأهـون أهل النـار عذابـاً : لو أن لـك مـا في الأرض من شيء أكنـت تفتدي بـه؟ فيقول: نعم . فيقول : قد أردت منك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم ، أن لا تشرك بي ، فأبيت إلا أن تشرك بي » .

وكون التوحيد الخالص أهون أو أيسر على الإنسـان ـ كما يقرره الحديث ـ إنما جاء ـ والله أعلم ـ من كون التوحيد وعدم الشرك هو ما فُطر عليه البشر ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ ولكن أهل الضلالة يستحبون العمى على الهدى فيعفّون على هذه الفطرة ، ويسترونها بأهوائهم حيناً ، وبالتقليد الأعمى حيناً ، ويتجاهلون آيات الله في الآفـاق وفي أنفسهم ، فيقعـون في مغبة اتخاذ إلـه من دون الله الخالـق القادر سبحانه وتعالى ، وتكون عاقبتهم الخسران المبين يوم القيامة .

ونجد عنـد الإمام البخـاري : « يقول الله تعالى لأهـون أهل النـار عذابـاً يوم القيامة: لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به ؟ فيقول : نعم . فيقول : أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم : أن لا تشرك بي شيئاً ، فأبيت إلا أن تشرك بي » .

ومشهد هذا الكافر وأمثاله يوم القيامة : مدعاة للكثير من التحسُّب والخوف من الوقوع فيما لا تحمـد عقباه ؛ من أمور قد تجرُّ صاحبهـا إلى الشرك والعياذ بالله. وذو البصيرة تستوقفه كـل لمحة من لمحات المشهـد المذكور ، وبخاصة مـا جاء في بعض الروايات عند مسلم « فيقال له : كذبت قد سئلت أيسر من ذلك فأبيت » وهو ما نجده من رواية قتادة عـن أنس رضي الله عنه قال الإمام النووي يرحمه الله . (وأما قوله : «كذبت» فالظاهر : معناه أن يقال : لو رددناك إلى الدنيا وكانت لك كلُّها أكنـت تفتدي بها ؟ فيقـول : نعم. فيقال لـه : كذبـت، قد سئلـت أيسر من

ذلك فأبيت . ويكون هذا من معنى قوله تعالى : ﴿ **ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه** ﴾ ولا بد من هذا التأويل ليجمع بينه وبين قوله تعالى: ﴿ **ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة** ﴾ أي لو كان لهم يوم القيامة ما في الأرض جميعاً ومثله معه وأمكنهم الافتداء لافتدوا).

وفي هذا الحديث ـ كما يقول الإمام النووي ـ دليل على أنه يجوز أن يقول الإنسان :« الله يقول». وقد أنكره بعض العلماء وقال : يكره أن يقول : « الله يقول» ولكن يقال : « قال الله » والصواب جوازه ، وبه قال عامة العلماء من السلف والخلف، وبه جاء القرآن العزيز في قوله تعالى : ﴿**والله يقول الحق**﴾ وفي الصحيحين أحاديث كثيرة مثل هذا والله أعلم ..

هذا : ومما يصحب سوء العاقبة في أمر الكافر ، وأنها الخسر الذي ما بعده خسر، أنه يأتي يوم لا ينفع مال غني ولا جاه ذي جاه ولا سلطان ذي سلطان ، فلا يجد حسنة يُجزى بها مما كان قد قدم في الدنيا ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً** ﴾ ذلك لأن هذا العمل ـ مهما بلغ من الخيرية في الدنيا ـ فأجره في الدنيا، وليس لصاحبه في الآخرة من نصيب ؛ لأن القاعدة التي لابد أن يقوم عليها العمل ـ وهي الإيمان ـ مفقودة؛ أعاذنا الله من ذلك وعافانا وا لمسلمين من كل ما يوصل إليه ، أو يتصل به من قريب أو بعيد ، وهذا يذكّر بقوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿**مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد**﴾.

أما المؤمن : فلا تسل عما يلقى في الآخرة على صنيعه في الدنيا ، من جزيل العطاء ، ووافر الفضل والرحمة والإحسان ، جزاء عبوديته الصادقة لله عز وجل ، بعد أن يكون لم يُظلم شيئاً بعمله في دار الفناء . روى الإمام مسلم بسنده عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ؛ يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة . وأما الكافر : فيُطعم بحسنات ـ ما عمل

بها لله ـ في الدنيـا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة ، لم تكن لـه حسنة يُجزى بها » وله في رواية أخرى عن أنس رضي الله عنه أنه حدث عن رسول الله ﷺ : « إن الكافر إذا عمل حسنة أُطعم بها طُعمـةً في الدنيا ، وأما المؤمن : فإن الله يدَّخـر له حسناته في الآخرة ، ويُعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته» .

وهكذا أجمع العلماء ــ أخذاً مـن نصوص الكتـاب والسنة ــ على أن الكافـر الذي مـات على كفره لا ثـواب له في الآخـرة ، ولا يُجازى فيها بشيء مـن عمله في الدنيا متقرباً إلى الله تعالى ، وجاء في هذا الحديث التصريح بأنه يُطعم في الدنيا بما عمله من الحسنات ، أي بما فعله متقرباً إلى الله تعالى ، بما لا تفتقر صحته إلى النية، كصلة الرحم والصدقة ، والضيافة ، وتسهيل الخيرات ونحوها .

وأما المؤمن : فيـدخر الله له حسناته وثواب أعمالـه إلى الآخرة ، ويجزى بها مع ذلك أيضاً في الدنيا ، قال العلماء : ولا مانع من جزائه في الدنيا والآخرة ، وقد ورد الشرع به ، فيجب اعتقاده .

هذا والحديـث صريح بـأن الله لا يظلم مـؤمناً حسنـة ؛ بمعنى أنـه لا يترك مجازاته بشيء من حسناتـه، والظلم يطلق بمعنى النقص . قالـوا : وحقيقة الظلم مستحيلة من الله تعالى .

وأما إذا فعل الكافر مثل هذه الحسنات ثم أسلم : فإنه يثاب عليها في الآخرة على المذهب الصحيح كما استظهر الإمام النووي وغيره .

وعلى المؤمن أن يتحـرّى ويحذر ما يمكن أن يبطـل عمله قال تعـالى في سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الذين آمنـوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالـذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لايقدرون على شيء مما كسبوا والله لايهدي القوم الكافرين** ﴾.

وبعـد : فكم يحمـل المشهـد الذي نحـن بصدد الحديـث عنـه ـ وغيرُه مـن

المشاهد يوم الدين ـ من الدروس والعبر التي ينقاد لدلالتها أهل البصائر ، فيضاعفون العمل ، ويتحرّون الإخلاص وسلامة المقصد ، والبعد عن كل ما قد يعكّر صفو التوحيد الخالص الذي هو قاعدة القبول .

وصلى الله وسلم على محمد النبي الأمي وعلى آله وصحابته أجمعين ..

كيف تنظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين!!

بصائر الهداية في القرآن الكـريم، جعلت من نورها المتألـق حظاً وافراً للعقل والقلب، أضاء للمؤمنين بكثير من الدقة والعمق طريق التعرف إلى حقيقة ما يقع يوم القيامة مـن الأهوال والشدائد ، حتى باتت منهـم كأنها رأي عين .. وكان من رحمة الله بهذه الأمـة أن النبـي عليـه الصلاة والسـلام لم يـدع أن يَـدُلَّ على تلكـم البصائر في كتـاب الله، ويكشف ـ مع البيـان ـ عما يعين على الفهم والتـدبر ، كيما يكون المؤمـن على بصيرة من أمر آخـرته ، فيملـك ـ بعون الله ــ القدرة على تجاوز الصعاب ، وتـذليل النفـس للعبادة الخالصـة ، والإتيان بـالعمل الصـالح الـذي تحسن معه العقبى يوم الدين .

قال عبدالله بن الإمـام أحمد : حدثني أبي قال: حدثنا عبدالـرزاق قال : أنبأنا عبدالله بـن بَحير الصنعاني القـاص أن عبدالـرحمن بن يـزيد الصنعـاني أخبره أنه سمع ابـن عمر رضي الله عنهما يقول : قـال رسول الله ﷺ : « مـن سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾ و﴿ **إذا السماء انفطرت**﴾ و ﴿**إذا السماء انشقت**﴾ وأحسبه قـال : وسورة ﴿ **هود** ﴾ ونقع عنده على رواية أخرى لم تذكر فيها سورة الانشقاق ولفظها: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ : ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾ ، و ﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾ وحسبتُ أنه قال: سورة هود » وهنالك رواية أخـرى لا نجد فيها الإشارة إلى سورة هود ؛ ذلكم قول عبـدالله ابن عمـر رضي الله عنهما ـ كما سمـع ذلك منـه عبدالـرحمن بن يـزيد الصنعاني ــ قال رسول الله ﷺ : «من سرّه أن ينظـر إلى يوم القيامة كـأنه رأي عين فليقـرأ : ﴿**إذا الشمـس كـورت** ﴾ و ﴿**إذا السماء انفطــرت** ﴾ و ﴿**إذا السماء انشقت**﴾» وقد أورد هذه الرواية الحافظ ابن كثير بين يدي تفسيره لسورة التكوير .

وهكذا رواه الترمذي عن العباس بن عبـدالعظيم العنبري عن عبدالرزاق به، وقال : هـذا حديث حسـن غريب . وروى هشام بـن يوسف وغيره هـذا الحديث بهذا الإسناد وقال : « مـن سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كـأنه رأي عين فليقرأ ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ ولم يذكر ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ و ﴿ إذا السماء انشقت ﴾.
وكذلك رواه الحاكم في «المستدرك» وصححه ووافقه الذهبي في كتابه «التلخيص» ولكن بلفظ « من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ **﴿ إذا الشمس كورت ﴾** ».

هكذا يوجه النبي ﷺ المسلمين إلى ما يجعل الغيب الذي يؤمنون به كأنه تحت سلطان حواسهـم في الدنيا ، الأمر الـذي يحفز إلى المزيد من اليقظـة ، والبعد عن كل مايوقع في الغفلة ونسيان الله واليوم الآخر .

والملاحظ أن سـورة التكوير بـدئت بقولـه تعالى : **﴿ إذا الشمس كـورت ﴾** وتتالى التـذكير بما يقع يوم القيامـة من آيات الله العظام ؛ حيـث تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات ، ثم جاء قـوله تعالى : **﴿ وإذا الصُّحـفُ نُشرت ، وإذا السماء كُشطت. وإذا الجحيم سُعِّرتْ . وإذا الجنةُ أُزلفتْ . عَلمتْ نفْسٌ ما أحْضرتْ ﴾**.

ونشْر الصحـف هـذا : جديـر بـأن يشـدَّ أزر العـاملين ، ويوقـظ الكسـالى المتهاونين . وهنيئاً لمن يقـرأ ويتدبر ، ويعطي هـذه الحقيقة ـ حقيقة أن كـل إنسان يعطى صحيفته بيمينه أو بشماله ـ ما تستحق من الاهتمام ، ويضعها موضعها على ساحة العمل للآخرة والتزود بالتقوى لذلك اليوم ، يومِ الفصل الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين للمساءلة والجزاء .

روى الإمـام الطبري عـن قتـادة في قولـه تعـالى : ﴿وإذا الصحـف نشرت﴾ «صحيفتَك يا ابـن آدم تُملي فيها ثم تُطوى ، ثـم تنشر عليك يوم القيامـة . فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفتـه » وأخرج ابن المنذر عن ابـن جريج **﴿وإذا الصحف نشرت ﴾** قال : « إذا مات الإنسان طويت صحيفته ثم تنشر يوم القيامة فيحاسب بما فيها » .

والأمر هنالك حقٌّ لا مرية فيه ، والعاقل من راقب الله وأعَدَّ لذلك اليوم الزاخر بمشاهد الهول عدّته .. ﴿وإذا السماء كشطت . وإذا الجحيم سُعّرت﴾. سُعِّرت : أحميت كما يقول السُّدِّي . وقال قتادة: أوقدت . قال : وإنما يسعِّرها غضب الله وخطايا بني آدم . وإذا كانت الجحيم تسعَّر ، ويكون أهل الضلالة من وقودها ، فإن الجنة أيضاً تُزْلَف أي تقرّب إلى أهلها ، أولئك الذين ينشر الله عليهم رحمته يوم الدين ، فيكونون في نعيمها المقيم خالدين . فإذا وقعت تلك الأمور التي دلت عليها الآيات بدءاً من قوله تعالى : ﴿ إذا الشمس كورت .. ﴾ الآيات ، حصل ما دلَّ عليه ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ . هذا هو الجواب ، نعم : إذا وقعت تلك الأمور : حينئذ تعلم كل نفس ما عملت ، وأحضر ذلك لها ، كما قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾. وكما قال جل شأنه في سورة القيامة: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾.

ولقد كان من فضل الله على الصحابة رضي الله عنهم ـ على تفاوت مراتبهم ـ أنهم كانوا يقرأون القرآن قراءة تدبُّر وخشية ، منتفعين بما وجّه إليه النبي عليه الصلاة والسلام . ولقد انتفع عمر رضي الله عنه بما وجه إليه الرحمة المهداة صلوات الله وسلامه عليه في شأن سورة التكوير هذه وأختيها ، فكنت تراه حين يقرأ ، يقرأ تلك القراءة التي تُسْلمه إلى حيث يرى كأن القيامة تحت ناظريه من عالم الشهادة ، لا من عالم الغيب . أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق زيد بن أسلم عن أبيه قال: « لما نزلت ﴿ إذا الشمس كوّرت ﴾ قال عمر لما بلغ ﴿علمت نفس ما أحضرت ﴾ ، قال : « لهذا أجري الحديث » .

والحق أن من رزق التبصّر بتلكم السور الثلاث: التكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والتدبُّر لمعانيها حق التدبر ، فقد حظي بالوافر من الخير ، وكان على حق اليقين بصدق ما رغب به النبي عليه الصلاة والسلام ؛ من أن القراءة الواعية

المتدبرة ، تثمر أن ينظـر المؤمن إلى يوم القيامة ـ وهو من الغيـب ـ كأنه رأي عين ؛ وهو ما كان عليه سلف هذه الأمـة ومن جرى على منوالهم ممن رزقوا الإخلاص في القول والعمل ، وصدقوا في إيمانهم وعبوديتهم لله عز وجل ؛ كالذي رأينا من عمر رضي الله عنه .

ثـم إن التذوق الإيماني الـذي يبلغ بصـاحبه، أن ينظـر إلى يوم القيـامة يـومِ الحشر الأكبر نظـرة اليقين الذي مـا بعده يقين ، حتـى كـأن ذلك اليـوم من عـالم الشهادة يراه بحاسة البصر ، وينفعل بمشاهده ووقائعه ... إن هذا التذوق الرفيع مرتبة غاية في السمو واستنارةِ القلب والعقل ، ينبغي لكل مؤمن أن يكون جاداً في سلوك الطريق الموصلة إليها .

وغير خافٍ أن الرسـول عليه الصلاة والسلام كـان ـ وهو سيد البلغـاء ـ على خير مستوى في الدعوة إلى ذلك حين قال : « مـن سرّه ـ أو من أحب ـ أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿ **إذا الشمس كورت ...** ﴾ » الحديث.

ومنـذا الذي يعقـل عـن رسـول الله ما أراد ، ولا يسرّه ، أو لا يحب أن يكـون كذلك؟ إذن فليسلك الطريق .. الطريق التي عنوانها الإيمان والعمل ، والابتلاء ، والصبر على ما يعترض من مشـاقَّ وصوارف. وحسبك في تحديد المسـار على هذه السـاحـة قولـه عليـه الصـلاة والسلام : « حفّـت الجنـة بـا لمكاره وحفـت النـار بالشهـوات » على تعدد الـروايات. صلى الله وسلـم وبارك على مـن أوتي جوامـع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً ..

ذهبوا وبقيت أعمالهم..
ولكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه

أرأيت إلى الإنسان إذا خاف أن يمسَّه الضر في الدنيا ، كيف يسعى جاهداً لدفع ذلك الضُّرّ ، والحيلولة دونه ودون أن يقع ، وكيف يدعو ربه ويتضرع إليه من أجل ذلك ؟؟ أو ليس الضرُّ الذي يمكن أن يمسَّه يوم المساءلة والحساب ، أولى وأحرى أن يعمل على دفعه ، وسلوك السبل الكفيلة ـ بعون الله ـ أن تحول دون الوقوع في مغبته !! بل إن العاقل ـ كل العاقل ـ هو الذي يسعى جاهداً ـ ما وسعه الجهد ـ إلى أن يكون في عداد من يزحزحون عن النار ، ويفوزون بجنة الخلد التي وعد الله عباده الصالحين . وإن يوماً يبلغ فيه الهول مبلغ أن يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، والإنسان ـ في واقع الحال ـ بأمسِّ الحاجة إلى الحسنة ، بل إلى مثقال ذرة من الحسنة ، بغية النجاة من عذاب السعير .. إن يوماً تبلغ فيه شدة الهول هذا المبلغ: جدير بأن يُحسب له كل حساب، وأن يُتزوّد للرحلة الشاقة الطويلة إليه ، بالزاد المناسب من تقوى الله ومخافته في السر والعلن ، والطمع برحمته وعونه وفضله ..!

ولو ترى مشهد العباد يوم المعاد ـ والقلوب يومئذ واجفة والأصوات خاشعة ـ !! إذن لرأيت العجب العجاب ، ولأقلقك أشدَّ القلق ، أن تكون في ذلك اليوم ممن يساقون إلى العذاب الأليم في جهنم وبئس المهاد . ﴿ **يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميماً . يبصَّرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه . كلا إنها لظى . نزَّاعةً للشّوى . تدْعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى** ﴾ .

ويزداد الأمر انكشافاً ، لايبقى معه عذر لمن يغفل عن النظر في عاقبة أمره يوم الحساب ـ معرضـاً عن حقيقة أنه ليس بعد هذه الدنيـا من دار إلا الجنة أو النار ـ بقول الله تبـارك وتعالى : **﴿ فإذا جـاءت الصاخّـة . يوم يفـر المرء من أخيـه . وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيـه . لكل امرىء منهم يومئـذ شأن يغنيه ﴾** . قال عكرمة ـ كما روى الطبري وأورده الحافظ ابن كثير ـ «يلقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه أيَّ بعل كنت لك ؟ فتقول : نعم البعل كنتَ ! وتثني بخير ما استطاعت ، فيقول لها : فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تَهَبينَها لي لعلي أنجـو مما ترين : فتقول له: ما أيسر مـا طلبـت، ولكنـي لا أطيق أن أعطيَـك شيئـاً ؛ أتخوّف الـذي تخاف . وإن الرجل ليلقـى ابنه فيتعلق به فيقـول : يا بني ، أيَّ والد كنـت لك ؟ فيثني بخير ، فيقول له : يا بنيّ إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى ! فيقول ولده : يا أبـت ما أيسر ما طلبت ، ولكني أتخوف مثل الـذي تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً . قال عكرمة : يقول الله تعالى : **﴿ يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه ﴾**».

ولقد مر بنا في غير موطن من هذه الصفحات ، ما جاء في الحديث الصحيح في أمر الشفاعة أنه إذا طُلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق ، يقول : نفسي نفسي ، لا أسـأله اليـوم إلا نفسي ، حتى إن عيسى بـن مريـم عليه السلام يقول : لا أسأله اليوم إلا نفسي ، لا أسأله مريم التي ولدتني .. حتى يكون ما يكون من شفاعة محمد ﷺ في القضاء بين العباد ...

والحقُّ أن النبي عليه الصـلاة والسلام لم يدع زيادة لمستزيـد في الكشف عن جوانب هـذه القضية الكبرى بياناً لقـوله تعالى : **﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾** وليس من القول المعاد ، التذكير بما روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عبـاس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « تحشرون يـوم القيامة حفاة عراة غرلاً » قال: فقالت: زوجته : يارسول الله ، أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال : **﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾** أو قال : « ما أشغله عن النظر ».

والغُرل جمع أغرل وهو الأقلف غير المختون . وقد روى هذا الحديث النسائي منفرداً بـه عن أبي داود عن عـارم عن ثابـت بن يـزيد ـ وهـو أبو اليزيـد الأحول البصري أحد الثقات ــ عن هلال بن خبـاب عن سعيد بن جبير عـن ابن عباس بـــه ، كما رواه الترمذي من طريق عكرمة عن ابن عباس بلفظ «.. فقالت امرأة » ثم قـال الترمذي : هـذا حديث حسـن صحيح وقد روي مـن غير وجه عـن ابن عباس رضي الله عنهما .

ويبدو أن الزوجة المومى إليها ، هي أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها. فقد أخـرج النسائي بسنده عن عـروة عن عائشة رضي الله عنهـا أن رسول الله ﷺ قال : « يُبعـث الناس يوم القيـامة حفاةً عـراة غرلاً فقالـت عائشة : يـارسول الله، فكيف بالعورات ؟ فقال : ﴿ **لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ » .

وهل يرتاب مؤمن ، في أن المعتصم من مخاطر تلكم الساعات العصيبات يومَ الفصل ، حيث يجمع الله الأولين والآخرين .. عملٌ صالح يقوم على إيمان راسخ، وصدقٌ مع الله واستعانـةٌ به سبحانه وتعالى ، وضراعة خاشعة إليـه تدني من رحمته وتباعد من نقمتـه ، مع ذكر للموت وما بعد الموت ، واستغفار مـن الذنوب ، قبل أن تبلغ الـروح الحلقومَ ، ولا تنفـع الغافلَ تـوبة ؟!! أما التـولي عن هـذه السبيل، والتسربل بـالغفلة عـن الله ، والصد عن سبيلـه .. فلا يزيـد المرء يوم القيـامة غير تخسير ، ويا بؤسه وشقاءه هناك ، وهو لا يجد من دون الله ولياً ولا نصيراً ..

قال الحافـظ أبو نعيـم الأصبهاني في الحلية : حـدثنا عبـدالله بن محمـد قال : حدثنـا محمد بن سهـل قال : حدثنـا سلمة بـن شبيب قال : حـدثنا إبراهيـم بن الحكم بن أبـان قال : حدثنا أبي عن عكـرمة قال : «إن الله تعالى أخـرج رجلاً من الجنة ورجـلاً من النار ، فـوقفهما بين يديه ثـم قال لصـاحب الجنة :عبـدي كيف وجدت مقيلك في الجنة ؟ فيقول : خيرَ مقيل قاله القائلون ؛ فذكر من أزواجها وما فيها مـن النعيم . ثم قـال لصاحب النار : عبـدي كيف رأيت مقيلـك في النار ؟

فقال : شرَّ مقيل قاله القائلون ، وذكر عقاربها وحياتها وزنابيرها ، وما فيها من ألوان العذاب . فقال له ربه عز وجل : ماذا تعطيني إن أعفيتك من النار ؟ فقال العبد : إلهي وما عندي ما أعطيك ، فقال له الرب : لو كان لك جبل من ذهب أكنت تعطيني فأعفيَك من النار ؟ فقال : نعم ! فقال له الرب جل شأنه : كذبت! لقد سألتك في الدنيا أيسر من جبل من ذهب ، سألتك أن تدعوني فأستجيبَ لك ، وأن تستغفرني فأغفر لك ، وتسألني فأعطيَك ، فكنت تتولى ذاهباً » .

من هنا كان أهل الخشية على ذُكر لما يكون في عرَصات القيامة ، وتحسُّب شديد لما يمكن أن يؤول إليه الأمر بعد المساءلة بين يدي من لاتخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، فيحرصون أشد الحرص على أن يلقوا الله ــ يوم يلقونه ـ بصالح العمل ، مع صدق الإنابة إليه ورجاء الرحمة منه ، فالباقيات الصالحات ﴿خير عند ربك ثواباً وخير مردّاً﴾. جاء في ترجمة الإمام الثقة مجاهد بن جبر قوله رحمه الله : «مررت مع عبدالله بن عمر على خَرِبة ، فقال : يا مجاهد ناد يا خربة ما فعل أهلك أين أهلك ؟ قال : فناديت . فقال ابن عمر : « ذهبوا وبقيت أعمالهم » ..

كتاب المؤمن يوم القيامة..
وكتاب الكافر والمنافق

أورد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، ما ذكر ابن أبي الدنيا وغيره من أنه ورد في بعض الآثار :« أن الله سبحانه يأمر بناس من الناس إلى الجنة ، حتى إذا رأوها وشاهدوا ما فيها من الكرامة ، قال الله لملائكته : اصرفوهم عنها ، لاحظَّ لهم فيها. قالوا : يـا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن تـريَنا ما أريتنا ، كان أهونَ في عـذابنا ! قال الله: ذلك أردت بكم ، إذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين متواضعين ، و إذا خلوتم بارزتموني بالعظائم ، أجْلَلْتم الناس ولم تُجِلُّـوني ، وخفتم الناس ولم تخافوني ، فاليوم أذيقكم أليم عذابي كما حرمتكم جزيل ثوابي » .

إنه لمشهـد ناطـق بجنايـة هؤلاء المنـافقين ومرضـى القلوب على أنفسهـم ؛ فالـذي أراده الله بهم من الصرف عـن الجنة، بعد أن رأوهـا وشاهـدوا ما فيهـا من الكرامـة ، إنما كان بما أسلفـوا في الدنيـا من تـواضع و إخبـات إذا لقوا النـاس ، ومبارزة لله بالعظائم إذا خلوا بأنفسهم ؛ وفي هذا إجلال للناس ، وعدم إجلال لله سبحانه وتعالى ، وخوفٌ من الناس وعدمُ خوف من الله الذي يعلـم السرَّ وأخفى . وكان ذلـك طريقهم إلى سـوء العاقبة وبئس المصير « فاليوم أذيقكـم عذابي كما حرمتكم جزيل ثوابي » .

وأين هذا المشهد من مشهد أولئك الـذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأخبتوا إلى ربهم ، حيث الفـوز بالنعيم المقيـم، والكرامة الربـانية التي لم تخطـر على قلب بشـــر .

هكذا ينكشف الغطاء ، وتعبِّر المشاهد عما كان عليه أصحابها في الدنيا ؛ من رغبة في الحياة الـدنيا وزينتها ، أو إرادة للآخـرة وسعي حثيث لها . فإذا دعـيَ كل

أنـاس بإمـامهم كتـابِ أعمالهم ، فـاز أهل الإنـابة والتقـوى ، ﴿ **وخسر هنالـك المبطلون** ﴾. وفي كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، ما يبصّر بهذه الحقيقة التي لا يماري فيها مؤمن ، ويزيل الغشـاوة عن الأعين ، ولكن المنافقين بآيات الله يجحدون، وماذا الذي ينجي الكافر من عذاب الله في ذلك اليوم ، وقد أعرض عن ذكر الله في هذه الدار ، وأسلم عقله وقلبه للهوى والشيطان ؟؟

جاء في سورة الإسراء قـول الله تبارك وتعالى : ﴿**يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمـى وأضل سبيلاً** ﴾ . قال ابـن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم** ﴾ أي بكتاب أعمالهم ، وكذا قال أبو العالية والحسن والضحاك ، وهذا القول هـو الأرجح ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ لقوله تعالى : ﴿ **وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيـه ويقولون يا ويلتنا مـا لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً** ﴾ .

ثم مـاذا بعد هذا المظهـر من مظاهـر العدل الإلهي يوم الـدين؟ ﴿**فمن أوتي كتابه بيمينه فـأولئك يقرأون كتابهم**﴾ أي مـن فرحتـه وسروره بما فيـه من العمـل الصالح والقربات والطاعات ، يقرأه ويحب قـراءته. قال الترمذي : حدثنا عبدالله بن عبدالرحمن قـال : أخبرنا عُبيد الله بن موسى عن إسرائيل عـن السدّى عن أبيه عـن أبي هـريـرة رضي الله عنه عـن النبـي ﷺ في قـول الله ﴿**يوم ندعـو كل أناس بإمامهم**﴾ قال :« يُدعى أحـدهـم فيعطى كتابَه بيمينه ، ويُمَـدُّ له في جسمه ستون ذراعـاً ، ويُبَيَّض وجهُـه ، ويُجْعَـلُ على رأسه تـاج من لـؤلـؤ يتلألأ ، فينطلـق إلى أصحابـه ، فيرونه مـن بعيد فيقـولون : اللهـم ائتنا بهذا وبـارك لنا في هـذا ، حتى يأتيهم فيقول: أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا . وأما الكافر : فيسَوَّد وجهُه ويُمدّ له في جسمه ستون ذراعـاً على صورة آدم ، فيُلبس تاجاً ، فيراه أصحابـه فيقولون : اللهم أخْزِه فيقول: أبعدكم الله ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا ». قال أبو عيسى:

هذا حديث حسـن غريب. والسُّدّي اسمه إسماعيل بـن عبدالرحمن . ورواه البزار وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وابن مردويه كلهم عن أبي هريرة كما ذكر ذلك السيوطي في كتابه « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » .

وفي رواية البزار شيء من الاختصـار ولفظها : « يدعى أحدهم فيعطـى كتابَه بيمينه ، ويُمـدُّ له في جسمـه ، ويبيَّض وجهه ، ويجعـل على رأسه تـاج من لـؤلؤة تتلألأ ، فينطلق إلى أصحابـه ، فيرونه من بعيد ، فيقولون : اللهـم ائتنا بهذا وبارك لنا في هـذا . فيأتيهـم فيقول لهم : أبشروا ، فإن لكـل رجل منكـم مثل هـذا . وأما الكافر : فيَسوَدُّ وجهُهُ ، ويُمَدُّ له في جسمه ، ويراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من هذا ـ أو من شر هذا ـ اللهم لا تأتِنا بـه ، فيأتيهم فيقولون : اللهم أخزه ، فيقول : أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا » .

وقد كشفت النصوص المبـاركة ،عن مقدار الفرحة التي تنـال من أوتي كتابَه بيمينه ، والخزيِ الذي يحيق بمن أوتي كتابـه بشماله ؛ فقال تعالى في سورة الحاقة : **﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية﴾** إلى أن يقول سبحـانه :**﴿وأما من أوتي كتابـه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه . ولم أدر مـا حسابيه . ياليتها كانت القاضيـة . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه﴾** .

فهذا الذي أوتي كتابه بيمينه يقول ـ وقد غمرته السعادة وأشرقت عليه الفرحة بذلك ـــ. يقول من شدة فرحه لكـل من لقيه : **﴿ هاؤم اقرؤا كتابيه ﴾** أي خذوا اقرؤا كتـابيه ؛ لأنه يعلـم أن الذي فيه : خير وحسنـات محضة ؛ لأنه ممـن بدّل الله سيئاتهم حسنات ، وذلك عنوان النجاة والفوز المبين . قال ابن أبي حاتـم : حدثنا بشر بن مطر الـواسطي قال : حدثنا يزيـد بن هارون قال : أخبرنا عـاصم الأحول عن أبي عثمان قال : «المؤمن يُعطى كتابَـه في ستر من الله ، فيقرأ سيئاته ، فكلما قرأ سيئة تغيّر لونه ، حتى يمر بحسناته، فيقرأها فيرجع إليه لونه ، ثم ينظر فإذا سيئاته

سيئاته قد بُـدلت حسنات ، قال : فعند ذلك يقول : هـاؤم اقرؤا كتابيه » . وروى بسنده عن عبدالله بن عبدالله بن حنظلة ـ غسيل الملائكة رضي الله عنه ـ قال : إن الله يقف عبدَه يوم القيـامة ، فيبدي سيئـاته في ظهر صحيفتـه، فيقول لـه : أنت عملـت هذا ؟ فيقـول : نعـم أي رب . فيقول لـه : إني لم أفضحـك به ، وإني قـد غفرت لك ، فيقول عند ذلك . **﴿هاؤم اقرأوا كتابية إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾** حين نجا من فضيحة يوم القيامة ».

وقوله : **﴿ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾**. أي قد كنت موقناً في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالـة ، كما قال تعالى: **﴿ الذين يظنون أنهم مـلاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾**.

وغسيل الملائكة صحابي من سادات المسلمين وفضـلائهم ، وهو حنظلة بن أبي عامر عمرو بن صيفي . استشهد يوم أحد وسبب تسميته غسيل الملائكة ـ كما يروي ابـن اسحاق ـــ قول النبي ﷺ : « إن صـاحبكم لتغسلـه الملائكة » ـــ يعني حنظلة ـ فسألـوا أهله : ما شأنه ؟ فسئلت زوجته فقالــت : خرج وهو جنب حين سمع الهائعـة ـ الصيحـة التي فيهـا الفزع ـــ فقال رسـول الله ﷺ : لذلـك غسلته الملائكة ، قال ابن الأثير : وكفى بهذا شرفاً ومنزلة عند الله تعالى .

وأبوه أبو عامر كان قد أضمر النفـاق وخرج إلى مكة ثم عاد ليقاتل المسلمين مع قـريش يوم أحد ، فسماه رسـول الله ﷺ : الفاسق . ولما فتحت مكـة هرب إلى هرقل الروم فمات كافراً هناك سنة تسع .

وسبحـان من يخرج الحي مـن الميت ويخرج الميـت من الحي . ورضي الله عـن حنظلة غسيل الملائكة وأرضاه .

في اليوم العظيم
يكونون في العرق على قدر أعمالهم!

من المشاهد التي تنبىء يوم القيامة عن مقدار العلاقة بين ظلم العباد بعضهم بعضاً ـ في منع حق أو تجاوزه إلى ما هو دونه ـ وبين المسؤولية في الآخرة : مشهد أولئك الذين يعذَّبون ، لأنهم كانوا يبخسون في المكيال والميزان ، إما بالازدياد إن اقتضى أحدهم من الناس ، وإما بالنقصان إن قضاهم .

وهؤلاء هم المطفِّفون الذين توعدهم الله بالويل ـ وهو وادٍ في جهنم ، أو الخسار والهلاك الذي يودي بهم إلى عذاب السعير ـ جزاء صنيعهم في عدم الوفاء بالكيل والميزان **﴿ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون﴾** إنهم إذا اكتالوا من الناس: يستوفون حقهم بالوافي والزائد ، وإذا كالوهم أو وزنوهم ينقصون ، وفي هذا مخالفة صريحة لما أمر به ربنا تبارك وتعالى من الوفاء بالكيل والميزان ؛ ففي سورة الإسراء نقرأ قوله تعالى : **﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾** ونقرأ في سورة الأنعام قوله عز وجل : **﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾** وجاء في سورة الرحمن قوله تباركت أسماؤه : **﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾** وأخبر الكتاب الكريم عن أن الله أهلك قوم شعيب ودمّرهم على ما كانوا يبخسون الناس في المكيال والميزان .

ولقد جاء الوعيد صريحاً مشدّداً بالتذكير بذلك اليوم الزاخر بالشدائد والأهوال، يومِ القيامة الذي يجد كل امرىء فيه ما قدّم . ويا ويل الظالمين ، وأكَلةِ أموال الناس بالباطل مما ينصَبُّ عليهم ـ بما اجترحته أيديهم ـ من العذاب الأليم. **﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾** أما

يخاف أولئك الظالمون المتصفون بالأثرة وحبِ الذات ، عند التعامل المالي أو غيره مع الآخرين .. أما يخافون من البعث، والقيام بين يدي من يعلم ما تخفي السرائر وتنطوي عليه الضمائر ، في يوم عظيم الهول ، كثير الفزع جليل الخطب ، مَنْ خسر فيه أُدخل ناراً حامية ﴿ **لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميماً وغسّاقاً ، جزاءً وفِاقاً** ﴾ !

ولقد حملت إلينا السنة ـ في صور من رائع البيان ـ ما يكشف عن بعض من مظاهر الهول العظيم المطبق بكلكله في عرصات القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين .. يوم يقومون حفاةً عُراةً غُرلاً ، في موقف صعب حرج ، شديد الضنك على المجرم الذي ظلم نفسه وظلم عباد الله ، ويغشاهم من أمر الله ما تعجز القوى والحواس عنه ، نسأل الله ــ بكرمه ولطفه ــ العفو والعافية . جاء في الجامع الصحيح «باب يوم يقوم الناس لرب العالمين» من كتاب التفسير قول الإمام البخاري : حدثنا ابراهيم بن المنذر قال : حدثنا معن قال : حدثنا مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : «﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ حتى يغيب أحدهم في رشْحه إلى أذنيه» . وترجم ـ رحمه الله ــ لهذا الخطب الجلَل في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح بقوله : «باب قول الله تعالى : ﴿ **ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ **وتقطّعت بهم الأسباب** ﴾ الوُصُلات في الدنيا ».

وأخرج هناك بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يعرقُ الناس يوم القيامة ـ حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجُمهم حتى يبلغَ آذانهم ». وكأن البخاري رحمه الله ـ كما يقول الحافظ ــ أشار بهذه الآية ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ إلى ما أخرجه هنَّاد بن السَّري في كتابه «الزهد» من طريق عبدالله بن الحارث عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال له رجل: «إن أهل المدينة ليوفون الكيل ، فقال : وما يمنعهم وقد قال الله تعالى : ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ قال : إن العرق ليبلغ

أنصاف آذانهم من هول يوم القيامة » وهذا لما لم يكن على شرطه ، أشار إليه ، وأورد حديث ابن عمر المرفوعَ في معناه .

والأسباب: هي الوُصُلات التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا واحدتها وُصلَةٌ . قال قتادة : الأسباب الموصلة التي كانت بينهم في الدنيا يتواصلون بها ويتحابون ، فصارت عداوة يوم القيامة . وأخرج الامام أحمد بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ لعظمة الرحمن عز وجل يوم القيامة ، حتى إن العرق ليُلجم الرجال إلى أنصاف آذانهم » .

وجاء في بعض روايات الحديث ، ما دل على أن الناس يكونون في العرق على قدر أعمالهم . أخرج الإمام مسلم بسنده عن سُلَيْم بن عامر قال : حدثني المقداد ابن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكونَ منهم كمقدار ميل ـ قال : سُلَيْم بن عامر : فوالله ما أدري ما يعني بالميل ! أمسافة الأرض أم الميل الذي تُكْتَحَلُ به العين. قال : فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ؛ فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حَقْوَيهِ ، ومنهم من يُلجمه العرق إلجاماً ، قال : وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه » . وله في رواية أخرى : « فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق » وعند الإمام أحمد من رواية المقداد أيضاً رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد ، حتى تكون قِيدَ ميل أو ميلين . قال : فتَصهَرهم الشمس ، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم ، منهم من يأخذه إلى عقبه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه إلى حَقويه ، ومنهم من يُلجمه إلجاماً ».

القِيد : بكسر القاف : القَدْر يقولون : قِيدَ رمح أي قدره . والحَقْوُ : بفتح الخاء: موضع شد الإزار وهو الخاصرة ، ثم توسعوا حتى سموا الإزار الذي يشد

على العورة حَقْواً . قال ابن الأثير في كتابه « النهاية » : والأصل في الحَقو : معقد الإزار : وجمعه أَحْقٍ وأحقاء ، ثم سمي به الإزار للمجاورة وفي القاموس المحيط : جواز كسر الحاء من حقو .

وإذا كان الأمر كذلك : فيا بشرى الذين لانت قلوبهم لأخبار ذلك اليوم يومِ القيامة ، الذي يأخذ فيه العرقُ الناس على قدر أعمالهم ، فراحوا يبذلون قصارى جهدهم في ملء الوقت بطاعة الله ، وأخذ النفوس بكل ما هو من طريق النجاة بسبب ، ودعوا إلى ذلك بحالهم ومقالهم وكانوا من المحسنين . روى أبو نعيم في (الحلية) عن القاسم بن أبي بَزَّةَ قال : حدثني من سمع عبدالله بن عمر رضي الله عنه «أنه قرأ ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ حتى بلغ ﴿**يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾ فبكى حتى خرّ وامتنع من قراءة ما بعده » .

اللهم باعد بيننا وبين طريق المطففين الظالمين واجعلنا ـ برحمتك ـ من أهل النجاة يوم الحَسْرَة ، واكتبنا من الفائزين المنعم عليهم برضوانك في جنة النعيم .

أن يكون في كتاب الله الذي لا يـأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفه و في عهد مبكر من عمر الدعوة ـ أعني العهد المكي ـ آيات تتوعّد المطففين الذين إذا اكتالوا على النـاس يستوفون . وإذا كالوهـم أو وزنوهم يخسرون ، وتنذرهـم شديد بطش الله ، ومـا ينزل بـالطاغين من الـويل يوم الـوعيد .... أن يكـون في الكتاب الكريـم آيات مبكِّرة تحمـل وعيد العقاب الأليـم ، ونذارة الهول الشديـد في ذلك اليـوم العظيم لأولئـك العاديـن على الآخـرين : دليـل واضح على حكمـة الله في الهداية ـ من أول الطريق ـ إلى صياغة المجتمع المسلم ، صياغة تنأى به عن الأذى والظلم ، وتصونـه عن كل ما من شـأنه إضاعة الحقوق ، أو تجاوز حـدود إنسانية الإنســان .

كما أن في ذلك، مـا يؤذن بما يجب من توظيـف الوعيد الأخروي ؛ على سـاحة البناء الأمثل للفـرد و الجماعة في الدنيا دار العمل ؛ فإذا نجـا الظالمون والمنتهكون لحرمات الإنسان وحقوقه في الدنيا : فـانهم غير معجزي الله في الآخرة ، بل هنالك العقوبة المناسبـة ، في يوم يشيب فيه الوليد من شدة الهول جـزاءً بما كانوا يعملون **﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾** .

وقد عرضنا مـن قريب لشذرات مضيئة من حديث النبـي ﷺ تتناول بالبيان النبوي الكريم ، كشفاً عن جانب من جوانب الهول العظيم في ذلك اليوم العظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين، وكان مما أسعدتنا به الرحلة مع تلكم النصوص : ما روى الإمام البخـاري عن أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : «يعرق الناس يوم القيـامة حتى يذهـب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ويلجمهـم حتى يبلغ آذانهم» وطـالعتنا بعض الأحاديـث بما يدل على أن الناس يكونـون في العرق

على قدر أعمالهم كما جاء ذلك فيما أخرج الإمام مسلم من رواية المقداد بن الأسود رضي الله عنه « فمنهم من يأخذه إلى عقبيه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ومنهم من يأخذه إلى حَقويه » .

وفي متابعة للرحلة المباركة مع الكلمة الهادية البانية ، في حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام التي تقف المسلم على صور من مشاهد يوم الفصل ، نقع على رواية انفرد بها الإمام أحمد في المسند عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ، ويزاد في حرها كذا وكذا ، تغلي منها الهوامُّ كما تغلي القدور ، يعرقون فيها على قدر خطاياهم ، منهم من يبلغ إلى كعبيه ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ، ومنهم من يبلغ إلى وسطه ، ومنهم من يُلجِمُه العرق » وجاء في رواية أخرى لأحمد قول الرسول ﷺ ـ كما روى عقبة بن عامر رضي الله عنه ـ: « ومنهم من يبلغ الخاصرة ، ومنهم من يبلغ منكبيه ومنهم من يبلغ وسط فيه ـ وأشار بيده فألجمها فاه ـ رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا ، ومنهم من يغطيه عرقه ـ وضرب بيده إشارةً » . وعند الحاكم من رواية عقبة أيضاً «.. ومنهم من يغطيه عرقه ، وضرب بيده على رأسه » .

ولا تعجب : فذلك من الخوارق التي تقع يوم القيامة ـ وما أكثرها ـ والقوانين هناك في دار البقاء ـ وهي من الغيب بالنسبة إلينا ـ غيرها هنا في دار الفناء، ولنذكر قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **يوم تبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار** ﴾.

والحق أن من نعم الله العظمى على المسلم أن تزكوَ نفسه ، فيكونَ صادق الانفعال والتأثر بتلك الحقائق على الوجه الذي يقود إلى الاستمساكِ بحبل هذا الدين ، وملء الوقت بصالح العمل ، استعداداً للموت وما بعد الموت ، وتزوّداً لذلك اليوم الذي لا ريب فيه . ولقد كان من نصح النبي ﷺ لأمته ذلك البيان النبوي الثَّرُّ في شأن ذلك ؛ حيث قطع الطريق على المتبطلين وشُداة الأعذار ، ولم

يدع زيادة لمستزيد . فهذه الشدة العاتية التي تلحق بمستحقيها : أمدُها طويل وثِقْلُها ثقيل . أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها ، إلا إذا كان يوم القيامة، صفّحت له صفائح من نار ، فأحمي عليها في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فيُرى سبيلَه: إما إلى الجنة و إما إلى النار .. » الحديث .. وأخرج أحمد وابن حبان ، والبيهقي في كتاب « البعث والنشور » من طريق عبدالله بن الحارث عن أبي هريرة رضي الله عنه « يحشر الناس قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم فيلجمهم العرق من شدة الكرب » .

من أجل هذا : كان النبي صلوات الله وسلامه عليه يتعوذ من كرب القيامة وسوء الحساب ، معلماً أمته ذلك ؛لأنه لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه . أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : لبشير الغفاري : « كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه ثلاثمائة سنة لرب العالمين من أيام الدنيا ، لا يأتيهم فيه خبر من السماء ولا يؤمر فيه بأمر ؟» قال بشير : المستعان الله. قال : « فإذا أويت إلى فراشك، فتعوذ بالله من كرب يوم القيامة وسوء الحساب» . وعن عاصم بن حميد قال : «سألت عائشة بأي شيء كان يفتتح رسول الله ﷺ قيام الليل ؟ فقالت : لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك ، كان إذا قام كبّر عشراً ، وحمد الله عشراً ، وسبَّح عشراً ، وهلّل عشراً ، واستغفر عشراً، وقال : اللهم اغفر لي، واهدني ، وارزقني، وعافني ويتعوذ من ضيق المُقام يوم القيامة » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجة واللفظ لأبي داود .

ويُذكر أنّ هنالك بعض النصوص التي تدل على تهوين الشدة في العرق على المؤمن ؛ فقد أخرج أبو يعلى وصححه ابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ قال : مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة ، فيتهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس إلى أن تغرب » .

وجاء عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما « أن الذي يُلْجمُ العرقَ الكافر » أخرجه البيهقي في « البعث والنشور » بسند حسن عنه قال : «يشتد كرب ذلك اليوم حتى يلجم الكافر العرق. قيل له : فأين المؤمنون ؟ قال : على الكراسي من ذهب ويظلل عليهم الغمام » وبسند قوي عن أبي موسى قال : «الشمس فوق رؤوس الناس يوم القيامة وأعمالُهم تظلهم» . وعن ابن المبارك في كتابه « الزهد» بسند جيد عن سلمان «ولا يضر حرُّها يومئذ مؤمناً ولا مؤمنة » قال القرطبي: «المراد من يكون كامل الإيمان لما يدل عليه حديث المقداد وغيره أنهم يتفاوتون في ذلك بحسب أعمالهم» ونجد في حديث ابن مسعود عند الطبراني والبيهقي «إن الرجل ليُلجم العرقَ يوم القيامة حتى يقول : يارب أرحني ولو إلى النار ».

ومن خلال ما تعطي النصوص مجتمعه قال الشيخ أبو محمد بن أبي جَمْرة في كتابه «بهجة النفوس» : «ظاهر الحديث تعميم الناس بذلك ، ولكن دلت الأحاديث الأخرى أنه مخصوص بالبعض وهم الأكثر . ويستثنى الأنبياء والشهداء ومن شاء الله ، فأشدُّهم في العرق الكفار ، ثم أصحاب الكبائر ، ثم من بعدهم ، والمسلمون منهم قليل بالنسبة للكفار ... إلى أن يقول : ومن تأمل الحالة المذكورة عرف عظيم الهول فيها ، وذلك أن النار تحف بأرض الموقف ، وتدنى الشمس من الرؤوس قدر ميل ، فكيف تكون حرارة تلك الأرض ،وماذا يرويها من العرق حتى يبلغ منها سبعين ذراعاً ، مع أن كل واحد لا يجد الا قدر موضع قدمه !! ... إن هذا لمما يبهر العقول ، ويدل على عظيم القدرة ، ويقتضي الإيمان بأمور الأخرة ؛ إذ ليس للعقل فيه مجال ، ولا يعترض عليه بعقل ولا قياس ولا عادة ، وإنما يؤخذ بالقبول ويدخل تحت الإيمان بالغيب . ومن توقف في ذلك دل على خسرانه وحرمانه » .

هذا : وفي الوقت نفسه ما بدٌ من تذكر أحاديث من يكرمهم الله بأن يظلَّهم في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه .

اللهم اجعلنا من أهل اليقين . واسلك بنا سبيل النجاة يوم الدين بفضلك وإحسانك يا أرحم الراحمين .

جهنم.. ومشهد من يعذبون الناس!!

أهل الآخرة الأتقياء الأنقياء، الجديرون حقاً بأن يغبطوا : همُّهم ـ على الدوام ـ الاستزادةُ من البر ، والصبرُ على مكاره الطريق التـي تقربهم إلى الله زلفى . وتراهم يُقبلون بقلوبهم وعقولهم على مخالطة تلكم الأخبـار التي تقف المسلمَ على مايكون في القيامة ، يوم تعنو الوجوه للحي القيوم ، ﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ .

والحال التي هـم عليها ــ من الخوف والـرجاء ــ تجعلهم ينتفعـون بما يقرؤون ويسمعون ، وينعكـس ذلك لديهم على أعمال الجوارح ، كما يظهـر أثره في أعمال القلوب . وأين من هـؤلاء : زمرةُ المفرطين الذين ألهتهم الدنيا عـن الآخرة وغرّهم بالله الغَرور !!

ولعـل مـن الأمراض التـي يعـاني منهـا كثير مـن المسلمين اليوم ؛ مـواجهـة نصوص الهداية بلا قلوب ، وإذا ووجهت بالعقول ـ كما هو الزعم ـ ألفيتَ تحميل العقل مالا يحمل ، ودفعه أحياناً إلى مزاحمةِ نصوص الوحي ، أو مسابقتها ، مع أن الذي تقتضيه سنة الله التي لا تتبدل : أن تكون نصوص الوحي متبوعةً ، وأن يكون العقل الذي امتنّ الله به ــ على تعدد وظائفه ومهامِّه العظيمة ـ تـابعاً للوحي يفهم عن الله ورسوله ما أراد من أجل التفكـر والتدبُّر و استنباط الأحكام ، والإفادة من كل مادل عليـه الوحي ، ثم البحث عـن الحكم اجتهاداً في ضوء المبـادىء العامة التي يقررها ، عنـدما لا يكون هناك نص . أما مسائل الغيـب التي تحملها الأخبار الصـادقة مـن آيـة كريمـة أو حـديـث مقبول : فـالعقـل السليم يقضي بـالإيمان والتسليم ؛ وتلك أولى صفات المتقين ، وواجب أساسي من واجبات الدين .

ولقد كان علماؤنا على بصيرة نافـذة ، حين وجهّوا الأمة إلى حسن الانتفاع بما حملت النصـوص من أخبـار اليوم الآخـر ومشاهـد القيامـة ، فبينوا أن مـن فائدة

الإخبار بما يكون يومـذاك من الشدة والضيق ؛ أن يتنبه كلٌ مـن المسلم والمسلمة ، فيأخذَ بالأسباب التي تخلِّصه من تلك الأهوال ، وتنجيه مما يؤول إليه أمر الغافلين الذين ضرب الران على قلوبهم بالأسداد ، ويبـادرَ إلى التوبة من التبعات ، ويلجأ إلى الكريم الوهاب: في الأخذ بيده وعونه ، على أسباب السلامة والنجاة ، ويتضرع إليه في معافاتـه من دار الهوان ، وإدخاله دار الكرامة ، ـ بمنـه وفضله ـ كيما يكون من الفائزين الذين يُنادَوْن ـــ وهم يتقلبون في النعيم المقيم ـ: ﴿**كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية**﴾.

ولعلي لا أبعد النجعة ، إذا عدت لما نحن بسبيلـه ؛ من الكلام على بعض من تلك المشاهد ، مشاهد يوم الوعيد التـي تحمل ما تحمل من بالغ التذكير والتنبيه ، وتبدو من شدة وضوحها ، حجةً على أولئك الضاربين في تيه الغفلة معرضين .

لقد دلت النصوص ، على أن العباد سوف يشاهـدون بأم أعينهم أناساً تسعّر بهم جهنم، فيذوقون فيها العذاب الأليم، جزاء مـا كانوا يعذبون الناس في الدنيا؛ ظلماً وعتواً في الأرض واستهتـاراً بما شرع الله من حفـظ الحقوق ، وصيـانة إنسـانية الإنسـان ، وحراسـة كـرامته أن تهان . ولقـد حـدث أن أخطـأ البعض على هـذه الساحة مرة في تـاريخنا ، فنَهَد من شهد ذلك من الصحابـة ، لإنكار هذا المنكر ، مذكّـراً أولئك الـرجال وأميرهم ، بنهـي النبي ﷺ المشدّد عـن تعذيـب الناس في الدنيـا ، ووعيد مـن يفعلون ذلك بمجـازاة الله لهم بالعذاب يـوم القيامـة ، فخلّوا سبيلهم ، مقلعين عما فعلوه . قال الإمام مسلم : حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة قال : حدثنا حفص بن غياث عن هشام بن عروة عن أبيه عن هشام بن حكيم بن حزام أنه: مـرّ بالشـام على أناس وقد أُقيمـوا في الشمس وصُـبَّ على رؤوسهم الـزيت، فقال: ماهـذا ؟ قيل : يعذبون في الخراج ، فقال : أمـا إني سمعت رسول الله ﷺ يقـول: « إن الله يعذِّب الـذيـن يعـذِّبون في الـدنيـا » ألا ليـت للظلمة وأعـوانهم وزبـانيتهم ، قلـوباً يسمعـون بها هذا النطـق النبوي الكـريم ، أن لـو كانـت لهم قلوب!!

وجاء في رواية أخرى لمسلم: « مر هشام بن حكيم بن حزام على أناس من الأنباط بالشام قد أقيموا في الشمس ، فقال : ما شأنهم ؟ قالوا : حبسوا في الجزية، فقال هشام : أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يعذب الذين يعذبون في الدنيا» .

أرأيت إلى هذا الأمر الذي أنكره هذا الصحابي الجليل ، لأنه كان عذاباً في نظره !! أرأيت إلى هذا الحدث الذي اعتبر غريباً كل الغرابة على جسم الحضارة الإسلامية؟ إيقاف نفر من الأنباط (فلاحي العجم) غير المسلمين من الرعية عقوبة لهم !! فما بالك بما يلاقيه المستضعفون من المسلمين في كثير من البقاع ! وما نُقم منهم ـ على الحقيقة ـ إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ؟!!..

هذا : وقد جاء في بعض الروايات، التصريح باسم أمير أولئك النفر الذين ذكّرهم هشام رضي الله عنه بما حذر منه عليه الصلاة والسلام ، من تعذيب الناس بغير حق وأن هشاماً حدّثه ، فأمر بهم ، فخلّى سبيلَهُم ؛ إذ جاء في رواية لمسلم أيضاً «وأميرهم يومئذ عمير بن سعد على فلسطين ، فدخل عليه فحدّثه ، فأمر بهم فخُلّوا».

ونجد عن أبي داود من طريق عروة بن الزبير « أن هشام بن حكيم بن حزام وجد رجلاً ــ وهو على حمص ـ يشمِّس ناساً من القبط في أداء الجزية ، فقال: ما هذا؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا».

ولقد أحسن الإمام النووي صنعاً ، حين ترجم لروايات الحديث عند مسلم بقوله: « باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق » ولذلك جاء في شرحه للحديث: (هذا محمول على التعذيب بغير حق ، فلا يدخل فيه التعذيب بحق كالقصاص ، والحدود ، والتعزير ، وغير ذلك) .

وقد أورد الإمام أحمد في المسند عدداً من الروايات لهذا الحديث، نجد في

بعضها شيئاً من التفصيل . قال ولده عبدالله : حدثني أبي قال : حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن ابن حزام «أنه مرّ بأناس من أهل الذمة قد أقيموا في الشمس بالشام . فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : بقي عليهم شيء من الخراج . فقال : أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس . قال : وأمير الناس يومئذ عمير بن سعد على فلسطين ، قال : فدخل عليه ، فحدّثه ، فخلّى سبيلهم».

وأنت ترى أن في هذه الرواية وفي رواية أخرى سبقت ، أن هشاماً رضي الله عنه كان على اهتمام بالغ بهذه القضية ؛ فهو لم يكتف بالتذكير بحديث النبي عليه الصلاة والسلام الذي يقول فيه : « إن الله عز وجل يعذب يوم القيامة الذين يعذبون الناس في الدنيا » ولكن جمع إلى ذلك أن دخل على أمير فلسطين في الشام ـ يومذاك ـ عمير بن سعد ، فحدّثه بشأن أولئك النفر غير المسلمين الذين يعاقبون على تقصيرهم المالي بالوقوف بالشمس ، وبان في ضوء ما أعقب ذلك ، من أن الأمير خلّى سبيلهم : أنه صدع عنده بالحق ؛ وهو أن هذا الصنيع بهؤلاء الناس ـ على بساطته إذا قيس باليسير مما يحدث اليوم ـ تعذيب لهم ، وهو أمر مخالف كل المخالفة لما وجه إليه النبي عليه الصلاة والسلام بعدم تعذيب عباد الله ، ومن وعيده من فعل ذلك بأن الله معذبُه يومِ القيامة ،جزاء ما اجترحت يداه .

وفي خاتمة المطاف : إنه مظهر منير رائع من مظاهر العدالة الإلهية ، وعنوان على أحقية دين الإسلام ، أن يكون من مشاهد القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين : مشهد أولئك الذين يكبكبون في جهنم مآبِ الظلمة الطغاة ،ويسحبون في السلاسل على وجوههم ـ وهم يصطرخون ويُعوِلون ـ جزاء ما اقترفوا من تعذيب عباد الله المستضعفين . ولله عاقبة الأمور ..

يوم القيامة... والموازين القسط

إذا ذكـر أهل البصيرة ، ذوو العقـول الـراجحة الـذيـن لا ينسون الله والـدار الآخرة، فَحَيَّهَلا بأولئك الـذين يتميّزون بسلوك ، يشعر أنهم ـ مـن فرط يقينهم بما جاء عن الله ورسـوله في شأن العاقبـة يوم الحشر الأكبر ـ كمن رأى أهـل الجنة في الجنة مخلّدين ، وكمـن رأى أهل النار في النار مخلَّدين ، ومن ثمَّ كـانت قلوبهم مع الله الذي لا تخفـى عليه خـافية ، ومطمـحُ أنظارهـم ــ وهم يقطعـون أعمارهم في الدنيا ـ أن يكونوا من أهل النجاة والفوز يوم الدين .

قال الحسن البصري سيد أهل زمـانه علماً وعملاً رحمه الله : « إن لله عز وجل عبـاداً ؛ كمن رأى أهـل الجنة في الجنـة مخلَّديـن ، وكمن رأى أهـل النار في النـار مخلّدين . قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمـونة . حوائجهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة. صبروا أيامـاً قصاراً تعقب راحـة طويلة . أمـا الليل : فمصـافَّةٌ أقدامهـم، تسيل دموعهم على خـدودهم، يجأرون إلى ربهم ربنا ربنا !! . وأمـا النهار : فحلماء علماء بررة أتقياء، كأنهم القـداح ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى ، ومـا بالقوم من مرض ، أو خولطوا ! ولقد خالط القوم من ذكر الآخرة أمر عظيم » .

رحم الله الحسن البصري أبا سعيد !! فلقد كشـف لنا عن الأثر العظيم الذي تركه إيمان هؤلاء البررة بالغيب، وعن ذكرهـم للآخرة في علاقتهم بربهم عز وجل، وسلوكهـم الأمثل مـع الآخريـن . وليس ذلـك ببِدع أو مستغـرب ، وهـم في هـذا الصفاء والنقاء ،على إرث من إرث النبوة وحسن التأسي بإمام المتقين عليه الصلاة والسلام ، وسيد الزهاد العابدين .

والحق أن الناظر ببصيرة إلى عظـم المسؤولية يوم الدين ، ومـا ينبني على ذلك من عقوبـةٍ تودي بأهل الضلالـة إلى جهنم وبئس المصير . أو مثوبةٍ تنتهـي بأهل

الإيمان والاستقامة إلى جنة الخلد ومفاز المتقين .. الحق أن الناظر المتبصّر في هذا الأمر الجليل ، لا يسعه إلا أن يزن الأمور بالميزان الأخروي ، ويضع ما يكون من مشاهد القيامة يوم الحساب ، نصب عينيه ، لكيلا تزلّ به القدم في الدنيا ، فيلقى مولاه سبحانه ـ يوم يلقاه ـ وهو خالي الوِفاض من الخير ، ويهلك مع الهالكين . ومن وفّق إلى ذلك : فهو الموفّق الذي يغبطه أهل الصلاح والفلاح . وقدوة الناس في ذلك ، بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان.

قال الإمام الترمذي في كتاب التفسير من سنن الترمذي ـ الجامع الصحيح ـ: حدثنا مجاهد بن موسى ، بغداديٌّ ، والفضل بن سهل الأعرج ، بغداديٌّ ، وغير واحد قالوا : حدثنا عبدالرحمن بن غزوان أبو نوح . قال : حدثنا ليث بن سعد عن مالك ابن أنس عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها : «أن رجلاً قعد بين يدي النبي ﷺ فقال : يارسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني ، وأشتمهُم وأضربهم ، فكيف أنا منهم ؟ قال : يُحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابُك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم ، كان كفافاً ،لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم ، كان فضلاً لك . وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم ، اقتُصَّ لهم منك الفضل . قال : فتنحىّ الرجل ، فجعل يبكي ويهتف . فقال رسول الله ﷺ : أما تقرأ كتاب الله ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ . فقال الرجل : والله يارسول الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم ، أشهدك أنهم أحرار كلهم ». قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن غزوان . وقد روى ابن حنبل عن عبدالرحمن بن غزوان هذا الحديث .

تبارك الله : إن هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه، أفزعه احتمال أن يكون هو المسيىء في قدر العقوبة لمن ولاه الله أمرهم ، فجعل يبكي ويهتف ـ يصيح باكياً ـ

ورأى نجاتـه من الـوقوع فيما يكون مـدعاةً لأن يقتـصّ منه ـ يـوم توضـع الموازين القسط ليوم القيامـة ـ أن يعتق أولئك المملوكين ويجعلهم أحـراراً طلباً لمرضاة الله، وخوفاً من الوقوع في شديد العقاب وأليم العذاب في تلكم الساعات العصيبات، التي يكـون المرء فيها أحوج مـا يكون إلى الحسنـة ، مهما قل شأنها ، لعلهـا تنفعه ـ بإذن الله ــ على طريـق النجاة . وفي ذلـك المنهج القـائم على وزن الأمور بـا لميزان الأخروي ، فليتنافس المتنافسون .

هذا : والذي أشـار إليه الترمذي من رواية أحمد: هـو ما روى رحمه الله بسنده عن عائشـة رضي الله عنها « أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلـس بين يديه فقال : يـارسول الله إن لي مملـوكين يكذبـونني ويخونـونني ويعصـونني ، وأضربهم وأسبُّهم فكيـف أنا منهـم؟ فقال له رسـول الله ﷺ : يحسب مـا خانـوك وعصوك وكذبوك ، وعقابُك إياهم : إن كان دون ذنوبهم ، كان فضلاً لك عليهم . وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم ، كان كفافاً لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم ، اقتُصَّ لهم منك الفضل الذي قِبلك . فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتـف . فقال رسول الله ﷺ : مـا له ؟ ما يقـرأ كتاب الله **﴿ونضع الموازين القسط ليـوم القيامة فلا تظلم نفـس شيئاً وإن كان مثقال حبـة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾** قال الحافظ المنذري : إسناد أحمد والترمذي متصلان ورواتهما ثقات ، عبدالرحمن هذا يكنى أبا نوح ثقة احتج به البخاري ، وبقية رجال أحمد ثقـات احتج بهم البخـاري ومسلم . وأخـرج الحديـث أيضاً ابـن جريـر في «تهذيب الآثار » وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه .

وأنـت واجد أن في التـذكير بهذه الآية الكـريمـة ، ـ في أعقـاب سؤال ذلـك الرجل ــ بغية تنبيهه على أن العمل ــ وإن كان مثقالَ حبة مـن خردل يأت بها الله وتأخذْ مكـانها في تلك الموازين القسط ليوم القيـامة ـ نوعاً مـن البيان العملي منه عليه الصـلاة والسلام لـلآية نفسها ، والتـوجيهِ إلى الاستنارة بـالحقيقة التـي دلّت عليهـا .

وقـد أخبر رسول الله ﷺ ـ وهـو الصادق المصـدوق ـ عـن وقـائع تشهدهـا الخلائق يوم القيامة تحمل مزيداً من التقرير والتأكيد لما جاء في هذه الآية وأمثالها ، مما مرّ بنا في منـاسبة سـابقـة ، مـن ذلك مـا أخـرج الإمـام أحمد بسنده عـن أبي عبدالرحمن الحُبُليّ قال : سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عـز وجـل يستخلـص رجـلاً مـن أمتـي على رؤوس الخلائق يـوم القيامـة، فينشر عليه تسعـة وتسعين سجلاً ؛ كـل سجل مـدَّ البصر ، ثم يقـول : أتنكر مـن هذا شيئاً ؟ أظلمـك كتبتي الحافظـون ؟ قال : لا يارب . قـال : أفلك عذر أو حسنة ؟ قال : فيُبْهتُ الرجل فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم اليـوم عليك ، فتخرج له بطاقة فيهـا (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله). فيقول : أحضروه ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجـلات ؟ فيقول : إنك لا تظلم . قال : فتوضـع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة . قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، قال : ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم ».

ورواه الترمـذي وابن مـاجة مـن حديـث الليـث بن سعـد وقال الترمـذي : حديث حسن غريب ..

وضع الموازين القسط..
والبطاقة العظمى

كان مـن نصح النبي ﷺ لأمته ، دأبـه على إحكام الصلة بين هـدي الكتاب العزيز ، وبين الإنسان المسلم في أقوالـه وأفعاله وسلوكه ـ على وجـه العموم ـ كيما يكون على بصيرة يتخـذ معها أدق المعـايير وأسلمها لـدينه ودنيـاه وآخرتـه . ومن قريـب رأينا صـورة من صور التـوجيه النبـوي الكريم في هـذا حين ذكّر الـرسول صلوات الله وسلامه عليـه ، ذلك الرجل ، الذي شرح له طبيعـة العلاقة بينه وبين مـواليـه على صعيـد الإسـاءة والإحسـان ، وما يخشـى على نفسـه مـن ذلـك يـومَ الحساب.. حين ذكَّـره بقول الله تبارك وتعالى في سـورة الأنبياء : **﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيـامة فلا تظلم نفس شيئـاً وإن كان مثقال حبة مـن خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾** .

وفي هـذا الهدي المحمدي ، مـا يحمل المسلـم على الإنصاف مـن نفسه عنـد التعـامل مـع الآخريـن ، وعدم التعسـف في استعمال الحق ، حرصـاً على سلامـة العاقبة يوم الحساب ، يوم يضع الجبار سبحانه وتعالى الموازين القسط ، وتوفَّى كل نفس ما كسبت ، ولو كان العمل مثقال حبة من خردل ، ولا يظلم ربك أحداً .

وفي تأكيد لهذه الحقيقة نذكر ما أورد السيوطي في كتابه « الدر المنثور » الرواية الأخرى للحديث الذي رواه الترمذي وغيره ـ كما سبق مـن قريـب ـ وهو ما أخرجه الحكيم الترمذي عن زيـاد بن أبي زياد قال : «قال رجل : يـا رسول الله إن لي مالاً وإن لي خدماً وإني أغضب فأعِرُم وأشتِم وأضرب . فقال له رسول الله ﷺ : « توزن ذنوبهم بعقوبتك ؛ فإن كانت سواءً فلا لك ولا عليك ، وإن كانت العقوبة أكثر ، فإنما هو شيء يـؤخذ من حسناتـك يوم القيامة ، فقـال الرجل : أوَّه أوَّه يؤخـذ من

حسناتي ؟ أشهدك يارسول الله أن مماليكي أحرار ، أن لا أمسك شيئاً يؤخذ من حسناتي له ، قال : فحسبت ماذا ؟ ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ..﴾ الآية ؟

قوله : فأعِرُم من العُرام وهو الحِدَّة والشَّرَس يقال : عَرَمَ يعْرُم وعَرَم يعرِم.

وغير خاف أن تلكم الكلمات الهاديات المبينات في سورة الأنبياء ، كما تحمل النذارة ، تحمل البشارة ؛ ولينظر عاقل ماذا يقدم بين يديه ليوم الحساب ، حيث الوزن يومئذ الحق . وقد وقفنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره ـ واللفظ لأحمد ـ على مشهد ذلك الرجل الذي نشر الله عليه رحمته ، فانتفع بالكلمة الطيبة لا إله إلا الله محمد رسول الله، بعد أن كاد ييأس من دخول الجنة ، ورجحت كفة البطاقة التي فيها الشهادتان على الكفة الأخرى التي حملت ما حملت من سجلات السيئات . وما من ريب في أن مشهد ما حصل لهذا الرجل ، مشهد عظيم مبارك، يحمل ما يحمل من البشرى المفرحةِ بفضل الله ، للمؤمن الذي ينطق بالشهادتين مخلصاً صادق العزم على أداء حقهما ؛ طاعةً لله في عبودية صادقة تطبع الحركة والسلوك.

هذا : ونجد في لفظ الحديث عند الترمذي ما يزيد الأمر تأكيداً على تأكيد . قال رحمه الله : حدثنا سويد بن نصر قال : أخبرنا عبدالله عن ليث بن سعد قال : حدثني عامر بن يحيى عن أبي عبدالرحمن المعافِريِّ ثم الحُبُلِيِّ قال : سمعت عبدالله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن الله سيُخلِّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مثلُ مَدِّ البصر . ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : ألك عذر ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتُخرَجُ بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقول: احضر

وزنك: فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : إنك لا تُظلم، قال : فتوضع السجـلات في كفة والبطاقة في كفة . فطاشـت السجلات ، وثقلت البطاقـة ، فلا يثقل مع اسم الله شيء ».

فيقول : يـارب ما هـذه البطاقة ؟ أي البطـاقة الواحـدة مع هـذه السجلات الكثيرة التي بلغت تسعـة وتسعين سجلاً ، وما قدرها بجنبها ومقـابلتها . فقال : فإنك لا تظلم : أي لا يقع علٰيك الظلـم ، لكن لا بد من اعتبار الوزن ، كي يظهر أن لا ظلم عليـك فاحضر الوزن . وهذا منتهـى العدل والفضل ،وسبحـان أرحم الراحمين .

فطـاشت السجـلات : أي خفّـت. وثقلت البطـاقـة : أي رجحت . وجـاء التعبير بالفعل الماضي « فطـاشت وثقلت » لتحقق الوقـوع؛ وهذا كثير في نصوص الكتاب والسنـة . وما أكثـر ما نقـع على هذه السمات البـلاغية في كـلامه المتميّـز وأسلوبه الفذ عليه الصلاة والسلام .

وأخـرج الحديـث ابن مـاجـة في السنـن وابـن حبان في صحيحـه والبيهقـي والحاكم وقال ـــ كما ذكر الحافظ المنذري ـ : صحيح على شرط مسلـم . ولفظ ابن ماجة « يُصـاحِ برجل من أمتـي يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فينشر لـه تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل مدَّ البصر ، ثم يقول الله عز وجل : هل تنكر من هذا شيئاً ؟ فيقول : لا يارب . فيقول : أظلمتك كتبتي الحافظون ؟ ثم يقول : ألك عن ذلك حسنـة ؟ فيُهاب الرجل ، فيقـول : لا . فيقول : بلى إن لك عندنـا حسنات ، وإنه لا ظلـم عليك اليوم ، فتخـرَج له بطـاقة فيها : أشهـد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . قال : فيقول : يارب : ما هذه البطاقة مع هذه السجلات !! فيقول : إنـك لا تُظلم . فتـوضع السجلات في كفـة ، والبطاقـة في كفة فطـاشت السجلات وثقلت البطاقة » قال ابن ماجة قال محمد بن يحيى : البطاقة : الرقعة . وأهل مصر يقولون للرقعة بطاقة .

ومهما يكن من أمـر : فإن من خالطـت قلبَه بشاشةُ الإيمان ، ولم ينـس ـ وهو

يخوض غمار الحياة الدنيا ـ مولاه تبارك وتعالى واليوم الآخر ، لا تزيده البشائر والنذارات إلا حرصاً على الطاعة ، ووزنِ الأمور جليلِها ودقيقها بالميزان الأخروي السليم ، الذي وجّه إليه الكتاب العزيز ، وبين معالمه رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وإذا توافرت للمؤمن هذه الاستنارة ؛ إيماناً وعملاً ، كان على ذُكر من أن الصدق في طلب النجاة في الأخرى ، لابد له من أداء الحقوق ، وإلا أديت إلى أهلها يوم القيامة ذلكم ما أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء ».

ثم إن هذا الصدق ، لا بد أن تذكر معه حقيقة أن دخول الجنة إنما يكون برحمة الله تعالى ـ كما ثبت في صحيح الحديث وأن المنازل تكون بحسب الأعمال ـ. ناهيك عما يجب على المؤمن من قدر النعم حق قدرها ، لكيلا يغترَّ بعمله وينسى عظيم فضل الله بما أسبغ عليه من تلك النعم الظاهرة والباطنة ، فيبوء بالخسران يوم اللقاء .

ومن مشاهد القيامة التي تعطي أبلغ العظات على هذه الساحة : ما روى الطبراني عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «يبعث الله يوم القيامة عبداً لا ذنب له ، فيقول الله : أيُّ الأمرين أحب اليك أن أجزيَك بعملك أو بنعمتي عندك ؟ قال : يارب إنك تعلم أني لم أعصك ، قال : خذوا عبدي بنعمة من نعمي ، فما تبقى له حسنة إلا استغرقتها تلك النعمة ، فيقول : رب بنعمتك ورحمتك ! فيقول : بنعمتي ورحمتي » ..

أما بعد : فهل يرتاب منصف في أن مما يستمطر به الرحمة أن يكون العبد على الجادة ، طاعةً لمولاه ، وأدباً معه سبحانه شاكراً لنعمه ، معترفاً بعظيم فضله ، وأنه ـ جل شأنه ـ لا يظلم عبداً من عباده مثقال ذرة ، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً ؟!

ماذا عن مشهد الغاش لرعيته..
لا يجد ريح الجنة

من عظمة الإسلام وأحقيته ، في كونه الـدينَ الذي رضيه الله لعباده : ما يُرى من التنبيه الشديد في الكتاب والسنة ، على وثاقة الارتباط بين الدنيا والآخرة ؛ وأن الإنسان إذا أخـذ نفسه في الحياة العاجلـة بمنهج أهل الخشية المتقين ، كـان ذلك عنوان نجاته ـ بفضل الله ورحمته ـ في الآجلة دار القرار ، والعكس بالعكس .

والقراءة المتدبرة للخبر الصادق عن مشاهـد القيامة ، تكشف اللثام بوضوح تام عن مدى الارتباط بين تلك المشاهد ـ التي يرفل أصحابها بالنعيم المقيم في دار الخلود ـ وبين استقامتهم في الدنيا على شرع الله ونهج دينه القويم ، كما تضع أيدينا على العلاقة الضـاربة في جذور التاريخ ، بين تلـك المشاهد ـ التـي يكبكب فيها المجرمون على وجـوههم في النار ، وبالسلاسـل يسحبون ـ وبين ما كـانوا عليه في الـدنيا مـن ظلم أنفسهـم ، وظلم عبـاد الله ، ومظاهـرة الكفر وأهلـه على الإيمان وأهله!! واذكر ما شئت هنا من طاعة الهوى والشيطان ، وموالاة أعداء الله !!.

وهذا قمين ـ في الواقع ـ أن يحرك العـزائم ويثير الهمم ، لتوظيف هذه الحقيقة على طريق التربية والإعداد ، وأن تكون موضع عناية الدعاة والمربين ، كي يسهموا في الدلالـة على طريق النجـاة يوم الـدين ! الطريـق الذي يبدأ بـالعمل الصـالح القـائم على الإيمان العميق ، والإخـلاص لله عـز وجل ؛ وينتهـي بجنـة عرضهـا السماوات والأرض أعدَّت لأهل الخشية المنيبين .

وها هـي ذي بعض النصوص المنيرة ، التـي تمدّنا ببعـض من المشاهـد التي تحذر وتنذر أهل الانحـراف من التقصير في أداء الأمانة ، وحقوق مـن استرعاهم الله، أن يغشـوا أو يظلموا . وأنهم إن فعلـوا ذلك وقعـوا في سخط الله ، واحتجـب

جلّ شأنه دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم يوم القيامة ، وباءوا بالحرمان المهين من جنة الخلد ، وكانوا من أهل جهنم وبئس المهاد . قال الإمام أبو داود في «كتاب الخراج والإمارة والفيء » من «السنن» : حدثنا سليمان بن عبدالرحمن الدمشقي قال : حدثنا يحيى بن حمزة قال : حدثني ابن أبي مريم أن القاسم بن مخيمرة أخبره «أن أبا مريم الأزدي أخبره قال : دخلت على معاوية رضي الله عنه فقال : «ما أنعَمَنا بك أبا فلان ـ وهي كلمة تقولها العرب ـ فقلت: حديث سمعته أخبرك به، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من ولاه الله عز وجل شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلَّتهم وفقرهم احتجب الله عنه دون حاجته وخلّته وفقره » قال : فجعل رجلاً على حوائج الناس» وإسناده حسن . قال الإمام الخطابي : «ما أنعمنا بك» يريد ما جاءنا بك ، أو ما أعملك إلينا ، وأحسبه مأخوذاً من قولهم : (نَعَمْ ونُعْمَةُ عين) أي قرة عين . وإنما يقال ذلك لمن يُعتدُّ بزيارته ويُفرح بلقائه ؛ كأنه يقول : ما الذي أطلعك علينا وحيانا بلقائك ....».

لقد أحسن هذا الصحابي الجليل أبو مريم الأزدي ـ وهو عمرو بن مرة الجهني ـ حين أسدى إلى معاوية رضي الله عنه هذه النصيحة العظيمة التي أشرق بها حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأعانه على أن لا يكون يوم القيامة ممن تحلُّ بهم تلك النقمة والعياذ بالله ؛ وسرعان ما انتفع معاوية بالتذكير ، خوفاً من سوء العاقبة يوم الدين .

والحديث خرّجه الترمذي بلفظ « ما من إمام يُغلق بابه دون ذوي الحاجة والخَلَّة والمسكنة ، إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته » فجعل معاوية رجلاً على حوائج الناس . قال : وفي الباب عن ابن عمر .

الخَلَّة : الفقر والحاجة .

ومن الواضح أن هذه الرواية ـ على وجازتها ـ لم يقتصر الوعيد فيها على الأخرى ولكن شمل الدنيا أيضاً ؛ وهذا ما تنطق به في عبارة « إلا أغلق الله أبواب

السماء دون خلته وحاجته ومسكنته » وهو ما نجده عند الإمام أحمد ؛ إذ روى بسنده « أن عمرو بن مرة ـ وهو أبو مريم الأزدي ـ قال لمعاوية : يا معاوية إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من إمام أو والٍ يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسكنة إلا أغلق الله عز وجل بابه دون حاجته وخلته ومسكنته .. » الحديث.

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من ولي من أمر الناس شيئاً فاحتجب عن أولي الضعافة والحاجة احتجب الله عنه يوم القيامة ». فإذا وقر الإيمان في الصدر وصدَّقه العمل بهذا الهدي المحمدي ، كان من وراء ذلك الإسهامُ الكبير في إسعاد الفرد المسلم، وسلامةِ كيان المجتمع ؛ ناهيك عن مشهد الضياء والفضل الإلهي ، الذي يكون أولئك العاملون من أركانه ومقوماته .

أما المعرضون الذين يستبدلون طاعة الهوى والشيطان بهدي النبي عليه الصلاة والسلام : فيعيثون في الأرض فساداً ، ويستمتعون بظلم عباد الله : فليرتقبوا عذاب السموم يوم القيامة ، وأن يكونوا من وقود المشاهد التي تنخلع لها القلوب ، وتطيش الحلوم .

ورضي الله عن أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا في التذكير بهذه الحقيقة نِعْمَ القدوة لكل من تبعهم ويتبعهم بإحسان عبر تاريخنا الطويل ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ؛ كما رأينا في موقف أبي مريم الأزدي مع معاوية رضي الله عنهما ومثل ذلك كثير.

هذا صحابي آخر ممن بايعوا تحت الشجرة ـ وهو أبو علي معقل بن يسار ـ لم يدع أن يصرخ بها واضحةً بريئة من اللبس في وجه عبيد الله بن زياد ، وهو زياد ابن أبيه الذي يقال له : زياد بن أبي سفيان ، وكان إذ ذاك أمير البصرة لمعاوية . قال الإمام البخاري : حدثنا أبو نعيم قال : حدثنا أبو الأشهب. عن الحسن ـ هو

البصري ـ أن عبيد الله بن زياد عاد معِقل بنَ يسار في مرضه الذي مات فيه ، فقال له معقل: إني محدثـك حديثاً سمعته من رسـول الله ﷺ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من عبدٍ يسترعيه الله رعيّةً فلم يَحُطِها بنُصْحِه إلا لم يجد رائحة الجنة ».

ولقد دلت رواية أخرى للبخاري أن الحسـن رحمه الله، كان عند معقل يعوده عندما جاءه ابن زياد يعوده أيضاً ؛ إذ روى بسنده عن الحسن قوله : أتينا معقل بن يسار نعوده ، فدخـل علينا عبيد الله ، فقال له معقل : أحدثك حـديثاً سمعته من رسول الله ﷺ فقال : « ما من والٍ يلي رعيّةً من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرّم الله عليه الجنة ».

وللحديـث بقية نسعد مـن خلالها بنصوص أخـر تزيـدنا تبيانـاً لما يجب من العدل في الـرعية والنصـح لها ، وأن العدول عـن ذلك انصراف عـن طريـق الجنة والنعيم المقيم ....

يُكَبُّ على وجهه في النار..
لأنَّ شرَّ الرعاء الحُطَمة

حقيقة أنه ليس بعد هذه الدار العاجلة الفانية دار ، إلا الجنة أو النار : حقيقة جديرة بالكثير من الشوق المقلق إلى الله عز وجل ، وأن يكون المؤمن ممن تناهم الرحمة ويفوزون بجنات تجري من تحتها الأنهار ، لهم فيها النعيم المقيم . كما أنها جديرة بالكثير من الخوف المزعج ، فرقاً من سوء العاقبة والخلود في جهنم، وبئس المصير .

وإذا علمنا أنه : ما من طريق من طُرق الخير التي مابد من سلوكها ، طلباً للنجاة من عذاب الله ، والفوز بجنة الخلد : إلا أوضح معالمها ورغب بها سيد العالمين رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وأنه : مامن طريق من طرق الغواية والشر ، التي يضل سالكها ، وتودي به إلى سوء المنقلب ، حيث يبوء بالخسران المبين ويدخل النار مع الداخلين ، إلا أوضح مسالكها ، ورهَّبَ منها صلوات الله وسلامه عليه .. إذا علمنا ذلك : كان لزاماً أن ندين أنفسنا ونعمل لما بعد الموت ، وأن نذكر أن منهج الهداية النبوي الذي جعل الأمة على بينة من أمور الآخرة، وتركها على بيضاء نقية ليلُها كنهارها ، حجةٌ في أعناق العباد ، وأمانة لا يتخلف عن أدائها إلا من سَفِهَ نَفْسَه ، وضلّ سعيُه واستجاب للدعوات الشيطانية ، التي تقذف به إلى طريق الهالكين .

ومن الأمور التي حذر رسول الله ﷺ ، وأنذر أصحابها جهنم وبئس المهاد ، إن هم انحرفوا عن الطريق السوي ، وبشرهم بحسن الأُحدوثة وسلامة العقبى يوم الدين إن هم استقاموا على الطريقة : أمرُ النَّهجِ الذي ينبغي سلوكه لمن ولاّه الله شيئاً من أمور المسلمين ، وكيف أن ألواناً من مشاهد القيامة ، توحي بالذي كان

عليه أصحابها في تعاملهـم مع الرعية ؛ عطاءً أو منعاً ، نصيحـة أو غشاً ؛ والعاقل من انتفع بالبشارة والنذارة ، ولم يغفل عن دلالة الترغيب والترهيب .

وقد كـان فيما أوردت من قبـل ، ما روى الإمام البخـاري من قـول الصحابي الجليل معقل بـن يسار المزني لعبيد الله بن زياد ــ وقد جاء يعوده في مـرضه الذي مـات فيه ــ إني سمعت رسـول الله ﷺ يقول : « مـا من عبـد يسترعيه الله رَعِيَّـةً ، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة » .

وفي متابعة للرحلة مع النصوص: نقرأ ما جاء في صحيح مسلم من قوله رحمه الله: حدثنا شيبان بـن فرّوخ قال: حدثنا أبو الأشهب عـن الحسن ـ هو البصري ـ قال: (عاد عبيد الله بن زياد معقل بن يسار في مرضه الذي مات فيه . قال معقل: إني محدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لو علمت أن لي حياة ما حدثتك . إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرّم الله عليه الجنة ») .

إنـه لمشهد بـالـغ النذارة ؛ يُفترض أن يستـوقف مـن أوتـوا حظاً مـن الإيمان الصادق بيـوم الحساب ، وكـانوا في الـدنيا على الثغـر الذي عيّنـه رسول الله عليـه الصلاة والسلام ؛ فقد تسبب الانحراف ـ كما يدل النص ـ في أن يحرم أصحابه من الجنة ويُقذفوا في نار السعير ، وتعبير «إلا حرم الله عليه الجنةَ » بهذا الحصر ، جدير بالكثير من التأمل .

وهذه رواية أخرى لمسلم ، تدل على أن عبيـد الله قد سأل معقلاً رضي الله عنه وهو يعوده ، وأنه تمنى لو أنه حدث بالحديث المومى إليه من قبل ، ولفظها: (دخل عبيدالله بن زياد على معقل بن يسار وهو وجِـع فسأله ، فقال : إني محدثك حديثاً لم أكن حدثتكـه : إن رسول الله ﷺ قال : «لا يسترعي الله عبـداً رعية يموت حين يموت ، وهو غاش لها إلا حـرّم الله عليه الجنة » قال : ألا كنت حدثتنـي هذا قبل اليوم ؟ قال : ما حدثتك ، أو لم أكن لأحدثَك). وله في رواية أخرى « إني محدثك

بحديث لولا أني في الموت لم أحدثك به ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يَجْهَد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة »). وأخرج الإمام أحمد عن معقل بن يسار قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ليس من والي أمة قلّت أو كثرت ، لا يعدل فيها ، إلا كبّه الله تبارك وتعالى على وجهه في النار » وجاء في رواية أخرى له «.. من استرعى رعية فلم يُحطهم بنصيحته لم يجد ريح الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة مائة عام » وأخرجه الدارمي .

وفي كلام على فقه الحديث أوضح الإمام النووي أن قوله ﷺ « حرَّم الله عليه الجنة » فيه التأويلان المتقدمان في نظائره !! أحدهما ـ أنه محمول على المستحلّ والثاني ـ حرَّم عليه دخولها مع الفائزين السابقين . ومعنى التحريم هنا : المنع قال القاضي عياض رحمه الله : (معناه بَيِّنٌ في التحذير من غش المسلمين لمن قلّده الله تعالى شيئاً من أمرهم ، واسترعاه عليهم ، ونصبه لمصلحتهم في دينهم أو دنياهم؛ فإذا خان فيما اؤتمن عليه ، فلم ينصح فيما قُلِّده ، إما بتضييعه تعريفهم ما يلزمهم من دينهم وأخذِهم به ، وإما بالقيام بما يتعين عليه من حفظ شرائعهم والذب عنها لكل متصَدٍ لإدخال داخلة فيها ، أو تحريفٍ لمعانيها ، أو إهمال حدودهم وتضييعِ حقوقهم ، أو تركِ حماية حوزتهم ومجاهدةِ عدوهم ، أو تركِ سيرة العدل فيهم فقد غشَّهم) . قال القاضي : (وقد نبَّه ﷺ على أن ذلك ـ يعني غشّ الرعية ـ من الكبائر الموبقة المبعدة عن الجنة والله أعلم)..

وأما قول معقل رضي الله عنه لعبيد الله بن زياد : (لو علمت أن لي حياةً ما حدثتك) وفي الرواية الأخرى (لولا أني في الموت لم أحدثك) فقال القاضي عياض رحمه الله : (إنما فعل ذلك لأنه علم قبل هذا أنه ممن لا ينفعه الوعظ كما ظهر منه من غيره، ثم خاف معقل رضي الله عنه من كتمان الحديث ورأى تبليغه ، أو فَعَله لأنه خافه لو ذكَّره في حياته يما يهيِّج عليه هذا الحديث ويثبته في قلوب الناس من سوء حاله) . قال الإمام النووي رحمه الله : (هذا كلام القاضي والاحتمال الثاني هو الظاهر، والأول ضعيف ؛ فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يسقط

باحتمال عدم قبوله ـ والله أعلم ـ).

والذي أشار إليه القاضي من أن معقلاً علم قبل هذا أن ابن زياد ممن لا ينفعه الوعظ ـ وهذا من السوء بمكان ـ كما ظهر منه مع غيره : واضح في بعض الوقائع التي نذكر منها ما روى مسلم بسنده عن الحسن البصري رحمه الله (أن عائذ بن عمرو ــ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ـ دخل على عبيد الله بن زياد فقال : أي بنيَّ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن شر الرعاء الحطمة » فإياك أن تكون منهم . فقال له : اجلس فإنما أنت من نُخالة أصحاب رسول الله ﷺ !! قال : وهل كان لهم نُخالة ؟! إنما النُخالة بعدهم وفي غيرهم).

الحُطَمة : بوزن هُمَزَة : الظلوم الشديد الوطأة . وقال ابن الأثير في النهاية : هو العنيف برعاية الإبل في السوق والإيراد والإصدار ، ويُلقي بعضها على بعض ويعسفها ، ضربه ﷺ مثلاً لوالي السوء .

ويقال أيضاً : حُطَم بلا هاء .. والحُطم من أبنية المبالغة ، وهو الذي يكثر منه الحطم . ومنه سميت النار الحُطمة لأنها تحطم كل شيء . ومنه الحديث «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً».

وصلاة الله وسلامه على سيدنا محمد معلم الناس الخير وعلى من اتبع سنته وانتفع بهديه على أي ثغر كان من ثغور المسلمين .

أهل العدل وأهل الجور.. مشاهد ومشاهد

لا يسأم المرء من حديث أهل الخشية ومواعظهم النابعة من القلب ، تلك التي تصدر عنهم، وفيها من الحياة ما يشعرك بأنهم يتكلمون ، وكأن الجنة والنار ـ منهم على مرمى البصر ، يرونها رأي عين. وفي الجَعْبة اليوم كلمات نيرات لواحد من هؤلاء البررة الذين أخذوا أنفسهم بهدي النبي عليه الصلاة والسلام فكانوا يمشون في الأرض أطهاراً مباركين ، لما يزين سلوكهم من الخوف والرجاء وصدق مراقبة الله تعالى ، واليقين بأحقية اليوم الآخر ، وما يكون فيه. ذلكم هو الإمام المحدث الثقة الرحّال في طلب العلم النافع ، أبوعمران موسى بن عبدالحميد الجوني البصري نزيل بغداد ، والمتوفى سنة سبع وثلاثمائة . أخرج أبو نُعيم في الحلية بسنده عن الإمام أحمد قال : حدثنا عفان قال : حدثنا همام قال : سمعت أبا عمران الجوني يقول : «ما من ليلة تأتي إلا وتنادي اعملوا ما استطعتم من خير ، فلن أرجع إليكم إلى يوم القيامة».

وفي تذكير بحقيقة أنه ليس بعد هذه الدنيا دار إلا الجنة أو النار ؛ قال فيما أخرج أبو نعيم من طريق أحمد أيضاً عن جعفر قال : سمعت أبا عمران الجوني يقول : « إنه ليس بين الجنة والنار طرق ولا فياف ولا منزل هنالك لأحد. فمن أخطأته الجنة صار إلى النار ».

وتراه ـ وقد عملت مشاهد الجبابرة الظالمين وهم يتقلبون في النار ، ومشاهد المتقين الأبرار وهم يرفلون بنعيم الجنة على سرر متقابلين ـ عملها في نفسه حتى كأنه يشهدها ماثلة أمام ناظريه يُحِسُّ نعيم الجنة ويصلى نار السعير .. تراه يقول : «بلغنا أنه إذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى بكل جبار وكل شيطان وكل من يخاف الناس من شره فيوثقون في الحديد ، ثم أمر بهم إلى النار ثم أوصدها عليهم ـ أي أطبقها ـ فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرارٍ أبداً ، ولا والله ماينظرون إلى أديم

سماء أبـداً ، ولا والله لا تلتقـي جفـون أعينهم على غمـض نـوم أبـداً ، ولا والله لا يذوقـون فيها بـارد شراب أبداً . قال : ثـم يقال لأهل الجنـة : افتحوا الأبـواب فلا تخافوا شيطاناً ولا جباراً ، و ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتـم في الأيام الخالية ﴾. قال أبوعمران : هي والله ياإخوتاه أيامكم هذه ».

ولا غرابة في أن تعيـد كلمات أبي عمران هذه إلى الذاكرة، ما وقفتنـا عليه من قريـب بعض الأحاديث ــ برواياتها المختلفـة ـ من مشهـد أولئك الذين خـانوا الأمانة مع من ولاهم الله أمرهم، فلم يروحوا بسبب ذلك رائحة الجنة ، وانقلبوا إلى الجحيم خاسرين .

ونحن على موعد مع مشهد من مشـاهد يوم الحساب ، لأولئك الذين اتخذوا من العدل فيمن استرعاهم الله إياهم، والنصيحة لهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، طريقاً انتهت بهم ـ بفضل الله ورحمته ـ إلى أن يكونوا عند الله يوم يقوم الناس لرب العالمين، على منـابر من نور عـن يمين الرحمن ـ وكلتا يـديه يمين ـ. وأكرم بـه من مشهـد يبعـث في النفس معـاقـد الـرجاء ، ويـذكـي نـار العزيمـة على الصـلاح والإصلاح ــ أن لو صدقـت النوايا ـ عنـد من يوليهـم الله شيئاً من أمـور الأمة .. ويـاحسن العـاقبة يـوم الحشر الأكبر لمن يعدلـون ولا يظلمون ، وينصحـون ولا يغشُّون، وعلى مظاهر الدنيا وزخارفها يستعلون .

قال الإمام مسلم رحمه الله :حدثنا أبوبكـر بن أبي سعيد وزهير بن حرب وابن نمير قالوا : حـدثنا سفيان بن عيينة عن عمـروٍ ـ يعني ابن دينار ـ عـن عمرو بن أوس عن عبدالله بن عمـرو قال ابن نمير وأبوبكر : يبلغ بـه النبي ﷺ وفي حديث زهير قال : رسـول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابـر من نـور عن يمين الرحمن عز وجل ـ وكلتا يديه يمين ـ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلوا» وأخرجـه أحمد كما أخرجه النسائي مـن طريق محمد بـن آدم ولفظه « إن المقسطين عند الله تعـالى على منابـر من نـور على يمين الرحمن الـذين يعـدلون في حكمهـم وأهليهم وما ولوا ». قال محمد في حديثه : « وكلتا يديه يمين » .

المقسطون : هم العادلون . وقد فسره في آخر الحديث، والإقساط ، والقسط بكسر القاف : العدل : ، يقال : أقسط إذا عدل قال الله تعالى : ﴿**وأقسطوا إن الله يحب المقسطين**﴾ وقال سبحانه ﴿**قل أمر ربي بالقسط**﴾ والقسط : الميزان سمي به من القسط : العدل . ويقال : قسط يقسط بفتح الياء وكسر السين قُسوطاً وقَسطاً بفتح القاف فهو قاسط ، وهم قاسطون : جاروا ، من القسط وهو الجور . قال تعالى: ﴿ **وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً** ﴾.

والمنابر : جمع منبر سمي به لارتفاعه . قال القاضي عياض : (يحتمل أن يكونوا على منابر حقيقةً على ظاهر الحديث ، ويحتمل أن يكون كناية عن المنازل الرفيعة). قال الإمام النووي : (والظاهر الأول ، ويكون متضمناً للمنازل الرفيعة، فهم على منابر حقيقة ومنازلهم رفيعة) .

وأما قوله ﷺ: « عن يمين الرحمن » فهو من أحاديث الصفات نؤمن به ـ كما ورد النص ـ ولا نتكلم في تأويله .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» فمعناه ـ كما يقول الإمام النووي رحمه الله ـ (أن هذا الفضل إنما هو لمن عدل فيما تقلده من خلافة ، أو إمارة أو قضاء ، أو حسبة ، أو نظر على يتيم أو صدقة ، أو وقف، وفيما يلزمه من حقوق أهله وعياله ونحو ذلك ، والله أعلم) « وماوَلُوا » بفتح الواو وضم اللام المخففة : أي كانت لهم عليه ولاية .

ويسلمنا هذا المشهد الغني بالدلالة على ماهؤلاء البررة ـ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا ـ من كرامة عند الله الذي لايظلم عنده مخلوق ـ إلى مشهد القرب من الله لأولئك المقسطين ، ومشهد البعد من الله لأولئك الجائرين الظالمين . قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم قال : حدثنا فضيل عن عطية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحبَّ الناس إلى الله عز وجل يوم القيامة وأقربهَم منه مجلساً : إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى

الله يوم القيامة وأشدَّهم عذاباً : إمام جائر ».

كم ذا تجادل هذه الحقيقة أهل الغفلة الذين ينسون الله واليوم الآخر ،إذا ولوا أمراً من أمور المسلمين ، إنها حقيقة صارخة في وجه كل جائر عدوٍ للحق والإنسان ؛ فكما أن الذين أكرمهم الله بأن كانوا على الجادة ؛ عدلاً ووقوفاً عند حدود الله ،وبعداً عن كل ما فيه العدوان على إنسانية الإنسان وحقوقه : أحبُّ الناس إلى الله وأقربهُم منه مجلساً يوم القيامة ، فهؤلاء الظلمة المنكوسةُ قلوبهم ، العميُ بصائرهم ، المنتهكون لحرمات الله ولكرامة الإنسان وحريته ، أبغض الناس إلى الله وأشدهم عذاباً ـ وفي رواية ـ وأبعدهم منه مجلساً يوم القيامة .

فقد جاءت الرواية عند الترمذي ، تقرر أن هؤلاء الأناسيَّ أبعد الناس مجلساً من الله يوم الحساب . أخرج رحمه الله بسنده عن أبي سعيد أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل . وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر » قال : وفي الباب عن عبدالله ابن أبي أوفى قال أبوعيسى :حديث أبي سعيد حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

اللهم أصلح الراعي والرعية وهيىء للمسلمين من أمرهم رشداً ، وصلِّ على عبدك ورسولك محمد بن عبدالله إمام الهداة وسيد العادلين المنصفين وعلى آله وصحابته ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين .

يخافون سوء العقبى..

ويبكون بُعد السفر وقلة الزاد

يوم تبلى السرائر ، ويعرف المجرمون بسيماهم ، فيؤخذ بالنواصي والأقدام ... يزداد المؤمنون يقيناً بأحقية ما كانوا عليه من الإيمان في الدنيا ، بل يرون أن ذلك ـ والحمدلله ـ حق اليقين ، ويدركون تمام الإدراك أن كل ما قدموه في العاجلة من طاعة وعمل صالح ، يبدو ضئيلاً أمام ما ينالون من الفضل العظيم الذي يتجلى الله به على عباده الصالحين ، ولا تسل عما يغمرهم من الفرح والغبطة يومذاك ، وكم يتمنون لو أنهم ازدادوا طاعة على طاعة ، وجهاداً على جهاد ، وصبراً على صبر ، فالله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

ولا مرية في أن ما يصير إليه هؤلاء المنيبون المخبتون إلى ربهم ، من كريم الفضل والإحسان : عنوان مشرق على نسبهم الأصيل إلى تلك المشاهد التي يغمرها الرضى وجزيل العطاء، ومَعْلَمٌ بارز يدل على سلامة ما كانوا عليه من نهج سوي، يديمون معه مراقبة الله عز وجل ، ويضعون نصب أعينهم ما يمكن أن تكون عليه العقبى يوم الدين ، وأنه مادامت الرُّجعى إلى الله ، فالواجب مراعاة ذلك في كل صغيرة وكبيرة ، أعمالُ الجوارح وأعمالُ القلوب في ذلك على حدٍّ سواء ، وإلا ضلَّ سعي المرء ، وخاب فأله ، وكان في الآخرة من الخاسرين .

هذا عامر بن عبدالله المعروف بابن عبد قيس العنبري ، أول من عرف بالنسك من عُبَّاد التابعين بالبصرة ، ومن أقران أويس القرني ، وأبي مسلم الخولاني: «يبكي مرة وهو مريض ، فيقال له ـ كما روى صاحب الحلية ـ ما يبكيك وقد كنت وكنت ؟ فيقول : مالي لا أبكي !! ومن أحق بالبكاء مني ، والله ما أبكي على الدنيا ، ولا جزعاً من الموت ، ولكن بعد سفري ، وقلة زادي ، إني أمسيت في

صعود وهبوط : جنة أم نار ؛ فلا أدري إلى أيهما أصير » .

وذلكم شأن أولئك الربانيين أهل القرب من الله الذين يحبهم ويحبونه ؛ فقد كان ـ رحمه الله يقول : « أحببت الله عز وجل حباً سهَّل عليَّ كلَّ مصيبة ، ورضاني في كل قضية ؛ فما أبالي مع حبي إياه ما أصبحت عليه وما أمسيت» وهذا لا ينافي أن العافية أوسع للعبد ، ولكن شديد حبه لمولاه ، يسهل عليه كل مصيبة، ويجعله من الصابرين .

ولعل من الخير اصطحاب شذرات من حديثه عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وهي شذرات تؤكد ما أسلفنا ، من أن ما تفيض به مشاهد الفضل والإحسان في دار المتقين يوم القيامة : برهان ناطق على صدق النسب بين ما كان عليه أهل البر في دار العمل والفناء ، وما آل إليه أمرهم من كريم العقبى في دار الجزاء والبقاء .

قال عامر ـ أجزل الله مثوبته ـ : « رأيت نفراً من أصحاب النبي ﷺ وصحبتهم ، فحدثونا أن أصفى الناس إيماناً يوم القيامة أشدُّهم محاسبة لنفسه في الدنيا ، وأن أشد الناس فرحاً في الدنيا ، أشدُّهم حزناً يوم القيامة . وأن أكثر الناس ضحكاً في الدنيا أكثرهم بكاء يوم القيامة . وحُدِّثنا أن الله فرض فرائض ، وسنَّ سنناً ، وحد حدوداً ؛ فمن عمل بفرائض الله وسننه واجتنب حدوده ، دخل الجنة بغير حساب، ومن عمل بفرائض الله وسننه وركب حدوده ، ثم تاب وأناب، استقبل الشدائد والزلازل والأهوال ، ثم يدخل الجنة . ومن عمل بفرائض الله وسننه وركب حدوده ، ثم مات مصراً على ذلك !! لقي الله مسلماً إن شاء غفر له وإن شاء عذبه » مات عامر رحمه الله في نحو سنة ٥٥ ببيت المقدس .

ولما كان الصحابة رضي الله عنهم خير هذه الأمة ـ بعد نبيها عليه الصلاة والسلام والمؤتمنين على نقل الدين الحق إليها ـ فالواجب أن يُستنَّ بهم وتؤخذ النفوس بما كانوا عليه من النهج القويم ؛ إيماناً وعلماً وعملاً وجهاداً . قال عبدالله

ابن عمر رضي الله عنهما : «من كان مستَنّاً فليستنَّ بمن قد مات ، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هـذه الأمة ، أبرَّها قلوباً ، وأعمقَهـا علماً ، وأقلَّها تكلفاً . قوم اختارهم الله لصحبـة نبيه ﷺ ، ونقل دينه؛ فتشبهـوا بأخلاقهم وطـرائقهم ؛ فهم أصحـاب محمـد ﷺ . كـانوا على الهدى المستقيـم والله رب الكعبـة . يـا ابـن آدم صاحب الدنيا ببدنك وفارقها بقلبك وهمِّك، فإنك موقوف على عملك ، فخذ مما في يديك لما بين يديك عند اموت ، يأتك الخير » .

والواقع أن الصحابة رضوان الله عليهـم ، كما كانوا كلفين بالاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام في حياتهم الدنيا ، كانوا شديدي الحرص على كل ما فيـه تجنب الوقوع فيما يسيء إلى العقبـى في الآخرة يوم اللقاء ، ولقـد أغنت مشاهـد القيامة ومـا فيها ، هذا المسلك عنـدهم، وظهر ذلـك على تصرفاتهم في دقيق الأمور وجليلها ، وبـاتوا خير قدوة ـ بعد رسول الله عليـه الصلاة والسلام ـ لكل من ترقى همته لأن يكون تابعاً لهم بإحسان عبر تاريخنا الطويل ، وحتى يأذن الله بانقضـاء الدنيـا . وقد مـرت بنا نماذج كثيرة لهذه المنقبـة العظيمة فيما مضـى، وقال الإمام مسلم : حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة قال : حدثنا وكيع بن الجراح قال: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيـس بن أبي حازم عن عدي بن عَميرة الكندي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مِخْيَطاً فما فـوقه كان غلولاً يأتي به يـوم القيامة . قال : فقام رجـل أسودمن الأنصار كأني أنظر إليه فقال: يارسول الله اقبل عني عملك. قال: ومالك؟ قال: سمعتك تقول : كذا وكذا . قال : وأنا أقوله الآن . من استعملناه منكم على عمل فليجيء بقليله وكثيره ، فما أوتي منه أخذ ، وما نهي عنه انتهى» .

المخيـط بكسر الميم وسكـون الخاء : الإبرة . والغلـول : السرقـة من الغنيمـة والفيء ؛ وهو أمـر رهَّب منه النبي ﷺ ترهيبـاً شديداً كما مر في منـاسبات خلت. وأصل ذلك في كتاب الله عز وجـل : قال الله تعالى في سورة آل عمران : ﴿وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا

يظلمون﴾ قال العلماء ﴿ يأت بما غل يـوم القيامة ﴾ أي حاملاً لـه على عنقه كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة .

إن مشهد الغل يوم القيامة ـ وهو يحمل ما غل على عنقه والناس قيام ينظرون ـ أفزع ذلـك الرجل من الأنصـار ؛ إذ خشي رضي الله عنه ـ وهو يلي أمـراً من أمور المسلمين لرسول الله ﷺ ـ أن يقع فيها هو بمثابة الغاول؛ فيفتضح يوم القيامة على رؤوس الاشهـاد؛ فاعتـذر إلى رسول الله عـن متابعـة الـولاية وقـال : «اقبل عنـي عملك» . وقوّى ذلك في نفسه ـ والله أعلم ـ ما كان من الدقة في الوعيد مهما كان قدر الذي غُلَّ حتى لو كان إبـرة فما فوقها . وأخرج الحديث أبوداود في سننه وأحمد في المسند بلفظ «لا فهو غُلٌّ يأتي به يوم القيامة » ..

وفي رواية أحمد ما يـدل على أن المعتذر عن الولاية سعـد بن عبادة رضي الله عنه. قال عبدالله بن الإمام أحمد : حدثني أبي مرتين قال : حدثنا يحيى بن سعيد عن إسماعيل بن خالد قال : حدثني قيس عن عدي بن عميرة الكندي قال : قال رسول الله ﷺ : « من عمـل لنا منكم علي عمل ـ وفي رواية مـن استعملناه منكم على عمل ـ فكتمنا مخيطاً فما فوق فهو غُلّ يأتي به يوم القيامة ، قال : فقام رجل من الأنصار أسود ـ قال مجالد : هو سعد بن عبادة ـ كأني أنظر إليه قال : يارسول الله اقبل عني عملـك فقال : وما ذاك ؟قال : سمعتـك تقول كذا وكذا . قـال : وأنا أقول ذلـك الآن : من استعملناه على عمـل فليجىء بقليلـه وكثيره ؛ فما أوتي منه أخذ وما نهي عنه انتهى » .

هكذا كان انتفاع سعد رضي الله عنه بدلالة ذلك المشهد المروّع ، فرجا رسول الله أن يقبل عنـه عمله ، خوفاً على أخـراه أن تسوء ، وينالـه الخزي بين يدي رب العالمين .

وما أكثـر العبر والدروس في حيـاة أولئك الـرجال الـذين كـانوا لا يعـدلون بالميـزان الأخروي ميزانـاً آخر ، ولم يَحُلْ ذلك دونهم ودون أن يبنـوا الحياة على خير وجه وأكمله.

مشاهد الفضل... والبشريات

لا يعدم الناظر في نصوص السنة التي تحمل للأمة هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، في شأن الدار الآخرة وما يتحقق فيها من المثوبة للطائعين المخبتين ، ومن العقوبة للضالين المجرمين .. لا يعدم أن يقع على الكثير من المبشرات التي تضاعف الأمل والرجاء ، بجانب ما يكون من المنذرات التي تثير كوامن الفزع والخوف ؛ ومشاهد هذه وتلك ناطقة بما ينير الطريق ويشدُّ إلى ساحة الفوز والنجاة .

وحري بالمؤمن ـ كما أسلفت غير مرة ـ أن يكون على الجادة في موقفه من البشارة ... والنذارة ... ومن الترغيب والترهيب .

وإذا كان الصادق المصدوق ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا ينطق عن الهوى: فالخير كل الخير في التبصر بما يقول ، وبما يفعل ، وبما يقر ، وحين يحرص المؤمنون على ذلك ويلتمسون الطريق إليه ؛ سلوكاً في أنفسهم ، وتربية وتعليماً وإعلاماً في المجتمع ، يكون ذلك عنوان التوفيق في الدنيا ويوم الدين .

وقد مر بنا في حلقات مضت عدد من النصوص المبشرات . ومن المبشرات أيضاً ما أخرج الترمذي في كتاب صفة جهنم من السنن « الجامع الصحيح » عن الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة ؛ يؤتى برجل فيقول : سلوا عن صغار ذنوبه وأخبئوا كبارها ، فيقال له : عملت كذا وكذا يوم كذا وكذا عملت كذا يوم كذا وكذا : قال : فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة قال : فيقول : يارب لقد عملتُ أشياء ما أراها ههنا . قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ».

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه مسلم ولفظه « إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها ؛ رجل يؤتى به يوم القيامة . فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها ، فتعرض عليه صغار ذنوبه ، فيقال : عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا . وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا .فيقول: نعم ، لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه. فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة . فيقول : رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا ؛ فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ».

وليس من مُعاد الحديث التذكير بأن هذا الذي كشف عنه اللثام رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يدل ـ أول ما يدل ـ على سعة رحمة الله تعالى بعباده ، وعلى ما للكلمة الطيبة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ـ حين يستودعها الإنسان قلبَه صادقاً مخلصاً ـ من أثر واضح في عقباه يوم الدين ؛ فتراه قد رحمه الله تعالى بسببها، بعد أن تطهر من الأدران في جهنم ، وأعطاه مكان كل سيئة حسنة ، وأدخله جنة الخلد ، يتمتع فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب واحد من عباد الله .

وإذا كان الأمر كذلك : فما أجدر الإنسان الذي خالطت بشاشة الإيمان قلبه، أن يقدر هذه القضية الكبرى قدرها ، ويسعى لمحبة الله ورسوله سعيها ، وبذلك تكون البشريات قد زادته حرصاً على حرص ، في العمل على تحصيل رضوان الله تعالى ، وأن يكون يوم الحشر ممن ينشر الله عليهم رحمته ، ويغمرهم بفيض إحسانه ويجعلهم في زمرة الناجين من النار ، الفائزين بالنعيم في دار القرار .

وقال الإمام مسلم : حدثنا حجاج بن الشاعر قال : حدثنا الفضل بن دكين قال: حدثنا أبو عامر (يعني محمد بن أبي أيوب) قال: حدثني يزيد الفقير قال: كنت قد شغفني رأيٌ من رأي الخوارج ، فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد أن نحجَّ ، ثم نخرجَ على الناس ، قال : فمررنا على المدينة فإذا جابر بن عبدالله

يحدث القوم ــ جالس إلى سارية ـ عن رسول الله ﷺ . قال : فإذا هو قد ذكر الجهنميين . قال : فقلت يا صاحب رسول الله ! ما هذا الذي تحدثون والله يقول: ﴿إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ ويقول: ﴿كلما أردوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾ فما هذا الذي تقولون ؟ فقال : أتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم ! قال : فهل سمعت بمقام محمد عليه الصلاة والسلام ؟ (يعني الذي يبعثه فيه) قلت: نعم. قال: فإنه مقام محمد ﷺ المحمود الذي يخرج الله به من يخرج . قال : ثم نعت وضعَ الصراط ، ومَرَّ الناسِ عليه . قال: وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك . قال: غير أنه قد زعم أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها . قال : يعني فيَخرجون كأنهم عيدان السماسم قال : فيدخلون نهْراً من أنهار الجنة ، فيغتسلون فيه ، فيخرجون كأنهم القراطيس ، فرجعنا قلنا : ويحكم أترون الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ ؟ فرجعنا فلا والله ما خرج منا غيرُ رجل واحد » أو كما قال أبو نُعيم .

رأي من رأي الخوارج : وهو أنهم يرون أن أصحاب الكبائر يخلدون في النار ولا يخرج منها من دخلها ـ خلافاً لما عليه أهل السنة والجماعة ـ وقوله : «ثم نخرج إلى الناس» أي مظهرين مذهب الخوارج ندعو إليه ونحثُّ عليه . وظاهر أنه قد رجع عن ذلك بما ثبت من حديث رسول الله ﷺ الذي سمعوه من جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ، والذي يدل بوضوح على عدم خلود أهل الكبائر في النار ، كما تزعم الخوارج .

وسبحان من هو على كل شيء قدير ، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون؛ فهؤلاء الذين رزقوا أن يكونوا من أهل الكلمة الطيبة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) بعد أن يتطهروا من معاصيهم بالنار يُخرَجون منها كأنهم عيدان السماسم ، وبعد أن يغتسلوا بنهر من أنهار الجنة ، يخرجون كأنهم القراطيس وهي الصحف التي يكتب عليها ، وشبهوا بالقراطيس لشدة بياضهم بعد اغتسالهم وزوال ما كان عليهم من السواد ـ والله أعلم ـ . والسماسم : جمع سمسم وهو نبات يزرع في بلاد الشام يستخرج منه الشيرَج ـ وتقول العامة : السيرَج . فإذا

قلعت عيدانه وتركت ليؤخذ حبها تراها دِقاقاً سوداً كأنها محترقة .

ومن بلاغتـه ﷺ وعظيم الدلالة على فضـل الله عز وجل : أنه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ شبه بهذه العيدان هؤلاء الذين يخرجون مـن النار وقد امتُحشوا أو امتَحشوا : احترقت جلـودهم وظهور عظامهم ، حتى أصبحـوا على تلك الصورة من السواد .

هذا: وقـد رجع يـزيد بن صهيـب المكي راوي الحديث الـذي كان يـدعى بالفقير ـ لأنه كان يشكو فقار ظهره ـ. رجع عن رأي الخوارج ـ كما سبق ـ ومعه من كان الـرفقة إلا واحداً . ذلكم قولـه : «فرجعنا فلا والله ما خـرج منا غير رجل واحد» أي رجعنا من حجنا ولم نتعرض لـرأي الخوارج بل ، كففنا عنه وتُبنا منه إلا رجلاً منا، فإنه لم يوافقنا في الانكفاف عنه .

وما من ريب في أن انصيـاعهم إلى ما دلَّ عليه حديث الـرسول عليه الصلاة والسلام ، مـؤذن بصدقهـم ، وأنهم لا يسيرون مع الهوى .. بـل يَدَعـون خيرتَهم لما جاء عن نبيهم الذي لا ينطق عن الهوى ، صلوات الله وسلامه عليه .

الأمانة والرحم.. على جنبتي الصراط

لا يرتـاب منصف رزق حسن الإنابـة ، ورقة القلب ، أن مـن دلائل الهداية والتوفيق : ما ينشرح له صدر المؤمن من الإقبال على صالح العمل ، وما تطيب به نفسه من صدق الاهتمام بكل ما هو مـن أمور الآخرة بسبب ... ثم ما يترتب على ذلك ـ بفضل الله ورحمته ـ من الفوز بموعود الله عبادَه الصالحين ، يوم تزلف الجنة للمتقين ، وتبرَّز الجحيم للغاوين .

وعنـدما تطيـب النفس بهذا النهـج الميمـون ، وينشرح الصدر لملازمتـه على صعيد العلم والعمـل ، فقل : الخير هناك ، ويخرج الأمر عن أن يكـون دعوى بلا دليل ـ كما هو شأن الساهين اللاهين ـ إلى أن يكون ائتماراً بما أمر الله ، واجتناباً لما عنه نهى ، وخشيةً له سبحـانه بالغيب ، وانفعالاً مثمراً بما جـاء به الخبر الصادق عن القيامة وما فيها ، وعما يكون في تلكم الساعات العصيبات يوم الدين .

أقـول هذا ، وبين يـديَّ شذرات مبـاركات مـن الهدي النبوي ، تشير إلى مـا يشهد العباد يوم الحساب من عِظَم أمر الأمانة والرحم ، ودلالة ذلك المشهد على ما ينبغي أن يكون عليه الأمر في شأنهما ،على ساحة العمل في الدار العاجلة ، وما يطلب من التزود فيها ، لرحلة تصل بالعبد إلى القيام بين يدي العزيز الحكيـم .

قال الإمـام مسلم : حدثنا محمـد بن طريـف بن خليفة البجليُّ قال : حـدثنا محمد بن فضيل قال : حدثنا أبو مـالك الأشجعي عن أبي حازم عن أبي هريرة ، وأبو مـالك عـن ربعي عن حـذيفة قالا : قـال رسول الله ﷺ : « يجمـع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تزلفَ لهم الجنة ، فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة ، فيقـول : هل أخرجكم من الجنة إلا خطيئـة أبيكم آدم ؟ لست بصاحب ذلك . اذهبـوا إلى ابني إبراهيم خليل الله ، قال : فيقـول إبراهيم: لست

بصاحب ذلك إنما كنت خليلاً من وراء وراء ، اعمدوا إلى موسى ﷺ الذي كلَّمه الله تكليماً ، فيأتون موسى ﷺ ، فيقول : لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه ، فيقول عيسى ﷺ : لست بصاحب ذلك . فيأتون محمداً ﷺ ، فيقوم فيؤذن له ، وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً ، فيمر أَوَّلُكُم كالبرق . قال : قلت: بأبي أنت وأمي أيُّ شيء كَمَرِّ البرق؟ قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ؟ ثم كمرِّ الطير وشدِّ الرجال تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم قائم على الصراط يقول : رب سلِّم سلِّم ، حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً ، قال : وفي حافَّتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أُمرت به فمخدوش ناج ، ومكدوس في النار . والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفاً » .

هكذا ، وفي خضم هذه الشدة المحدقة بالناس، الشدِة التي بَلَغ من هولها ما يرى في محاولة الاستشفاع بعدد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حتى أُذن لنبينا محمد ﷺ ، وظهر فضله على الجميع... أقول : في خضم هذه الشدة ، ترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط . وجنبتا الصراط : جانباه ، وإنما كان ذلك، لعظم أمرهما وكبير موقعهما ، فتصوران مشخصين على الصفة التي يريدها الله تعالى ؛ وجميل ما قاله الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل التيمي الأصبهاني الشافعي رحمه الله تعالى صاحب كتاب « التحرير في شرح صحيح مسلم » من أن في الكلام اختصاراً ، والسامع يفهم أنهما ـ يعني الأمانة والرحم ـ تقومان لتطالبا كل من يريد الجواز ، بحقهما .

سبحان الله ما أعظم هذا الحق ، وما أدل هذا المشهد ، والناس يمرون على الصراط على صور شتى تختلف باختلاف مراتبهم وما قدموا في الدنيا ، حتى يجيء الرجل ، فلا يستطيع السير إلا زحفاً ... ما أدل هذا المشهد على التذكير بما يجب من أداء الأمانة وحفظها ـ على سعة مدلولها ـ وعلى الإحسان في صلة الرحم. اللهم اكتبنا مع الذين يمرون مسرعين بسلام ، حيث يمر أول الناس كالبرق ، ثم

كمر الـريح ثم كمـر الطير . وانظر إلى قـوله : «وشدُّ الـرجال تجري بهم أعمالهم ونبيكم قـائم على الصراط » وذلك من شـدة شفقته ﷺ على أمته .. إنـه قائم على الصراط ـ فداه أبي وأمـي ـ يقول : ربِّ سلِّم سلِّم . وشـدُّ الرجال : عدوهـا البالغ وجريها ، قال العلماء : وأمـا قوله ﷺ : « تجري بهم أعمالهم » فهو كـالتفسير لقوله عليه الصلاة والسلام : «فيمر أولكم كالبرق ثم كمر الريح ..» إلى آخره . ومعناه ـ كما أسلفت ـ أنهم يكونون في سرعـة المرور على حسب مراتبهم وأعمالهم . وقوله ﷺ : « فيقوم المؤمنـون حتى تزلـف لهم الجنة » هـو بضم التاء وإسكـان الزاي . ومعناه : تقرب كما قـال الله تعالى : ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ أي قربت ، وحول قول إبراهيـم عليه الصلاة والسلام ـــ كما ذكر النبي ﷺ ـ: « إنما كنـت خليلاً من وراء وراء » قال صاحب « التحرير » : (هذه كلمة تذكر على سبيل التواضع أي لست بتلك الدرجـة الرفيعة . قال : وقد وقع لي معنى مليـح فيه وهو أن معناه أن المكارم التي أعطيتُها كانـت بوساطة سفارة جبريل ﷺ ، ولكن ائتوا مـوسى فإنه حصل له سماع الكـلام بغير واسطة قال : وإنما كرَّر وراء وراء، لكـون نبينا محمد ﷺ حصل لـه السماع بغير واسطة . وأما ضبـط وراء وراء : فالمشهور فيـه الفتح فيها ـــ كما يقول الإمام النـووي ـ بلاتنـوين ، ويجوز عند أهـل العربية بنـاؤها على الضم أي فتقول: من وراءَ وراءَ ، ومن وراءُ وراءُ .

وبعد : فإن هـذا الموقف الذي يكرَّم بـه النبيﷺ ، ويدل على مزيـد شفقته ورحمته بأمته، يـذكرنا بما أخرج الإمام مسلم بسنده عن أنـس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً» وله في رواية أخرى « أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة وأنا أول من يقرع باب الجنة » ويتضح هذا المقام أكثر وأكثر بما روى مسلم أيضاً عن أنس رضي الله عنه من قـول النبي ﷺ : « آتي باب الجنـة يوم القيامـة فأستفتح ، فيقـول الخازن : من أنت؟ فأقول : محمد . فيقول : بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك » ورواه الإمام أحمد في المسند . ﴿إن في ذلك لآيةً لمن خاف عـذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾ .

حق الرحم والأمانة..
وعاقبة التجاوز يوم الدين

وقفتنا في الأسطر القريبة، كلمات هاديات مضيئات من هدي نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، على مشهد من مشاهد القيامة، بالغِ العظة والتأثير ، يتعلق بعظم أمر الأمانة والرحم وأداء حق الله فيهما : وذلك فيما رأينا من رواية الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه والتي جاء فيها «... وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً » الحديث . وإنما تقومان هذا المقام لتطالبا كل من يريد الجواز على الصراط ، بحقهما.

وفي متابعة لدلالة هذا الهدي النبوي الكريم ، في الكشف عما يشهده العباد يوم القيامة في هذا الشأن ، نقع على ما جاء في مسند الإمام أحمد رحمه الله من قول ولده عبدالله : حدثني أبي قال : حدثنا بهز وعفان قالا : حدثنا حماد بن سلمة قال : أنبأنا قتادة عن أبي ثمامة الثقفي عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « توضع الرحم يوم القيامة لها حُجْنَةٌ كَحُجْنَةِ المِغزل تتكلم بلسان طلق ذَلْق فتصل من وصلها وتقطع من قطعها » .

حُجنة المغزل : الصُّنَّارة المنعقفة في رأسه . والمغزل ـ مثلثة الميم ـ ما يغزل به . جاء في لسان العرب لابن منظور (وفي الحديث توضع الرحم يوم القيامة لها حُجنة كحُجنة المغزل أي صنارته المعوجة في رأسه التي يعلق بها الخيط يفتل للغزل، وكل متقف أحجن) . و قوله : « تتكلم بلسان طلق ذلق ». يقال: رجل طلق اللسان أي ما ضي القول سريع النطق وذَلَقٌ وذُلَقٌ وذُلُقٌ أي : حديد بليغ.

أرأيت إلى هذا المشهد المثقل ببليغ التأثير وعظيم التذكير ، كيف يحمل إلى الأمة هذا القدر من الوعد والوعيد !! فالله سبحانه وتعالى ـ وهو القادر القاهر ـ

يعطي الرحم يوم يقوم الأشهاد ، تلك القدرة الفائقة التي تمكنها من أن تصل من وصلها ، وتقطع من تقطعهـا . والعاقل من ذُكِّر فتذكَّـر ، واستقبل الموعظة بقلب خاشع خاضع فاتعظ ... ويانعم مـا يفعل المؤمن حين يتخذ من مشاهد القيامة الناطقـة بأجلى بيـان وأظهره ــ على ساحة البشـارة والنذارة ، والـوعد والـوعيد ـ حافزاً يوقـظ من الغفلة ، ويشد الأزر على طريق الاستقـامة على المنهج الأقوم ، وفي ذلك ما فيه من السعادة في الدنيا ، والنجاة ـ برحمة الله وغفرانه ـ يوم الدين .

وفي حديـث موصـول بمشهد الأمـانة والـرحم ــ وهما قائمتـان على جنبتي الصراط والناس يمرون كلٌّ حسب مرتبتـه وعمله في دار العمل ـ تجدر الإشارة إلى ما حذر وأنذر رسول الله ﷺ من تضييع الأمـانة ، معلناً أن ذلك من علامات الساعـة، كما أنه ظاهرة سـوء تشي بالخراب في الدنيا ، وشرِّ المآب في العقبـى يوم الحساب . أخرج الإمـام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنـه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال : كيف إضاعتها يارسول الله ؟ قال : إذا أسنـد الأمر إلى غير أهلـه فانتظـر الساعـة » وفي رواية «إذا وسِّـد» وتكون تعديته بكلمة «إلى » بدل اللام ليدل على تضمين معنى الإسناد .

قال ابـن بطال : معنى أسند الأمـر إلى غير أهله : أن الأئمة قـد ائتمنهم الله على عباده ، وفرض عليهـم النصيحة لهم ، فينبغي توليـة أهل الدين، فـإذا قلَّدوا غير أهل الدين، فقد ضيعوا الأمانة التي قلدهم الله تعالى إياها) .

وأشد من هذا وأنكـى : ما ينتهي إليه أهل الضلالة الطاغـون ؛ من معاقبتهم برفع الأمـانة من قلوبهم ــ والعياذ بالله ــ وإذا كـان الأمر كذلك : فـلا تسل عما ينتظرهم في عرصات القيامة من الخزي والمآب المهين ﴿ **إن جهنم كانت مرصاداً . للطاغين مآباً** ﴾. وما أشد ما يلقون في هذا المآب من النكال والجحيم والطعام ذي الغصة والعذاب الأليم ﴿ **والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً** ﴾ .

قال الإمام البخاري : حدثنا محمد بـن كثير قال : أخبرنا سفيان قال : حدثنا

الأعمش عن زيد بن وهب قال : حدثنا حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدثنا «أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال . ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة ، وحدثنا عن رفعها ؛ قال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكْت . ثم ينام النومة فتقبض ، فيبقى أثرها مثل المَجْلِ ، كجمر دحرجته على رجلك فنفِط ، فتراه منتبراً وليس فيه شيء ، فيصبح النّاس يتبايعون ، فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة، فيقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، ويقال للرجل : ما أعقله وما أظرفه وما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان . ولقد أتى عليَّ زمان وما أبالي أيّكم بايعت ، لئن كان مسلماً رده عليَّ الإسلام ، و إن كان نصرانياً رده عليَّ ساعيه ، فأما اليوم : فما كنت أبايع إلا فلاناً وفلاناً ».

قال الفربري : «قال أبو جعفر : حدثت أبا عبدالله فقال : سمعت أبا أحمد ابن عاصم يقول : سمعت أبا عبيد يقول : قال الأصمعي وأبو عمر و وغيرهما : «جذر قلوب الرجال ». الجذر : الأصل من كل شيء . والوَكْتُ : أثر الشيء اليسير منه . والمَجْلُ : أثر العمل في الكف إذا غلُظ » .

وله في رواية أخرى : « فيبقى فيها أثرها مثل أثر المجل » وقد أورده في كتاب الاعتصام والسنة « باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ وقول الله تعالى : ﴿**واجعلنا للمتقين إماماً**﴾ » من الجامع الصحيح مختصراً من رواية زيد بن وهب ، ولفظه سمعت حذيفة يقول : حدثنا رسول الله ﷺ «أن الأمانة نزلت من السماء في جذر قلوب الرجال ، ونزل القرآن فقرأوا القرآن وعلموا من السنة ».

وإلى أن نلتقي على خطوة أخرى ، مع نصوص مباركات من هدي خير البرية محمد عليه الصلاة والسلام في هذا الباب ، أود الإشارة إلى ما بشر به النبي ﷺ بأن من اجتمعت له أربع خصال ـ في مقدمتها حفظ الأمانة ـ أنه لا عليه ما فاته من الدنيا .

ويفهم من ذلـك: أن له ـ بفضل الله ورحمتـه ـ حسن العاقبـة في الآخرة . من أجل هذا : لا عليه ما فاته من الـدنيا ؛ فالآخرة خير وأبقى . أخرج الإمام أحمد في المسند بسنـده عن عبدالله بـن عمرو بن العـاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « أربع إذا كن فيك : فـلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفـظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة في طِعمة » .

جاء في النهاية لابن الأثير : والطعمة بالكسر والضم: وجه المكسب ، يقال: هو طيب الطعمة ، وهي بالكسر خاصة : حالة الأكل .

جعلنـا الله ممـن ينتفعـون بالهدى حين يعلمـون . و إذا ذكِّـروا بها يحصـل يـوم القيامـة يذكـرون . وله ـ جـل ثناؤه ـ الحمـد في الأولى والآخرة . وصـلاة الله وأزكى تسليماته على إمام الهداة نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين .

رفع الأمانة... وسوء العقبى

حديث رفع الأمانة من بعض القلوب الذي أخرجه البخاري وغيره عن حذيفة رضي الله عنه، يصلنا على صعيد المراد بالأمانة والمقصود منها، بقول الله تعالى في شأنها: ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ والمحققون ـ كما سيأتي ـ على أن الأمانة المذكورة في الحديث، هي الأمانة المذكورة في هذه الآية الكريمة من سورة الأحزاب، وهي عين الإيمان؛ فإذا استمكنت هذه الأمانة من قلب العبد وخالطته بشاشتها، قام حينئذ بأداء التكاليف المطلوبة على وجهها، واغتنم ما يرد عليه منها، وجدَّ في إقامتها. وإن شئت قلت: المراد بها التكليف الذي كلف الله تعالى به عباده، والعهد الذي أخذه عليهم، على الوجه الذي أراده سبحانه.

وعلى هذا: فالنسب متصل بين رفع الأمانة من القلب في الدنيا، وبين سوء العقبى في الآخرة.

ولكم يحسن المرء صنعاً، إذا صدق الوجهة مع الله، ولجأ إلى المعتصم القوي ـ وهو تقوى الله في السر والعلن ـ الذي يعصمه ـ بإذن الله ـ من أن يكون في زمرة الهالكين الذين جاء ذكرهم في قوله ﷺ محذراً منبهاً: « حتى يقال للرجل ما أجلدَه ما أظرفه ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ..» .

ثم إن الحديث المومى إليه عند البخاري: رواه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد في المسند وغيرهم؛ فتحت باب «رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب» أخرج الإمام مسلم بسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر؛ حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من

السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة ؛ قال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل الوكت ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفِط ، فتراه منتبراً وليس فيه شيء ـ ثم أخذ حصىً فدحرجه على رجله ــ فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة ، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان . ...» الحديث.

الوكت ـ كما مر ـ أثر الشيء ، اليسير منه ، والمجل بفتح الميم وإسكان الجيم وفتحها لغتان حكاهما بعض العلماء ، والمشهور الإسكان . يقال منه : مجلت يده تمجل مجلاً ، ومجلت تمجل مجلاً وأمجلها غيرها . قال أهل اللغة والغريب : المجل هو التنفط الذي يصير في اليد من العمل بفأس أو نحوها ويصير كالقبة فيه ماء قليل . وأما قوله : « كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً وليس فيه شيء » فالجمر والدحرجة معروفان ونفِط : مجل ـ كما سبق ـ ويقال: تنفط بمعناه ، ومنتبراً : مرتفعاً ، وأصل هذه اللفظة الارتفاع ، ومنه المنبر لارتفاعه وارتفاع الخطيب عليه .

وصلى الله وسلم على الرحمة المهداة رسول الله ، لقد كان رحيماً بما بشر وأنذر ونبَّه على مكامن الخطر التي ينبغي أن تُجتنب ، وكان أبلغ أهل الأرض بما أعطي من هذه القدرة الفاذَّة على تقريب تلك الأمور المعنوية ـ على عمقها ودقتها ـ بتلك الصور المادية الملموسة المؤثرة . وما من ريب في أن أهل الفلاح الذين أوتوا حظاً من الحرص على أخراهم ، وأن يكونوا يوم القيامة من الناجين من عذاب الله ، الفائزين بجنته ورضوانه ، يضعون في حسابهم تلك الحقيقة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ ونبه المسلمين عليها ، ويعملون على تقويم سلوكهم في التعامل مع التكاليف الشرعية والعمل بطاعة الله ، تقويماً يحجزهم عن المخالفة عن أمر الله ورسوله ، ويباعد بينهم وبين أن يكونوا ملهاة في أيدي دعاة جهنم، الذين يقدمون للناس الزخرف المبطن بالكفر والضلال ، وأن يحذروا ما حذَّر رسول الله من حالهم ونبَّه على مخاطر الوقوع في أحابيلهم .

نقل الإمام النووي عن صاحب « التحرير » شرح صحيح مسلم في معنى الحديث: «أن الأمانـة تزول عن القلوب شيئاً فشيئاً ، فـإذا زال أول جزء منها زال نورها ، وخلَفته ظلمة كالوكت ، وهـو اعتراض لون مخالف للَّون الذي قبله ، فإذا زال شيء آخر صار كـالمجل ، وهو أثر محكـم لا يكاد يزول إلا بعد مـدة ، وهذه الظلمة فوق التـي قبلها . ثم شبه زوال ذلك النـور بعد وقوعه في القلـب وخروجه بعد استقـراره فيه واعتقاب الظلمـة إياه ، بحجر يـدحرجـه على رجله حتى يـؤثر فيها، ثم يزول الحجر ويبقي التَّنَفُّطُ . وأخذه ـ ﷺ ـ الحصاة ودحرجته إياها : أراد به زيادة البيان وإيضاح المذكور والله أعلم ».

ألا إنه نذير من النذر المرعبة المرهبة ، وهو جدير أن يقض المضاجع ، ويحرك القلوب ؛ وكلٌّ هـذا ، لأن المخوف عليه أن يرفـع هو الأمانة التـي هي الإيمان ، أو التكليف الـذي كلف الله به عبـاده ، وعهده المأخـوذ عليهم . قال الإمـام النووي رحمه الله : «وأما الأمـانة : فالظاهـر أن المراد بها التكليف الذي كلف الله بـه تعالى عباده والعهد الذي أخـذه عليهم ـ قال الإمام أبو الحسـن الواحدي رحمه الله في قول الله تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال** ...﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هي الفـرائض التي افترضها الله تعالى على العبـاد . وقال الحسن : هي الدين والـدين كله أمانة . وقال أبو العالية : الأمانـة ما أمروا به وما نهوا عنه . وقال مقاتل : الأمانة الطاعة . قال الواحدي : فالأمانة في قول جميعهم ـ يعنـي المفسرين ـ : الطـاعة والفرائض التي يتعلـق بأدائها الثـواب وبتضييعها العقاب». وجميل ما ذهب إليه صاحب التحرير رحمه الله فبعد أن بين ـ كما أسلفنا ـــ أن الأمـانة في الحديـث هـي الأمـانـة المذكـورة في قولـه تعـالى : ﴿**إنا عرضنا الأمانة**...﴾ قال: «وهي عين الإيمان ؛ فإذا استمكنت الأمانة من قلب العبد ، قام حينئذ بأداء التكاليف ، واغتنم ما يرد عليه منها وجدَّ في إقامتها ـ والله اعلم ـ».

اللهم ثبتنا بقولك الثابت ولا تزغ قلوبنـا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

يا له مشهداً.. قرب كافل اليتيم من رسول الله ﷺ في الجنة

تبارك اسم ربنا ذي الجلال والإكرام ، مـا أعظم ما شرع لعباده من الخير ، وماأكرم ما أفاض بـه على الأمة المحمدية من بالـغ الفضل والإحسان ، حين بشرَّ المتقين بعطاء غير مجذوذ في دار البقاء ، ومن هذا العطاء : جنات تجري من تحتها الأنهار ، لا ينفد نعيمها ، ولا ينقطع أمد الإحسان فيها .

وليس عجيبـاً ـ وهو سبحـانه المنان المتفضـل ـ أن يكون في تلكـم الجنات ، جناتِ الخلد : ما لا يغادر قدره من العطاء الرباني الذي لا يُحَدُّ ، ومن وراء ذلك رضوان من الله أكبر .

ومما يـزيد إيمان المؤمـن بحكمته وواسـع فضله ، جـل شأنـه: أنه ـ كما وعد الصالحين من عبـاده ، المنيبة إليه قلوبهم ، المزدانـة بتقواه جوارحهم، بـالخلود في دار النعيم والتجلي عليهم برضوان أكبر لا يسخط بعده أبداً ـ يسر لهم سبل الخير في الدنيا ، وفتح لهم أبواب السعادة الأخروية على مصاريعها ، هنا وهناك ؛ وبقي أن تنقاد القلـوب للطاعة ، وأن يعـزم المرء عزمه متكـلاً على الله في التشمير عن ساعـد الجد ، وسلوك طريـق الجنة التي حفت بـا لمكاره ، وأن يكون على ذُكْـرٍ من ضرورة التأسي بسيـد الأنبياء و إمام الهداة محمد عليـه الصلاة والسلام . وهنـالك يتخذ من تلك الأبواب المشرعة ، على طرائق العمل الصالح والجهاد في سبيل الله والالتزام بكليات الـدين وجزئياتـه ، مناسباتٍ خيرة للانطـلاق الخيرِّ الذي يحوِّل الانقياد المهتدي والتأسي المستنير ، إلى مغانم أخروية غير ذات حدود ؛ ناهيك عما يتحقق من طمأنينة في الدنيا ، ونفع للعامل وللآخرين .

ويالها من تجارة رابحة ، لا تقتصر على جانب من الحياة دون جانب؛ ولكنها

لكل جوانب الحياة ومختلف ميادينها ؛ لأن الإسلام منهج رباني متكامل للحياة . وما مو بنا من النماذج المضيئة لهذه الحقيقة فيما سبق ، يدعو إلى الاستزادة من هذا الخير العميم.

هذا مشهد من مشاهد القيامة ، ناطق بقرب كافل اليتيم ـ المحسنِ معاملته وتربيته وتعليمه وأدبه ـ من رسول الله ﷺ في الجنة ، ذلك بأن النفع الذي يثمره هذا السلوك لا يقتصر ـ والله أعلم ـ على اليتيم نفسه ، ولكن يتعداه إلى المجتمع . على أن عظمة الإحسان إلى اليتيم تذكِّر تلقائياً بقول الحكيم الخبير في سورة الضحى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾ قال الإمام البخاري : حدثنا عمرو بن زرارة قال : أخبرنا عبدالعزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل ـ هو سهل بن سعد ـ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما شيئاً » وجاء اللفظ في رواية أخرى له « وقال بإصبعيه السبابة والوسطى » ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح ومالك في الموطأ وأحمد في المسند .

قال ابن الأثير في « النهاية » : الكافل هو القائم بأمر اليتيم المربي له ، وقد أوضح الحافظ ابن حجر رحمه الله، أن في هذا الحديث إشارةً إلى أن بين درجة النبي ﷺ وكافل اليتيم ، قدْر تفاوت ما بين السبابة والوسطى ؛ وهو نظير الحديث الآخر « بعثت أنا والساعة كهاتين » الحديث . ويكفي عنده في إثبات قرب المنزلة من المنزلة أنه ليس بين الوسطى والسبابة إصبع أخرى .

وفي تعليلٍ لهذا الفضل الإلهي الذي ينبيء عنه هذا المشهد المشرق ، نقل الحافظ عن شيخه العراقي في شرحه للترمذي قوله : (لعل الحكمة في كون كافل اليتيم يشبه في دخول الجنة ، أو شبهت منزلته في الجنة ، بالقرب من النبي ﷺ أو منزلة النبي ؛ لكون النبي شأنه أن يبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم ، فيكون كافلاً لهم ومعلماً ومرشداً . وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه ، بل ولا دنياه ، ويرشده ويعلمه ويحسن أدبه ؛ فظهرت مناسبة ذلك).

على أن إشعار اليتيم بإنسانيته ـ على الوجه المطلوب ـ والتسامي به إلى المنزلة التي يدرك معها أنه طاقة نافعة في المجتمع ، لم ينزل بـه اليُتْمُ عن إنسانيته ولا عنها: أمر في غاية الأهمية ـ كما هو ظاهر ـ .

ولقد نقع في بعض روايات الحديث على مزيد من البيان ؛ روى مسلم بسنده عن مالك عن ثور ان زيد الديلي قال : سمعت أبا الغيث يحدث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كافل اليتيم لـه أو لغيره، أنا وهو كهاتين في الجنة وأشار مالك بالسبابة والوسطى » وإذا كان كافل اليتيم هو القائم ـ كما سبق ـ بأموره ؛ من نفقة وكسوة ، وإحسان تربيته وتأديبه ، وتعليمه : فإن هذه الفضيلة ـ وهي القرب من النبي ﷺ في الجنة ـ تحصل ـ كما يقول الإمام النووي ـ لمن كفله من مال نفسه ، أو من مال اليتيم بولاية شرعية .

وأما قوله : « له أو لغيره » فالذي له : أن يكون قريباً له؛ كجده وأمه وجدته وأخيه واخته وعمه وخاله وعمته وخالته وغيرهم من أقاربه ، والذي لغيره: أن يكون أجنبياً . وطوبى لكافل اليتيم المستقيم على طاعة الله المحسن القيام بهذه الكفالة على الوجه المشروع ، بما يظفر به يوم القيامة من دخول الجنة ،والقرب فيها من سيد العالمين عليه الصلاة والسلام . قال ابن بطال رحمه الله : (حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة).

ومن الجدير بالذكر أن الإطلاق الذي رأيناه في الروايات السابقة ، نجده مقيداً بتقوى الله عند أحمد في المسند ومالك في الموطأ ، وإن كان هذا القيد من المعهود الذهني .

فتقوى الله في أي عمل من الأعمال التي يقوم بها المسلم ـ بوصفه مسلماً ـ ركن أساسي من أركان القبول ، والتقوى هنا تشمل صحة العمل من الناحية الشرعية التي بينها رسولنا عليه الصلاة والسلام ، كما تشمل الإخلاص بأن يكون العمل لله تبارك وتعالى ابتغاء مرضاته . قال عبدالله بن الإمام احمد : حدثني أبي

قال : حدثني إسحاق قال : أنبأنا مالك عن ثور بن زيد الديلي قال : سمعت أبا الغيث يحدث عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ « كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة إذا اتقى الله ، وأشار مالك بالسبابة والوسطى » . ولمالك في الموطأ عن صفوان بن سليم ؛ أنه بلغه أن النبي ﷺ قال: « أنا وكافل اليتيم له ، أو لغيره ، في الجنة كهاتين إذا اتقى » وأشار بأصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام » .

وفي خاتمة المطاف : ما أحسبني بحاجة إلى مزيد من التذكير بالقدر العظيم لهذا المشهد الذي يبصره الناس يوم الدين ، وماله من دلالة بالغة في انتظام الحياة الاجتماعية ، وتحقيق إنسانية الإنسان ، وتنمية طاقاته والإفادة منها ، وفق المنهج الرباني الذي هدى رسول الله ﷺ الأمة إليه ، وربى أصحابه على الالتزام به ؛ قولاً وعملاً وسلوكاً . وما أحوج أمتنا اليوم إلى هذا الالتزام ، بإخلاص نية وصدق عزيمة ، ورغبة فيما رغّب به الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام من صنوف الخير التي يبدو العمل بها بمثابة طريق مسلوكة إلى حيث القربُ من رسول الله ﷺ يوم القيامة في الخالدين .

كافلة أيتامها.. ومشهد الاعتبار هناك!

كانت رحلة مباركة ، تلك التي أسعدتنا ـ في صفحات خلت ـ بصحبة ما روى البخاري ومسلم وأحمد ومالك وغيرهم عن رسول الله ﷺ في شأن ما يجزي الله كافلَ اليتيم ـ إذا اتقى ربه فيه فأكرمه وعلمه وأحسن أدبه وتربيته ـ وذلك بأن يدخله الجنة ،ويكونَ فيها رفيقاً لسيد العالمين محمد عليه الصلاة والسلام .

وهذا المشهد المشرق بجزيل العطاء الرباني ـ كما أخبر عنه الصادق المصدوق ـ بالغ الأهمية في الدلالة على ما لكفالة اليتيم ـ حين يرعاها من وكلت إليه حق رعايتها ـ من عظيم الأثر في حياة الإنسان اليتيم نفسه ، وفي المجتمع الذي يأبى عليه إسلامه أن يكون اليُتْمُ عامل نزول بالفرد عن مستواه الإنساني اللائق ، بل يكون طاقة فاعلة في بناء الصرح الإسلامي العتيد . وأهميةُ هذا المشهد الناطق بعظم ما قدم كافل اليتيم المتَقي لله في الدنيا ، يدعو إلى الاستزادة من النظر في هدي النبي صلوات الله وسلامه عليه في هذا المضمار الذي يتجاوز الفرد إلى الجماعة ، ويتعدى اليتيم إلى غيره بالتربية والتعليم والإحسان ، كما يصل عمل العاجلة بجزائه في الآجلة دار القرار .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كفَل له ذا قرابة أو لا قرابة له ، فأنا وهو في الجنة كهاتين ، ضم أصبيعه ، ومن سعى على ثلاث بنات فهو في الجنة ، وكان له كأجر المجاهد في سبيل الله صائماً قائماً » رواه البزار .

وكم هو رائع ومثير لعزائم الإيمان : ذلك المشهد الذي يطالعنا به حديث عند أبي داود ــ على كلام لبعض العلماء في أحد رواته ـ ؛ فقد أخرج بسنده من رواية يزيد بن زريع عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه أنه قال : قال رسول ﷺ « أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة » ـ وأومأ يزيد بالوسطى

والسبابة ـ « امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال ، حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا» وفي النهاية لابن الأثير «أنا وسفعاء الخدين الحانية على ولدها : يوم القيامة كهاتين ، وضم أصبعيه » .

السفعة نوع من السواد ليس بالكثير ، وقيل : هو سواد مع لون آخر . أراد أنها تبذلت وتركت الزينة والترفه حتى شحِبَ لونها واسودَّ ، إقامةً على ولدها بعد زوجها . قال الخطابي في كتابه « معالم السنن » (السفعاء : هي التي تغير لونها إلى الكمودة والسواد من طول الأيْمِة وترك التزين ، وكأنه مأخوذ من سفع النار ، وهو أن يصيب لفحها شيئاً فيسودَّ مكانه ، يريد بذلك أن هذه المرأة قد حبست نفسها على أولادها ، ولم تتزوج فتحتاج إلى أن تتزيَّن وتُصَنِّعَ نفسها لزوجها) .

وقد أورد الحافظ المنذري هذا الحديث في كتابه « الترغيب والترهيب» وعزاه إلى أبي داود ، وقال هناك : السفعاء : بفتح السين المهملة وسكون الفاء بعدهما عين مهملة ممدوداً : هي التي تغير لونها إلى الكمود والسواد من طول الأيمة ، يريد بذلك أنها حبست نفسها على أولادها ولم تتزوج ، فتحتاج إلى الزينة والتصنع للزوج . وآمت المرأة بمد الهمزة وتخفيف الميم: إذا صارت أيِّماً ، وهي من لا زوج لها ، بكراً كانت أو ثيباً ، تزوجت أو لم تتزوج بعد . والمراد هنا : من مات زوجها وتركها أَيِّماً لم تتزوج .

سبحان الله ما أدل هذا المشهد في ذلك اليوم الذي تشخص فيه القلوب والأبصار ، على كريم فضل الله تبارك وتعالى وجميل عطائه عباده الصالحين ، وما أروعه بياناً نبوياً لما جاء في الكتاب العزيز ؛ من أن المثوبة في الآخرة، ليست مقصورة على الرجل دون المرأة ، ولكنها لمن يعمل الصالحات ـ وهو مؤمن ـ ذكراً كان أو أنثى ؛ ذلكم قول الله جل ثناؤه في سورة آل عمران : **﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ...﴾** ونقرأ في سورة النساء قوله تعالى : **﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن**

فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً ﴾ وتسعدنا سورة النحل بقوله تباركت أسماؤه : ﴿ **من يعمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ أما في سورة غافر (المؤمن) : فنقرأ قول الحكيم الخبير : ﴿ **من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب** ﴾ .

ويزيد هذه الحقيقة تأكيداً ما كشف عنه النبي ﷺ ؛ من ذلك المشهد الذي يبدو أكثر تبياناً في التعبير عما ينتظر تلك المرأة المؤمنة التي تركت زينة الدنيا وقعدت على أيتام لها ـ بعد أن تأيمت ـ ترعاهم حق الرعاية وتشعرهم بكرامتهم الإنسانية وتحسن ـ على ضعفها ـ تربيتهم وإعدادهم ، ليكونوا لبنات صالحات في المجتمع المسلم ؛ الأمرُ الذي يضمن لهم ـ بإذن الله ورحمته ـ سعادة الدنيا والآخرة ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول من يفتح باب الجنة إلا أني أرى امرأة تبادرني فأقول لها : مالك ومن أنت؟ فتقول : أنا امرأة قعدت على أيتام لي » قال الحافظ المنذري : رواه أبويعلى وإسناده حسن إن شاءالله .

وهذا الحافز الأخروي العظيم للمرأة المسلمة الموفقة في طاعة الله ،لا يعفي المجتمع ـ بدءاً من الخلية الأولى فيه وهي الأسرة ـ من مدِّ يد العون الكريم لهذه المرأة وتذليل ما يعترض عملها ـ في رعاية يتاماها ـ من صعاب ، بل هو واجب حتم ، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . وغير خاف أن أبواب البر والتقوى مفتحة لمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ـ وهو مؤمن ـ وما أكثر شعب الإيمان التي ترتفع بالعاملين بها المخلصين لله فيها ـ ذكوراً كانوا أو إناثاً ـ إلى حيث الفضل الإلهي بالنعيم الخالد يوم القيامة والمستقر الكريم ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً** ﴾ قال الإمام أحمد : حدثنا قُرّان بن تمّام أبو تمام الأسدي قال : حدثنا محمد بن أبي حميد عن المطلب بن عبدالله المخزومي قال : دخلتُ على أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ . فقالت : يابني ألا أحدثك بما

سمعت من رسول الله ﷺ ؟ قال: قلت: بلى يا أمه : قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من أنفـق على ابنتين أو أختين أو ذواتي قرابة يحتسب النفقـة عليهما حتى يغنيهما الله من فضله عز وجل أو يكفيهما ، كانتا له ستراً من النار » رواه الطبراني.

وما أشد احتياج المكلَّف ﴿ يوم ينظر المرء مـا قدمت يداه ، ويقـول الكافر ياليتني كنت تراباً ﴾ إلى أن يجد فيها قدم مـن الأعمال في الدنيـا ، عملاً يبـاعده ـ بفضل الله ـ عـن النار ويصله بجنة الخلـد ؛ إن ذلك مطمح كل مـؤمن يخاف الله واليوم الآخـر .

وأخرج الترمذي يسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «دخلت امرأة معهـا بنتان لها فسـألت ، فلم تجد عنـدي شيئاً غير تمرة ، فـأعطيتها إيـاها ، فقسمتهـا بين ابنتيها ولم تـأكل منهـا ، ثـم قـامت فخـرجت ، فـدخل النبـي ﷺ فأخبرته ، فقال النبي ﷺ : من ابتلي بشيء من هـذه البنات كنَّ له ستراً من النار » قال أبوعيسى : حديث صحيح .

فمن أراد أن تغمره أنوار تلك المشاهد العظيمة يوم القيامة ، فليفعل ما رغب به الـرسول المصطفى عليه الصـلاة والسلام وهناك يصـدِّق الخبَرَ الخُبْرُ والله يتولى عباده الصالحين .

سلكوا طريق الجنة.. شهداء مقربون..
علماء عاملون.. توابون متطهرون

ما أعظم ما يتميز به العلماء العاملون ، من إخلاص لله في علمهم وتحصيلهم، وخوفٍ على أنفسهم من الرياء وحب المنصب والظهور ، وحرصهم ـ بعد هذا كله ـ على أن تسلم لهم آخرتهم فيكونوا ـ بحق ـ ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ .

وإذا حصلت خشية الله بالغيب ، فيا نعم ما تكون عليه عاقبة الأمر ؛ من أمنٍ يوم الفزع الأكبر ، وفوز بالجنة دار الخلود ، انتظاماً في سلك من تزدان بهم مشاهد الفضل الإلهي يوم القيامة ، والعطاءِ بغير حساب .

أورد الحافظ الذهبي رحمه الله في كتابه «سير أعلام النبلاء» عند الكلام على محمد بن رمح العالم الثقة الثبت المتوفى سنة اثنتين وأربعين ومائتين حديثاً صحيحاً من مروياته ، وهو قوله ﷺ : « إن الدين النصيحة قالوا : لمن يارسول الله قال : لله ولكتابه ولأئمة المسلمين ـ أو المؤمنين ـ وعامتهم » ثم قال الذهبي : هذا حديث صحيح في « صحيح مسلم ». وفي ضوء الحرص على العمل بحديث النبي ﷺ والحرص على أن يتخذ المؤمن من الهدي النبوي طريقاً إلى النجاة يوم المعاد: قال صاحب «سير أعلام النبلاء» أجزل الله مثوبته: «فتأمل هذه الكلمة الجامعة، وهي قوله ﷺ : « الدين النصيحة » فمن لم ينصح لله وللأئمة وللعامة ، كان ناقص الدين . وأنت لو دعيت : ياناقص الدين ، لغضبت , فقل لي : متى نصحت لهؤلاء ؟ كلا والله ، بل ليتك تسكت ، ولا تنطق ، أولا تحسِّن لإمامك الباطل؟ وتجرِّئه على الظلم وتغشُّه ؟ فمن أجل ذلك سقطتَ من عينه ، ومن أعين المؤمنين . فبالله قل لي : متى يفلح من كان يسرُّه ما يضرُّه ؟ ومتى يفلح من لا

يراقب مولاه ؟ ومتـى يفلح من دنا رحيله ، وانقرض جيلـه ، وساء فعله وقيله ؟ فما شاء الله كان ، وما نـرجو صلاح أهل الـزمان ، لكن لا ندع الـدعاء ، لعل الله أن يلطف بنا ويصلحنا » . والحق أن من أمانة النصيحة عند أهل العلم أن يناصحوا أئمتهم ، ومن النصيحة لعامة المسلمين : هذا الـذي ذكَّر به الحافظ الذهبي رحمـه الله .

وأكرم بالعمل بهدى النبي ﷺ ، مدخـلاً كريماً إلى حيث الطريق المضيئة إلى دار المقامة ،عند من لا رب غيره ، ولا خير إلا خيره سبحانه وتعالى .

ومن هـؤلاء الذين رزقـوا بفضل الله أن يكونـوا من سـالكي هذه الطـريق ، ففازوا بخيري الدنيا والآخرة : أولئك الذين صدقوا في المواطن ، وصبروا على بذل المال والنفس في سبيل الله . وكلما تأمل المتأمل ما تزدان به مشاهدهم يوم القيامة ـ من النور الغامـر ، والفضل المتجدد ـ ازداد إيماناً بصدق ما كانـوا عليه ، وسلامة النهج الذي وفقوا لسلـوكه ، حين استبدلوا الآجلة بالعـاجلة ؛ مجاهدين مخلصين. قال الإمـام أحمد في المسند : حـدثنا الحكـم بن نافـع قال : حـدثنا إسماعيـل ابن عياش عن بَحير بن سعد عن خالد بن معدان عن كثير بن مرة عن نُعيم بن همَّار « أن رجلاً سأل النبي ﷺ أي الشهداء أفضل ؟ قال : الذين إن يلْقَوا في الصف ، لا يلفتون وجـوههم حتـى يقتلوا ، أولئـك ينطلقون في الغـرف العلى من الجنـة ، ويضحك إليهم ربهم ، وإذا ضحـك ربك إلى عبد في الدنيا فـلا حساب عليه » ورواه أبو يعلى . قال الحافظ المنذري : ورواتهما ثقات .

إنه لمشهد عظيم يفيض بالبشرى لأولئك الرجـال الذين يصدقون ما عاهدوا الله عليه . وإذا لم يغبط هؤلاء على هذا المقام في الجنة : فمن ذا الذي يغبط من أمة خاتـم النبيين ؟ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنـه قال : قـال رسول الله ﷺ : «أفضل الجهـاد عند الله يوم القيـامة الذيـن يلتقون في الصف الأول ، فـلا يلفتون وجوههـم حتى يقتلـوا ، أولئك يتلبَّطـون في الغرف مـن الجنة ، يضحـك إليهـم ربـك ، وإذا ضحك إلى قوم فلا حساب عليهم » . رواه الطبراني بإسناد حسن .

معنى يتلبطون هنا : يضطجعون أو يتمرغون . جـاء في النهاية (فيه أنه سئل عن الشهداء فقال : «أولئك يتلبطون في الغرف العلى» أي يتمرغون . ومنه حديث ما عز «لا تسبَّه فإنه الآن يتلبط في الجنة ») والمعنيُّ بهذا الحديث: ما عز بن مالك الأسلمي الـذي أتى بما يـوجب حدَّ الـرجم واعترف بذلـك نتيجة يقظـة إيمانية، جعلته يسرع إلى رسول الله ﷺ يقول : أريد أن تطهرني ، وكانت له ـ بتوبته النصوح الصادقـة ، وأوبتِهِ الخاشعـة إلى الله، وندمِـه العميق على مـا فعل ـ هذه المكـرمة المشار إليها ، وقد ثبت ذكره في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة ، ويزيد ابن خالد ، وآخـرين ؛ فقد جاء ذكره في حديث أبي بكر الصـديق وأبي ذر وجابر ابن سمرة وغيرهـم ؛ سماه بعضهم وأبـرزه بعضهم . وفي بعـض طرقـه ـ كما يقـول الحافظ رحمه الله في « الإصابة » ـ أن النبي ﷺ قال : « لقد تاب توبة لو تابها طائفة من أمتي لأجزأت عنهـم». وفي صحيح أبي عوانة وابن حبان وغيرهما مـن طريق أبي الزبير عـن جابر بن عبـدالله رضي الله عنهما « أن النبي ﷺ لما رجم ما عـز بن مالك قال : لقد رأيته يتحصص في أنهار الجنة » . الحصحصة : تحريك الشيء في الشيء حتى يستمكن ويستقر فيه .

وجاء في حديث طويل أخرجه أبوداود في « السنن » من رواية أبي هريرة رضي الله عنه « أن رسـول الله ﷺ سمع رجلين يغلظان القـول في شأن مـاعز رضي الله عنه ؛ لما أنه قـد ستر الله عليه فلم تدعْه نفســه حتى رُجِمَ رَجْمَ كـذا... إلى آخر ما قالا ، ثـم سار ﷺ حتى مـر بجيفة حمار شائل برجلـه ،فقال : أين فـلان وفلان؟ فقالا : نحن ذان يارسول الله. قال: انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار ، فقالا : يانبي الله ، من يأكل مـن هذا ؟ قال : فما نلتما من عرض أخيكما آنفاً أشـد من أكلٍ منه. والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها ». وفي رواية: «ينقمس».

ينقمس أي ينغمس ويغوص فيها .

لله ما أشد فرح ربنا الكريم المنان بتـوبة عبده المؤمن ؛ وما هذا المشهد الذي أخبر عنه الصادق المصدوق: إلا توكيـد لهذه الحقيقة الجديرة بأن تشد الجانحين إلى التوبة النصوح ، كيما يتوب الله عليهم، ويجعلَهـم من أهل جنته، ينغمسون في أنهارها ، ويتمتعون بنعيمها المقيم. وسبحان من يحب التوابين ويحب المتطهرين.

سلام عليكم بما صبرتم..
فنعم عقبى الدار

كلما اتسعت دائرة المعرفة الحقة ، واستنار العقل والقلب بما تدل عليه مشاهد القيامة ، من عدل الله وفضله وواسع رحمته، ازداد اليقين بأن المؤمن ذو حظ عظيم عند الله تعالى ، وأن السعيد المصحوبة حياتُه بالتوفيق ، هو الذي لا تلهيه الدنيا عن الآخرة ، ولا يدع أن يملأ الوقت بالنافع الذي يجمع - إلى إعمار الأرض بصدق نية — حرصاً لا يدانيه حرص ، على أن يكون في عداد من تغمرهم يوم المعاد مشاهد الفضل والعطاء الرباني ، فيسعى لذلك سعيه ؛ علماً وعملاً وجهاداً ، وهو مؤمن مصدق بما وعد الله عباده الصالحين ، وأوعد أولئك الضالين المكذبين.

وإني متابع في هذه العجالة ، نظرات في روايات أُخَر ، فيها من النصوص السابقة القريبة مشابه ، وثمة ما يوحي بضرورة أن لا يخلي المؤمن ساعات عمره ، من دقيق النظر في مدلول المشاهد الأخروية التي تكشف عنها تلك النصوص ، فإذا كان على الجادة : ازداد طاعة وتعرفاً إلى الله بعمل الصالحات ، وإن كان غير ذلك : تاب وأناب واستأنف طريق النجاة يوم الدين . عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم عن الأجود الأجود ، الله الأجود الأجود ، وأنا أجود ولد آدم ، وأجودهم من بعدي رجل علم علماً فنشر علمه ، يبعث يوم القيامة أمةً وحدَه ، ورجل جاد بنفسه لله عز وجل حتى يقتل » رواه أبو يعلى والبيهقي.

وهذا مشهد زاخر بفضل الله وحكمته البالغة . ويدل - فيما يدل - على عظم ما صنع فقراء المهاجرين رضي الله عنهم ، فيما أبلوا من البلاء الحسن في سبيل

الله ـ كما سبق بعض ذلك ـ ، الأمر الذي يدل على أنه لابد لنصرة الإسلام من التضحية الخالدة والصبر . ومشاهدُ القيامة ناطقة بأن الله تعالى لا يضيع عنده مثقال ذرة ، وأنه ذو الفضل العظيم. فليهنأ العاملون المخلصون الصابرون .

قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أبو عبدالرحمن قال : حدثني سعيد بن أبي أيوب، قال: حدثنا معروف بن سويد الجذامي عن أبي عُشَّانَة المعافري عن عبدالله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : «هل تدرون أولَ من يدخل الجنة من خلق الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاءً ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيُّوهم . فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم ؟ قال : إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ـ قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾.

ورواه أبو القاسم الطبراني بسنده عن أبي عُشانة أنه سمع عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره ، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا ، وإن كان لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تُقْضَ حتى يموت وهي في صدره ، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول : أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب . وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون : ربنا نحن نسبحك الليل والنهار ، ونقدس لك ، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟ فيقول الرب عز وجل : هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ » . قال

الشهداء في رأس كل حول ، فيقول لهم: ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ وكذا أبوبكر وعمر وعثمان) . قال الحافظ المنذري : ورواه الأصبهاني بإسناد حسن .

ولا يخفى أن فيما كشف عنه النبي ﷺ من تكريم فقراء المهاجرين ، بعقبى الدار :ـ نصرةً على أعداء الله في الدنيا وخلوداً في الجنة يوم القيامة ، جزاء صبرهم على الجهاد والإيذاء في سبيل الله ، ووفائهم بوعد الله واستعلائهم على معوقات الدنيا ، وكيف أن الملائكة تقول لهم حينذاك : ﴿**سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ وكذلك نطقه ﷺ بالآية الكريمة عند زيارة الشهداء ـ .. لا يخفى أن في ذلك لوناً مشرقاً من ألوان البيان النبوي لما جاء في سورة « الرعد » من صفات أولي الألباب ـ الذين علموا الحق فآمنوا به واتبعوه ـ وما يحصل لهم يوم القيامة من حسن المآب وكريم العطاء الإلهي في جنة الخلد التي وعد المتقون. والآيات المشار إليها هي قول الله تبارك وتعالى بدءاً من الآية التاسعة عشرة من هذه السورة .

﴿ **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب. الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ .

ولقد عمل التطلع إلى عقبى الدار هذه، عمله في نفوس الصحابة عليهم الرحمة والرضوان ، ومن تبعهم بإحسان ، فكان الشوق إلى لقاء الله والصبر في المواطن والمسارعة إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السماوات والارض أعدت

للذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب .

وإني مذكِّر بما أوردت من قبل من رواية الإمام البخاري عن أنس رضي الله عنه أن أم الربيع بنت البراء رضي الله عنها ــ وهي أم حارثة بن سراقة « أتت النبي ﷺ، فقالت : يارسول الله ألا تحدثني عن حارثة ــ وكان قتل يوم بدر ــ فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدتُ عليه بالبكاء ، فقال : يا أم حارثة إنها جِنان في الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » .

ألا إنها عقبى الدار التي ينشدها أولو الألباب الذين أضاء نفوسهم الانتفاع بهدي الكتاب والسنة في شأن ما يؤول إليه أمر العباد يوم التناد ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ .

العين السلسبيل لأهل الصدق..
وللقوم البُهتِ النارُ وبئس القرار

مما يساعد المسلم عن الغفلة ، ويجعله من أهل القرب الذين يخشون ربهم بالغيب ... صلة التدبر القلبية الخاشعة بكتاب الله العزيز الحميد ، وببيانه المبارك من حديث النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن زكت نفسه واستشرف أن يكون من أبناء الآخرة ، حرص على ذلك شديد الحرص ،وصبر نفسه على ما يتطلبه هذا الأمر الجلل من نَصَبٍ وتكاليف ؛ إنه إن فعل ذلك ـ بتوفيق الله تبارك وتعالى ـ تفتحت له أبواب الخير ، وعوفي من الركون إلى دار الفناء ، وكانت حياته سبيلاً إلى خير عقبى في دار القرار . وهنالك يهنأ بما يبصر من الفضل الكبير الذي يُنعم الله به على أولي النهى من عباده في جنة عدن خيرِ مستقَر وأحسنِ مقيل . وكلما ازداد صدقاً وصبراً على طريق أهل الهمم في طاعة الله تعالى ، استنارت أمامه شعاب الوصول إلى ما دعت إليه نصوص الكتاب والسنة ، حين لم تترك شاردة ولا واردة في شأن اليوم الآخر ، وعاقبة كلٍ من أهل الهدى وأهل الضلالة ﴿ **يوم تبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار** ..﴾ إلا أتت عليها.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي أسماء الرحَبي : أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ حدثه قال : كنت قائماً عند رسول الله ﷺ ، فجاءه حَبْر من أحبار اليهود ، فقال : السلام عليك يامحمد ، فدفعته دفعة كاد يُصرع منها ، فقال : لم تدفعني ؟ فقلت : ألا تقول : يارسول الله ؟ فقال اليهودي : إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله؛ فقال رسول الله ﷺ : إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي . فقال اليهودي: جئت أسالك . فقال رسول الله ﷺ : أينفعك شيء إن حدثتك ؟ فقال : أسمع بأذني . فنكتَ رسول الله ﷺ بعود معه ، فقال : سل ، فقال اليهودي : أين يكون الناس يوم تُبدَّل الأرض والسماوات ؟ فقال رسول الله ﷺ : هم في الظلمة دون

الجسر . فقال : فمن أول الناس إجازة ؟ قال : فقـراء المهاجرين ، قال اليهودي : فما تحفتهم حين يـدخلون الجنـة ؟ قال : زيادة كبـد النون ــ وفي رواية زيـادة كبد الحوت ـ قال : فما غذاؤهـم في إثرها ؟ قال : ينحر لهم ثور الجنة الـذي كان يأكل من أطرافها . قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : من عين فيها تسمى سلسبيلاً . قال : صدقت ..... وجاء في آخر الحديث قال اليهودي : لقد صدقت ، وإنك لنبي ثم انصرف . فقال رسول الله ﷺ : لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه ، ومالي علم بشيء منه ، حتى أتاني الله به » .

أبـو أسماء الرحبي : هو بفتـح الـراء والحاءواسمه عمـرو بـن مرثَـد الشامـي الدمشقـي ، قال أبو سليمان بـن زيد : كان أبو أسماء الـرحبي ، من رحبـة دمشق قرية من قراها ، بينها وبين دمشق ميل ، رأيتها عامرة والله أعلم .

وفي الحديث ما يدل على مزيد اهتمام الـرسول ﷺ ببيان ما يراد الجواب عنه ، فقد جاء على لسان ثوبان رضي الله عنه راوي الحديـث ـ كما رأينا ـ «فنكت رسول الله ﷺ بعودٍ معه» قال العلماء : نكت بفتح النون والكاف والتاء المثناة من فوق : ومعناه : يخط بالعـود في الأرض ويؤثر به ، وهذا يفعله المفكـر . وفي هذا دليل على جواز فعل هذا ، وأنه ليس مخلاً بالمروءة والله أعلم .

وفي قولـه ﷺ : « هـم في الظلمـة دون الجسر » كشف اللثـام عن هـذا المشهد الذي يضـم الخلائق يوم القيامة ؛ ويـاله من مشهد بـالغ التأثير عميق الـدلالة!! فالناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، في الظلمة دون الجسر . والجِسْرُ والجَسْرُ بفتح الجيـم وكسرها : لغتـان مشهورتـان والمراد به هنـا : الصراط . وأول النـاس إجازة ــ أي جـوازاً وعبوراً ــ هم فقـراء المهـاجريـن . وقـد أسعدتنـا في صفحات قريبات بعـض النصوص النبوية المباركة بذكر مجمـوعة من الصفات الخيرة التي أهلت أولئـك البررة الصالحين ـ بجانـب منقبة الهجرة لله ورسولـه من مكة إلى المدينة ـ لنيل هذه المكرمة الربانية في ساعة الحشر ، دون الصراط ؛ حيث يكتنف الناسَ في تلكم الساعات العصيبات من شدة الهول والحزن والفزع ما الله

به عليم .

والمراد بـ « زيـادة كبد النـون » زيادة كبد الحوت ، كما جـاء مصرحاً بـذلك في بعض روايات الحديث. وجاء في رواية أخرى لمسلم : « زائدة كبد النون» والزيادة والزائدة شيء واحد هو طرف الكبد وهو أطيبها .

وغير خـافٍ أن في قولـه ﷺ «مـن عين فيها تسمـى سلسبيلاً» لـونـاً من بيـان التقرير والتأكيد لكونهم يشربون مـن عين في الجنة تسمى السلسبيل، وهو ما جاء الإخبار عنه في قوله تعـالى في سورة «الدهر»: ﴿ ويسقون فيها كأسـاً كان مزاجها زنجبيلاً . عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ قال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة سيلها وجـريانها ؛ فهـي سلسبيل أي حـديدة الجريـة . وقال قتـادة : ﴿عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ عينٌ سلسة مستقيدٌ ماؤها . وحكـى شيخ المفسرين أبوجعفر الطبري عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستهـا ولينها في الحلق . وكان حسناً ما اختاره من أنها تعـم ذلك كلـه ، فقال: «والصواب مـن القول في ذلـك عندي أن قـوله : ﴿تسمى سلسبيلاً ﴾ صفة للعين ، وصفـت بالسلامة في الحلـق، وفي حال الجري وانقيادها لأهـل الجنة ، يصرفونها حيث شاؤوا ، كما قال مجاهـد وقتادة . وإنما عنى بقوله : « تسمى » توصف ، وإنما قلت : ذلك أولى بالصواب لإجماع أهل التأويل على أن قولـه : سلسبيلاً صفـة لا اسم» . وارتضى ذلـك الحافظ ابـن كثير فقال: «واختار هو ـ يعني الطبري ـ أنها تعم ذلك كله ، وهو كما قال ».

وقال عبدالله بن الإمام أحمد في المسند : حدثنـي أبي قال : حدثنا ابن أبي عدي عن حميد عن أنـس رضي الله عنه « أن عبدالله بن سلام أتى رسـول الله ﷺ مَقْدَمَه المدينة ، فقال : يـارسول الله إني سائلك عن ثلاث خصـال لا يعلمهن إلا نبي. قال : سل . قال : مـا أول أشراط الساعة ، وما أول ما يأكل منـه أهل الجنة ، ومن أيـن يشبه الـولد أبـاه أو أمـه ؟ فقال رسـول الله ﷺ : أخبرني بهن جبريل عليـه السلام آنفاً . قال : ذلك عدو اليهود من الملائكة !! قال : أما أول أشراط الساعة:

فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب . وأما أول ما يأكل منه أهل الجنة : زيادة كبد حوت . وأما شبـه الولد أباه وأمه : فإذا سبق ماء الـرجل ماء المرأة ، نزع إليه الولد ، وإذا سبـق ماء المرأة ماء الرجل ، نزع إليهـا . قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسـول الله . وقال : يـارسول الله إن اليهـود قوم بُهْتٌ ، وإنهم إن يعلمـوا بإسلامي يبهتوني عندك ، فأرسل إليهم فاسألهم عني ؛ أيُّ رجل ابن سلامٍ فيكم؟ قال: فأرسـل إليهم فقال : أيُّ رجل عبدالله بـن سلام فيكم ؟ قالـوا : خيرنا وابن خيرنا ، وعالمنا وابن عالمنا وأفقهنا وابن أفقهنا . قال : أرأيتم إن أسلم، تسلمون ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك ، قال : فخرج ابن سلام ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فقـالوا : شرُّنا وابن شرِّنا وجـاهلُنا وابن جاهلِنـا ؛ فقال ابن سلام : هذا الذي كنت أتخوف منه » .

قوم بُهت . بُهْت : جمع بَهوت من بنـاء المبالغة في البُهت ، مثـل صَبور وصُبُر ، ثم سكِّن تخفيفـاً ، وهو مأخوذ مـن البهت وهو الكذب والافتراء ، أو هـو الباطل الذي يُتحيَّر منه. قال ابن الأثير في « النهاية » : (ومنه حديث الغيبة « وإن لم يكن فيه ما تقول فقـد بَهَتَّهُ » أي كذبت وافتريت عليه . ومنه حديـثُ ابن سلام في ذكر اليهود « إنهم قوم بُهت») وعلى هذا . فقول عبدالله بن سلام فيهم ، يعني أنهم أهل الباطل الـذي يحيِّر وهو البهتان العظيم . ويشـاء الله أن لا يتأخر تصديـق حكمه عليهم ؛ فكان منهم ما هو على النقيض مما قالوه في المجلس نفسه .

أليـس من العـدل الإلهي أن ينقلب هـؤلاء يـوم القيامـة إلى شر مآب !! وأيـن مشهدهـم وهم يسـاقون بكفـرهم وبهتانهم إلى الجحيـم من مشهـد أولئك الـذين تُزلف لهم جنة الخلد ، ويسقون فيها من عين تسمى سلسبيلاً .

رزقنا الله الاعتبـار ، وأكرمنـا بتوفيقـه للانتفـاع بما زخرت بـه نصوص الكتـاب والسنة مـن حقائق عن أولئك القـوم البُهْت ، وله الحمد في الأولى والآخـرة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . و سبحان الله أين مشهد من يغمرهـم الفضل الإلهي في الجنة من مشهد هؤلاء المغضوب عليهم وهم إلى جهنم يحشرون .

من مشاهد الإحسان..

يشفعه الله فيمن صنع معه المعروف..

ما يكـون يوم الفصـل ـ ومـا أدراك ما يـوم الفصل ـ من مشـاهد لها دلالاتها وتأثيرها وعظاتها ؛ إذ يجمع الله الأولين والآخرين ؛ حقائق خالطت وتخالط قلوب وعقول أولي الألبـاب ، حتى غدا ذلـك عندهم ركيـزة ، من أهم ركـائز التصور ، والعمل ليوم المعـاد ، وصارت تلك الحقائق منهم كأنها مـن المحسِّ المرئيِّ الذي لايشوبه التباس .

وآية ذلك : أنهم باتـوا يعرفون للوقت حرمته ، فملؤوه بصـالح العمل وتقوى الله ، وأدركوا أن مـا يجده المرء يوم القيـامة ، إنما هو امتـداد لما قدَّم في الـدنيا ، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ؛ فاستمطروا بـالنَّصَبِ في سبيل الله والكدح في طـاعته، والتذلـل الخاشع الخاضع بين يديـه : رحمتَه سبحانـه ، فكانوا بها من النـاجين من أليم عذابـه ، الفائزين بالخلود في جنتـه وثوابه . قال عبـدالله بن مسعود رضي الله عنه : «إنكـم في ممر الليل والنهار ، في آجـال منقوصة ، وأعمال محفـوظة ، والموت يأتي بغتة ، فمـن زرع خيراً ، فيوشك أن يحصد رغبة ، ومـن زرع شراً ، فيوشك أن يحصد ندامة . ولكل زارع مثل ما زرع ، لا يسبق بطيء بحظِه ، ولا يدرك حريص ما لم يقدَّر له ».

والواقع أن هذه الحقائق ـ ما كان منها منتسباً إلى المثوبة ، وما كان منتسباً إلى العقاب ـ كما جاءت الأخبـار عنها في الكتاب والسنة ـ جديـرة ـ والذي نواصي الخلائق بيده ـ بالكثير الكثير من الاهتمام ؛ وكيـف لا يكون ذلـك ، والموت يأتي بغتة ، والعبرة للمآل يـوم الحسرة ، وما تكـون عليه الحال بين يـدي جبار السماوات والأرض ربِ العـالمين!! وهذا مـا أقـض مضاجـع الصـادقين ، وجعل جنـوبهم

تتجافى عن مواقع الدعة والراحة ، وألهب مشاعر اللهفة والترقب عند أهل القرب الموفقين ، هذا مع عظيم رجائهم بفضل الله ، ووافر رحمته وإحسانه .

وإذا ذكرنا لأهل التوفيق والسعادة ذلك : ذكرنا معه، أن الله تبارك وتعالى ، أنعم على عباده ، وأكرمهم بجزيل العطاء حين جعل من عبادته ، وتقواه ، والجهاد في سبيله ، واستقامة المرء على الأخلاق الفاضلة النابعة من الإيمان ، مسالك مباركة تصل بصاحبها ـ إن صدق الوجهة وأخلص لله العمل ـ إلى حيث منازل السالكين المخلصين المنيبين في جنات تجري من تحتها الأنهار ـ أُكُلُها دائم وظِلُّها ، وهم فيها خالدون .

ها نحن أولاء أمام لونين من ألوان فعل المعروف ، يشهد الناس يوم القيامة أن كلاً منهما ، كان سبباً لشفاعة من صُنع معه المعروفُ بصاحبه . وإنه لمشهدٌ قمين بأن يرتفع بالمسلم ، إلى جوّ من النقاء والصفاء ، في إسداء الخير إلى إخوانه والتعاون وإياهم على البر والتقوى . فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج خلق من أهل النار ، فيمُّر الرجل بالرجل من أهل الجنة ، فيقول : يافلان أما تعرفني ؟ فيقول : ومن أنت ؟ فيقول : أنا الذي استوهبتني وَضوءاً فوهبت لك ؛ فيشفع فيه . ويمرُّ الرجل فيقول : يافلان أما تعرفني ؟ فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا فلان بعثتني في حاجة كذا وكذا ، فقضيتها لك ؛ فيشفع له فيُشَفَّعُ فيه » قال الحافظ المنذري رواه ابن أبي الدنيا باختصار وابن ماجة ... والأصبهاني واللفظ له .

وفي بعض النصوص ما يدل على أن خلقاً من خلق الله الذين يتقربون إليه بقضاء حوائج العباد في الدنيا ، يكرمهم ـ سبحانه وتعالى ـ بالأمن من عذابه يوم القيامة . وما من ريب في أن تفضُّل الله عليهم بهذا الأمن العظيم ـ والهلعُ آخذٌ بالرقاب هنا وهناك ـ من شأنه ، أن يكون إعلاناً عن عِظم الأمر الذي قدموه في الدنيا ، وما له من ثقل في ميزان العبد ، عند من لا يضيع عنده مثقال ذرة

سبحانه . ذلكم ما روي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله خلقاً خلقهم لحوائج الناس ، يفزع الناس إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله » رواه الطبراني وأبو الشيخ وابن حبان ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « اصطناع المعروف » عن الحسن مرسلاً . أي أن الحسن البصري رحمه الله رواه عن رسول الله ﷺ دون ذكر الصحابي الذي أخذه عنه .

وكم هو مُفْرِحٌ لقلب المؤمن ، ومثير فيه مشاعر اليقظة ، للعمل على مافيه تنمية الأخوة الإيمانية الصادقة ، التي هي عنوان المجتمع المتماسك القوي في البناء الإسلامي .. كم هو مفرح لقلبه أن يشهد يوم الحساب ، السرورَ على وجه أخيه المسلم ـ وحال الناس هي الحال ـ لما أن هذا المسلم لقي أخاه في الدنيا بما يحب ليسرَّه ، ـ والكل إن شاء الله ـ على طريق التقوى والاستقامة . روى الطبري بإسناد حسن وأبو الشيخ في كتاب «الثواب» عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من لقي أخاه المسلم بما يحب ليسرَّه بذلك ، سرَّه الله عز وجل يوم القيامة » وروى الطبراني عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ: «من أدخل على أهل بيت من المسلمين سروراً لم يرضَ الله له ثواباً دون الجنة ».

أما الذين يجترحون السيئات ، ويدخلون المساءة والخوف والترويع على المسلمين ، ويعملون على إيذائهم في دينهم ودنياهم : فياويحهم يوم القيامة من أخذةٍ رابيةٍ من جبار السماوات والأرض الواحد القهار ، ﴿**وترى المجرمين يومئذ مقرَّنين في الأصفاد . سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار**﴾ .

ومهما يكن من أمر : فإن النصوص التي أوردتها والتي تكشف عن مشاهد الضياء يوم القيامة ، لأولئك الذين يتعاونون مع إخوانهم على ما فيه خير الفرد والجماعة ، ويقضون حوائجهم ، ويدخلون السرور عليهم ... هذه النصوص النبوية المباركة : ترتد إلى قواعد نورانية عامة في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، بياناً للقرآن المجيد .

من ذلـك ما جاء في حـديث صحيح مشهور يعـرفه القاصي والـداني ، ولكن العاملين بـه ، يكادون يكـونون قلة في هـذا العصر الذي تـداعت فيـه الأمم على المسلمين من كل جانب ، مع الكوارث والمصائب النازلة فيهم .

ذلكم ما روى مسلم في صحيحه عن أبي هـريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من نفَّس عن مؤمن كُربة من كُـرَب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخـرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عـون أخيه . ومن سلك طريقاً يلتمـس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنـة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدراسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفَّتهم الملائكـة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطَّـأ به عملُه لم يسرع به نسبُه » .

وصلاة الله وأزكـى تسليماته على نبـي الهدى والرحمة سيـدنا محمـد بن عبـدالله الذي جعل من عمل الخير وتعاون المؤمنين على ما فيه صلاحهم وصلاح مجتمعهم في ظل شريعة الإسـلام .. طريقاً إلى النجاة يوم الهول ، والأمـنِ يوم الخوف ، حيث الكُرب العظام والمخاطر الجسام ـ وعلى آلـه وصحابته ومن اتبع هداه علماً وعملاً وسلوكاً أخرويّاً إلى يوم اللقاء .

الدنيا في المثل النبوي.. والآخرة خيرٌ وأبقى

من الحقائق التي ينبغي للمؤمن اصطحابها ؛ قناعةً ، وذوقاً إيمانياً ـ وهو يذكر ما تكون عليه العقبى في اليوم الموعود ، وما يكون من تحقيق الوعد لأهل الهداية ، والوعيد لأهل الضلال ـ!! هوان الدنيا على الله ، وأن النسبة بينها وبين الآخرة ، تكاد تكون معدومة ؛ فالآخرة خير وأبقى ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾... وحُق للعاقل أن يتساءل .. أين قِصَر مدة الدنيا ، وراحتُها المختلطة بالعناء ، وصفاؤها المشوب بالكدر ، وفناءُ لذاتها مهما كانت الأسباب وكان السلطان ... أين ذلك كله ، من دوام الآخرة ؛ في عطاء رباني لا يُحَدُّ ، وخُلودٍ في جناتٍ نعيمُها مقيم ، ولذاتها خالصةٌ من شوائب الكدر والمنغّصات .

ولقد كان من نصح النبي ﷺ لأمته ، أن كشف عن هذه الحقيقة ، بياناً لكتاب الله عز وجل في شأنها ، كيما يكون المؤمن ـ وهو يعمر الأرض ، ويبني الحضارة ، ويفيد من تسخير الله ما سخر للإنسان ــ ممسكاً بعاتق الميزان ، محتكماً إلى شريعة الله وأخلاق الإسلام ؛ فتراه مبتغياً فيما آتاه الله الدار الآخرة، غير ناسٍ نصيبَه من الدنيا، يعقل عن الله ورسوله ، أن العاجلة ينبغي ان تكون مطية الآجلة ، وأن الآخرة هي دار القرار .

ومما ورد في السنة المطهرة ، تجليةً للحقيقة المشار إليها : ما أخرج الإمام مسلم في صحيحه من رواية يحيى بن سعيد قال : حدثنا إسماعيل قال : حدثنا قيس قال: سمعت مستوراً أخابني فهر يقول : قال رسول الله ﷺ : « والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثلُ ما يجعل أحدكم إصبعه هذه ـ وأشار يحيى بالسبابة ــ في اليم ، فلينظر بم يرجع » .

اليم : البحر . وهذا الحديث ـ وهو من جوامع كَلِمِهِ عليه الصلاة والسلام ـ

تبدو فيه بلاغته صلوات الله وسلامه عليه ، بـواحدة من أجلى صورها فالدنيا : ما تحمله الأصبع السبابة من البحر ، والآخرة : هي البحر نفسه . وانظر إلى قوله ﷺ : «فلينظر أحدكم بم يرجع » كم فيه من إثارة الاهتمام العقلي والنفسي بدقة وعمق!! فهذه الإصبع التـي غمسها صاحبها في البحـر ، لا يعلق بها كثير شيءٍ من الماء ، وأين ما علق بها من الماء ، من ماء البحر الزخّار نفسه ؟

وبهذا البيـان المتميِّز المشرق ، وضـع رسـول الله ﷺ المسلـم على المفترق ، بين طريقي الآخرة والدنيا ؛ والسعيد الموفـق من أحسن الاختيار . قال الإمام النووي: «ومعنى الحديث : ما الدنيا بالنسبة إلى الأخرة ـ في قصر مدتها وفناء لذاتها ـ ودوام الآخـرة ودوام لذاتها ونعيمهـا : إلا كنسبة الماء الـذي يعلـق بالإصبـع ، إلى باقـي البحر » .

وروى الحديثَ الترمـذي غيرَ مصدَّر بالقسم ولفظـه: « ما الدنيـا في الآخرة إلا مثل مـا يجعل أحدكـم إصبعه في اليم فلينظـر بماذا يرجـع » قال أبوعيسـى : هذا حديث حسن صحيح ــ وأخرجه ابن ماجة بلفظ « ما مثـل الدنيا في الآخرة ...» الحديث. وفي بعـض الروايات عنـد الإمام أحمد : مـا يؤكد أن المراد مـن الأصبع السبابة ؛ قـال عبدالله : حدثني أبي قال : حـدثنا ابن نمير قال : حـدثنا إسماعيل ويزيد بن هارون قال أنبأنا إسماعيل عن قيس قال : سمعت المستورد أخابني فهو يقول : قـال رسول الله ﷺ : « والله مـا الدنيا في الآخـرة إلا مثل مـا يجعل أحـدكم أصبعه في اليم فلينظر بم ترجع ـ يعني التي تلي الإبهام ...» .

وكم يحسن المؤمن صنعـاً : إذا هو اتخذ من هذه الحقيقة ـ حقيقـةِ هوان الدنيا على الله ، وأنها دار مـآلها إلى الهلاك ـ معيـاراً يوجـه حـركته وسلـوكه في الحيـاة ، وبذلـك يضع كـلاً من دار العمـل ودار الجزاء ، موضعهـا من تصـوره وسلوكـه ، مستشعراً ــ بجانـب ما ورد في الكتـاب العزيز في شـأن ذلك ــ هذا المثـل الذي ضربه النبي ﷺ ـ وهـو سيد البلغاء ـ لقيمة الدنيا بـالنسبة إلى الآخرة ؛ والمؤمن

إذا أخـذ نفسه بهذا النهـج الميمـون يطمئن ـــ فضـلاً مـن الله ورحمة ـ إلى حسـن العاقبة يوم المعاد ، وأن يكون واحداً من أولئـك الذين تشرق بنورهم مشاهدُ من مشاهد القيامـة ، تنبىء عن صلاح ما كان عليه أصحابها في الـدنيا ، وأنهم كانوا على الجادة فيما يأخذون وما يذرون .

ومما يزيد الأمـر وضوحاً : صورة أخرى في حديـث رسول الله ﷺ ، وهي صورة عملية معبرة أصدق تعبير عن المراد ، تدل ـ فيما تدل ـ على حرص النبي ﷺ على أن تأخذ الحقيقة التي حولها ندندن ، طـريقها بدقة وعمق ، إلى القلوب والعقول ، كيما تـؤتي أكلَهـا في مسيرة الإسـلام وأهلِـه ؛ الأمر الـذي أثمـر مـا أثمـر ، مـن الاستعلاء على الحطـام العاجل، في شتى الميـادين ، والتطلع الصادق إلى مـا عند الله، يوم يعرض الخلق عليه جل شأنه ،فلا تخفى منهم خافية .

قال الإمام مسلم : حدثنا عبدالله بـن مسلمة بنِ قعنَب قال : حدثنا سليمان ـ يعني ابـن بلال ـــ عن جعفر عـن أبيه عن جـابر بـن عبدالله رضي الله عنهما « أن رسول الله ﷺ مر بالسوق داخلاً من بعض العـالية ـ والناس كنَفَتَهُ ـ فمر بجدي أسكَّ ميتٍ فتناوله ، فأخذ بأذنه ، ثم قال : أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حياً كان عيباً فيه لأنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟ فقال : والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم ».

كنَفَتَهُ: جانبه. وفي بعض النسخ « كنفتيه » أي جانبيه . وأخرجه أحمد وأبوداود .

ومن الواضح: أن هـذا البيان النبوي في بيان قيمة الدنيا مـن الآخرة ، وشديدِ هوانها على الله ، يـذكر بـالكثير من آي الكتاب العـزيز التي منهـا قولـه تعالى في سورة النساء : ﴿قل متـاع الدنيا قليـل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمـون فتيلاً﴾ روى ابن حـاتم بسنـده عن حماد بـن زيد عـن هشام قـال : قرأ الحسـن ـ يعنـي البصري ـ ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ فقال : رحم الله عبداً صحبها ـ يعني الدنيا ـ

على حسب ذلك ، ما الدنيا كلها أولَها وآخرَها إلا كرجل نام نومة ، فرأى في منامه بعض ما يُحِبُ ، ثم انتبه . وقال ابن معين : كان أبو مُسْهِر الدمشقي ينشد :

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له   من الله في دار المقام نصيب

فإن تُعجب الدنيا رجالاً فإنها   متاع قليل والزوال قريب

وإذا كان الأمر كذلك : فالمعتصم - بعد عون الله وتوفيقه - من الاغترار بزخرفها، وجعلِ تحصيلها هو الغاية ، والوقوعِ في شرك الغفلة عن المنعم الرزاق ذي القوة المتين ، وعن حقيقة ما يكون يوم الحساب : الوفاء بعهد الله قولاً وعملاً وسلوكاً ، وتزكيةُ النفس ، كيما تكون على الجادة في طاعة الله وتقواه ، والعمل على زيادة الإيمان بما أخبر الله عنه ورسوله ، والرغبةِ فيما رغب فيه ، والرهبةِ مما رهب منه . وذلكم هو الخير العميم الذي تستمطر به الرحمة ، فيظفر العبد بأن يكون برحمة الكريم المنان في زمرة من تزدان بهم مشاهد الأبرار الموفقين .

المتحابون في الله..

مشهدهم على منابر النور يوم القيامة

من العلماء العاملين ، الـذين أخذوا أنفسهم بشدة الورع في ديـن الله ، وكانوا على ذكر من حقيقة أنه لا خير في الدنيا لمن لم يعمل لـلآخرة ؛ فالدنيا متاع قليل ، وزوالها قريب، وأن العاقلَ كُلّ العاقل مـن لم يشغله ما يفنى عما يبقى .. من هؤلاء الرجال الأفذاذ في تاريخنا أبو مُسهر الدمشقي عبدالأعلى بن مسهر ، الإمام الثقة الفقيه شيخ الشام والمتوفى سنة ثمان عشرة ومائتين أو تسع عشرة ومائتين للهجرة. قـال أبوزرعـة الدمشقـي : قـال لي أحمد بن حنبـل : «عنـدكم ثـلاثةٌ أصحـابُ حديث: الـوليد ، ومروان بن محمـد ، وأبومسهر » وقال أبـو داود : «سمعت أحمد ابن حنبل يقول: رحم الله أبـا مسهر ، ما كان أثبته ، وجعل يطريه» وقـد مرَّبنا من قريب قـول ابن معين رحمه الله ـ وهو ما يقولـه الذُّهليُّ أيضاً ـ بأن أبـامسسهر كان ينشد :

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له ... من الله في دار المقام نصيب

فإن تُعجب الدنيا رجالاً فإنهـا ... متاع قليـل والزوال قريـــب

وفي تذكير لنفسه وللآخرين بالموت، وأنه كائن لا محالة ولا مفرَّ منه، مهما عُمِّر المرء في هذه الحياة ... كان أجزل الله مثوبته ينشد ـ كما قال ابن دَيْزيل ـ :

هبك عمرتَ مثل ما عاش نوحٌ ... ثم لاقيـت كـلَّ ذاك يســـارا

هل مـن المـوت لا أبـــالـك بد ... أيُّ حي إلى سوى الموتِ صارا

والحق أن استذكـار ما جاء على لسـان هذا العـالم رحمه الله ـ وهو مـن حقائق الكتـاب والسنـة ـ يفتـح للمـؤمنين آفـاق العمـل للأخـرى ، ويعين على تخطـي

الصعاب وتجاوز العقبات ، حتى يلقى المؤمن ربه يوم يلقاه ، آمناً من الفزع الأكبر، لا يرهقه ما تحمله ساعات ذلك اليوم من الهول والحزن ، والكرب ؛ لما أنه كان في الدنيا على طريق العبودية الخالصة لله عز وجل ، وأخذ نفسه بمنهج أهل التقوى، الذين كانوا على هدىً من الله في أنفسهم ، وفي علاقتهم بالآخرين ،وكان واضحاً أنه كان من إكرام الله لهم، أن جعلهم أولياءه وأعدَّ لهم في دار المقامة من الفضل ما به يكونون على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس .

قال شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري : حدثنا أبوهشام الرفاعي قال: حدثنا أبو فضيل قال : حدثنا أبي عن عُمارة بن القعقاع عن أبي زرعة بن جرير البَجلي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول ﷺ :« إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء . قيل : من هم يارسول الله ؟ لعلنا نحبهم ، قال : هم قوم تحابّوا في الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » ثم قرأ **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**» . ورواه أبوداود أيضاً من حديث جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قال النبيﷺ : « إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى . قالوا : يارسول الله تخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله ، على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فو الله إن وجوههم لنور ، وإنهم على نور . لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » وقرأ هذه الآية **﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**. قال الحافظ ابن كثير : هذا إسناد جيد ، إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب ، والله أعلم .

ألا إنه مشهد يفيض من جنباته النور الذي أكرم الله به هؤلاء المتحابين فيه، وهو ناطق في تلكم الساعات العصيبات، بما للتحابب في الله ولله ، دونما غرض

دنيوي عـاجل ، أو وقرابـة تفرض هذا التلاقـي ... ناطق بها لهذا التحـاب ، من مكانة عند الله عز وجل ، بقربهم منه سبحـانه ، ويرتفع بهم في عرصات القيامة ، إلى أن يكونـوا آمنين حيث يفزع النـاس ، فرحين بفضل الله ، حيـث الحزن يلفُّ وجود الناس . ناهيك عما له من أثر ملموس في بناء الحياة الإسلامية ، على صعيد المجتمع والأمة .

ومن الطريف: أن هذا الحديث ليس مـوجوداً في عدد من نسخ السنن عند أبي داود ، غير أنه موجود في النسخة التي أقام عليها الإمام أبوسليمان الخطابي شرحه «معالم السنن » ولكـن جاء ذكره في «باب الـرهن » من كتاب البيـوع والإجارات . وكان في غاية الحسن ما اجتهد أبو سليمان في تعليله لهذا في « معالم السنن » من أن هـذا الحديث ، لا يـدخل في أبـواب الرهـن ، ولعل أبـاداود ذكره هنـا ، من بـاب الترغيب في المعاونة وبر المعوزين والمحتاجين للـرهن ، ليقترضوا ما يسد حاجتهم والله أعلم .

وفي حديث الإمام أحمد من رواية أبي مالك الأشعري جاء قوله رضي الله عنه : «.. ثم إن رسـول الله ﷺ لما قضى صلاتـه ، أقبل إلى النـاس بوجهه فقـال : ياأيها الناس اسمعـوا واعقلوا واعلمـوا أن لله عز وجـل عباداً ليسـوا بأنبيـاء ولا شهداء يغبِطهـم الأنبيـاء والشهـداء ، على مجالسهـم وقربهم مـن الله . فجـاء رجـل مـن الأعراب من قـاصية الناس ، وألوى بيـده إلى نبي الله ﷺ فقال : يانبـي الله ، ناس من النـاس ليسوا بـأنبياء ولا شهـداء ، يغبطهم الأنبيـاء والشهداء على مجالسهـم وقربهم مـن الله ؛ انعتهم لنا ــ يعني صفهم لنـا ـ فسَرُّ وجه رسـول الله ﷺ لسؤال الأعرابي ، فقـال رسول الله ﷺ : هـم ناس مـن أفناء النـاس ونوازع القبـائل ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابّوا في الله وتصافوا في الله ، يضع الله لهم يوم القيامة منابـر من نـور ، فيجلسهم عليهـا ، فيجعل وجـوههم نـوراً ، وثيابهم نـوراً ، يفزع الناس يـوم القيامـة ولا يفزعون ، وهـم أولياء الله الذيـن لا خوف عليهـم ولا هم يحزنون » .

هذا : وحري بالمؤمن الذي تتوق نفسه ـ صادقاً ـ إلى اللحاق بركب هؤلاء المقربين ، الذين تغمرهم هذه الأنوار يوم القيامة ، وقد أجلسهم الله على منابر من نور ... حري به أن يكون وقّافاً عند الذي يدل عليه قوله تعالى : **﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾** بعد قوله جل شأنه : **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**.

وهدي النبي ﷺ واضح في وجوب الاستمساك بالتقوى مع الإيمان ، حين أتبع ﷺ كلامه على العطاء الإلهي لهؤلاء السعداء ، بأن قرأ **﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾** فنور إيمانهم الصادق، وتقواهم في كل صغيرة وكبيرة من القول والعمل ، كانا ـ بفضل الله ـ طريقهم إلى ما فازوا به من الجلوس على منابر من النور ، وأنهم لا يخافون يوم القيامة ، إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس .

وسبحان الكريم المنان ذي الفضل العظيم ، قال عبدالله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف : «أولياء الله الذين إذا رُؤوا ذكر الله». وجاء ذلك في حديث مرفوع رواه البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قال رجل : يارسول الله من أولياء الله ؟ قال : الذين إذا رؤوا ذكر الله » ثم قال البزار : وقد روي عن سعيد بن جبير مرسلاً .

وهذا يدل على أن حالهم، أصبحت ناطقة بما هم عليه من الإيمان والعمل الصالح ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

وإن منكم إلا واردها..
وقلوب أهل الخشية

من أبرز سمات الصالحين في هذه الأمة : أنهم ذوو بصائر ينتفعون معها بكل ما أخبر الله عنه ورسوله عليه الصلاة والسلام ، من شؤون الموت ، والساعة ، والحساب ، وما يؤول إليه أمر الخلائق ، بعد تلكم الساعات المشحونة بالكرب الشديد ، والهول الهائل ، والفزع الذي يقطع نياط القلوب . وترى أن من مظاهر انتفاعهم بذلك والاتّعاظ بدلالاته ومعانيه : أنهم يترجمون هذه المشاعر الصادقة، إلى طاعة خالصة لله عز وجل ، وإنابة لربهم سبحانه وتعالى .

ولنستمع إلى واحد من عيون العبَّاد الزهاد ـ وهو ذو النون المصري ثوبان بن إبراهيم الأخيمي المتوفى سنة ٢٤٥هـ يصف طرفاً من حال هؤلاء . قال أبو نعيم في « الحلية » : حدثنا عبدالله بن محمد بن جعفر قال : حدثنا أبوبكر الدينَوري قال: حدثنا محمد بن أحمد الشمشاطي قال: سمعت ذا النون المصري يقول : «إن لله عباداً أسكنهم دار السلام ، فأخمصوا البطون عن مطاعم الحرام ، وأغمضوا الجفون عن مناظر الآثام، وقيَّدوا الجوارح عن فضول الكلام ، وطووا الفرش وقاموا جوف الظلام ، وطلبوا الحور الحسان من الحي الذي لا ينام ؛ فلم يزالوا في نهارهم صياماً ، وفي ليلهم قياماً ، حتى أتاهم ملك الموت عليه السلام» . كما روى أبو نعيم أيضاً بسنده عن عبدالله بن سهل قال : «سألت ذا النون فقلت : متى أعرف ربي ؟ قال : إذا كان لك جليساً ولم تر لنفسك سواه أنيساً . قلت : فمتى أحب ربي؟ قال : إذا كان ما أسخطه عندك أمرَّ من الصبر . قلت: فمتى أشتاق إلى ربي؟ قال : إذا جعلت الآخرة لك قراراً ، ولم تسمِّ الدنيا لك مسكناً وداراً » .

فأنت ترى أن الآخرة ، وما يؤول إليه حال المرء فيها ، دائماً بالحسبان ، ومُنْيَةُ

الواحد من هؤلاء الصلحاء الأتقياء ، أن يكون في زمرة من تشرق عليهم شمس الرحمة الإلهية في مشاهد أهل القبول المقربين يوم القيامة، يوم ينجي الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين في جهنم جثياً.

والحق أن هؤلاء الأصفياء من أهل الهداية والتقوى ــ مسلمين كانوا أو مسلمات ـ جديرون بالكثير من الغبطة على ما وفقوا إليه من العمل الصالح، والإخلاص فيه ، الأمر الذي حملهم على الانفعال الصادق الواعي ، بأخبار القيامة ومشاهدها ـ كما سبق ذكر ذلك ــ. لأن هذا طريق النجاة يوم الدين، والفوزِ بما يتفضل الله به على عباده المخلصين .

ولا يخفى على مؤمن متصل القلب بالله ، أن مشاهد الهول يوم المعاد ، ليس من الخير في قليل أو كثير ؛ نسيانها أو تناسيها ، بل المطلوب الحتم: عكسُ ذلك ، وهو ما درج عليه الصحابة عليهم الرضوان الذين عاشوا متنزل الوحي ، ونقلوا هذا الدين بأمانة عن رسول الله ﷺ إلى الأمة ، وسلك هذه السبيل من تبعهم بإحسان.

انظر إلى موقف الخشية والترقب عندهم، وعند من سار على نهجهم: من مشهد ورود النار في اليوم الموعود ؟ المشهدِ الذي جاء ذكره في قول الله تعالى في سورة مريم: ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً. ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً** ﴾ روى الحافظ عبدالرزاق في « المصنف » وأبوجعفر الطبري في تفسيره « جامع البيان ... » عن قيس بن أبي حازم قال : «كان عبدالله ابن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته، فبكى ، وبكت امرأته. فقال : ما يبكيك؟ فقالت : رأيتك تبكي فبكيت ، قال : إني ذكرت قول الله عز وجل : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ فلا أدري أنجو منها أم لا ؟» وفي رواية ـ وكان مريضاً ـ .

أرأيت إلى هذه اليقظة الإيمانية التي تنهزم أمامها الشهوات والرغبات !! إنه لمشهد بالغ الخطورة في تقرير المصير ؛ يقدره حق قدره أولئك الذين أشرقت قلوبهم بالإيمان وصفت نفوسهم من الأكدار .

ومن جرى على هذا السنن المبارك ؛ من ترقب ما ينتهي إليه ذلك المشهد العظيم ، الذي تشهده الخلائق يوم الحساب : التابعي الجليل العابد الثقة أبوميسرة الكوفي عمرو بن شرحبيل المتوفى سنة ٦٣هـ يرحمه الله إذ كان ينفعل صادقاً ويأخذه البكاء من الخوف ،عندما يذكره .

قال شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري : حدثنا أبوكريب قال : حدثنا ابن يمان عن مالك بن مِغْوَلٍ عن أبي إسحاق السَّبيعي قال : «كان أبوميسرة إذا أوى إلى فراشه قال : ياليت أمي لم تلدني ، ثم يبكي ، فقيل : ما يبكيك ياأباميسرة ؟ فقال: أُخبرنا أنا واردوها ولم نُخْبَرْ أنا صادرون عنها» وقال عبدالله بن المبارك عن الحسن البصري قال : «قال رجل لأخيه : هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال : نعم . قال فهل أتاك أنك صادر عنها ؟ قال : لا ، قال : ففيم الضحك ؟ قال : فما رئي ضاحكاً حتى لحق بالله ».

ودلالة ذلك على أخذ النفس بالحزم ، في أمور الآخرة واضح كل الوضوح ، ولا يتنافى مع الرجاء بفضل الله تعالى ، ثم ما دلت عليه الأخبار المبينة لمعنى الورود كما جاء في كتاب الله العزيز . قال عبدالله ابن الإمام أحمد : حدثني أبي قال : حدثنا سليمان بن حرب قال . حدثنا غالب بن سليمان أبو صالح عن كثير بن زياد البُرساني عن أبي سُمَيَّةَ قال : « اختلفنا ههنا في الورود : فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضنا : يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا ؛ فلقيت جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ، فقلت له : إنا اختلفنا في ذلك الورود : فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضنا : يدخلونها جميعاً ، فأهوى بأصبعيه إلى أذنيه وقال : صُمَّتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الورود الدخول ... لا يبقي بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً ، كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار ـ أو قال لجهنم ـ ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ، ويذر الظالمين فيها جثياً » قال الحافظ ابن كثير : غريب ولم يخرجوه .

ونجد في « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » للطبري : ما روى بسنده عن خالد بن معدان قال : « قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة : ألم يعدنا ربنا الورود على النار ؟ قال : قد مررتم عليها وهي خامدة ».

ويجد الناظر في الأخبار الواردة عن ابن عباس رضي الله عنهما ايضاً وغيره ، ما يدل على تفسير الورود بالدخول ، أو بالمرور ؛ ويلطف الله بالمؤمنين المتقين فينجيهم سالمين ، ويدخلهم الجنة غانمين. قال عبدالرزاق : أخبرنا ابن عيينة عن عمرو قال: أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الأزرق المتوفى سنة ٦٥هـ فقال ابن عباس : «الورود الدخول ، وقال نافع : لا ، فقرأ ابن عباس : ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون**﴾ . وقال: ﴿**يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار**﴾ وردٌ هو أم لا ؟ أما أنا وأنت : فسندخلها ، فانظر هل نخرج منها أم لا ؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك » .

ولنا عودة إن شاء الله إلى متابعة الكلام على هذا المشهد الزاخر بالعبر والدروس ، الفياض بما يوقظ الغافلين لو كانوا يسمعون .

ونسأله تعالى أن يجعلنا فيمن يعملون بما يعلمون ويتعظون بما يفقهون !

دعاء الملائكة عند الورود: اللهم سلم سلم

هذه خطوة أخـرى ، مع زمرة مباركة مـن الأحاديث والآثار التـي تتحدث عن مشهد الورود يوم القيامة ؛وهو مشهد بـالغ الخطورة من مشاهد يوم الجزاء .. تلك المشاهد الناطقة بلغة الواقع الذي لا يحتمل اللبس ، المعلِنة على رؤوس الاشهاد عن طبيعة العلاقة بينها ـ كما أشرت غير مرة ـ وبين ما كان عليه أمر أصحابها في الدنيا ؛ والمهم : الانتفاع بما هو وارد من الأخبار الصادقة عن تلكم المشاهد ، كي يزداد المؤمن إيماناً ، فيضـاعفَ العمل ، مسارعاً إلى ما فيه مرضـاة مولاه ، ونجاته يوم الدين ، ويصحوَ الغافل ، وتعلوَ همة المقصر ، لأن الأمر في غاية الجد والبعد عن الهزل والعبث .... والعاقل من اتعـظ واعتبر ، وأفاد مما يقرأ ويسمع ، وحداه الحرص على أخراه ، إلى المزيد من الجد في طاعة الله ، قبل أن يوافيه الأجل المحتوم، وهو كائن لا محالة .

وقد رأينـا من قريـب ما روى عبدالرزاق في المصنـف عن عبدالله بـن عباس رضي الله عنهما أنه فسر الورود في قوله تعالى :﴿ وإن منكم إلا واردها﴾ بالدخول، ثم تكون النجاة للمؤمنين المتقين،ويذر ربنا تبارك وتعالى الظالمين في جهنم جِثيّاً .

وأخرج هذا الأثر الطبري أيضاً من طريق عبدالرزاق ، وروى ابن جريج عن عطـاء بن أبي ربـاح قال : قـال أبو راشـد الحروري ـ هـو نافـع بن الأزرق ــ ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ . فقال ابـن عباس : ويلك أمجنون أنـت ؟ أين قولـه تعالى : ﴿يقدم قـومه يوم القيـامة فأوردهـم النار ﴾ والمعنـي فـرعون ، وقـولُـه : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنـم ورداً ﴾ ﴿ وإن منكم إلا واردهـا ﴾ ؟ والله إن كان دعـاء من مضى: اللهم أخرجني من النار سالماً وأدخلني الجنة غانماً .

وقد مر بنا ـ من قبل ـ تذكير ابن عباس رضي الله عنهما نافعاً هذا ، بما هو المهم

في الموضوع ـ ألا وهو النجاةُ من النار ، ودخولُ الجنة بفضل الله عز وجل ـ. وهذه رواية أخرى تدل على مزيد من تذكير حَبْرِ الأمة لـه بذلك ؛ فقد أخرج ابن جرير بسنده عـن مجاهد قال : كنت عنـد ابن عباس ، فأتـاه رجل يقال له : أبـوراشد ـ وهو نافع بن الأزرق ـ فقال لـه : ياابن عباس ، أرأيت قول الله : **﴿وإن منكم إلا واردهـا ، كـان على ربـك حتماً مقضيـاً ﴾** ؟ قـال : «أما أنـا وأنت يـاأباراشـد : فسنردها، فانظر هل تصدر عنها أم لا ؟ »

وقد دلت بعض الروايات على اختـلاف القراءة في قوله تعالى : **﴿وإن منكم﴾** فقد روى أبـو داود الطيالسي عـن شعبة قال : أخبرني عبـدالله بن السـائب عمن سمع ابن عباس يقرأها « وإن منهم إلا واردها » يعني الكفار . وأورده الحافظ ابن كثير في التفسير .

قال : وهكذا روى عمرو بن الوليد الشني أنه سمع عكرمة يقرأها كذلك «وإن منهم إلا واردها » قال : وهم الظلمة ؛ كذلك كنا نقرأها . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

ويبدو ـ والله أعلـم ـ أن الورود في الآية، أعـم من أن يكون الدخـولَ فحسب، وقد فسَّره كثيرون بالجواز على الصراط ؛ لأن الصراط ممـدود على جهنم ـ كما ورد في عدد من الأحاديث ـ وقد مر بنا بعضها في مناسبات خلت .

وعن ابن عباس ـ كما يقول صاحب البحـر المحيط ـ قد يرد الشيءَ ولم يدخله، كقوله تعالى : **﴿ولما ورد ماء مدين﴾** ووردت القافلة البلد ولم تدخله ، ولكن قربت منـه ، أو وصلـت إليه . وتقـول العـرب : وردنـا مـاء بنـي تميم وبنـي فـلان : إذا حضروهم ودخلوا بلادهم ، وليس يراد به الماء بعينه .

وقد روى الإمام أحمد بسنـده عن عبدالله بن مسعـود رضي الله عنه **﴿وإن منكم إلاواردها﴾** قـال رسـول الله ﷺ : « يـرد النـاس النارَ كلهـم ثـم يصـدرون عنهـا بأعمالهم» ورواه الترمذي عن السـدي قال : سألت مُرَّةَ الهمدانيَّ عـن قول الله عز

وجل: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ فحدثني أن عبدالله بن مسعود حدثهم قال: قال رسول الله ﷺ : « يرد الناس النار ثم يصدرون عنها بأعمالهم ؛ فأولهم كلمح البرق، ثم كالريح ، ثم كحُضر الفرس ، ثم كالراكب في رحله ، ثم كشد الرجل ، ثم كمشيه». قال الترمذي : هذا حديث حسن رواه شعبة عن السُّدِّي ولم يرفعه ، وأخرجه الحاكم وصححه والبيهقي والدارمي وابن أبي حاتم . وعلى هذا يكون المراد بالورود ههنا : الجواز على جسر جهنم .

قوله : ثم يصدرون عنها . أي ينصرفون عنها ؛ لأن الصدر إذا عُدِّيَ بعن اقتضى الانصراف ـ وهذا على الاتساع ـ ومعناه النجاة إذ ليس هناك انصراف ، ولكنه المرور عليها ، فوضع الصدر موضع النجاة للمناسبة التي بين الصدور والورود . قال الطيبي رحمه الله: «ثم» في «ثم يصدرون » مثلها في قوله تعالى : ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾ في أنها للتراخي في الرتبة ، لا في الزمان. بيَّن الله تعالى التفاوت بين ورود الناس النار ، وبين نجاة المتقين منها ؛ فكذلك بيَّن رسول الله ﷺ التفاوت بين ورود الناس النار ، وبين صدورهم عنها . والمراد بالصدور : الانصراف .

ولقد نجد أن الحديث الذي يشعر بأن المرور هو الجواز على جسر جهنم ، وقع ههنا مرفوعاً ، وقد رواه أسباط عن السدي عن مرة عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : (يرد الناس جميعاً الصراط ، وورودهم قيامهم حول النار ، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمر كعدو الرجل ، حتى إن آخرهم مَرّاً رجل نوره على موضع إبهامي قدميه ، يمر يتكفأ به الصراط ، والصراط دحضٌ مزلة ، عليه حسك كحسك القتاد ، حافتاه ملائكة ، معهم كلاليب من نار ، يختطفون بها الناس ..» وذكر تمام الحديث . رواه ابن أبي حاتم . ويروي ابن جرير عن أبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود أيضاً : « قوله : ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ قال : الصراط على

جهنم مثل حد السيف ، فتمر الطبقة الأولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، ثم يمرون والملائكة يقولون : اللهم سلم سلم » .

الدحض : الزلِق . والحسك الشوك ، والقتاد : شجر له شوك ، وحُضْرُ الفرس: عدوه ، أو عدوها لأن الفرس يقع على الذكر والأنثى . قال ابن الأثير : في حديث ورود النار « ثم يصدرون عنها بأعمالهم كلمح البرق ثم كالريح ، ثم كحُضْرِ الفرس» الحُضْر بالضم : العدو . وأحضرَ يُحْضِر فهو مُحْضِرٌ .

ونِعِمّا يفعل المؤمن ، حين يجعل نصب عينيه هذا المشهد الذي يتقرر معه المصير إلى الجنة أو إلى النار ، فيديم عمل الصالحات ، والتوبة من الزلات والمخالفات ، ويُعِدّ نفسه بالزاد المناسب لتلكم اللحظات التي يشيب لهولها الوليد .

وقال أبوجعفر : حدثني يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد في قوله : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ ورود المسلمين: المرور على الجسر بين ظهريها ، وورود المشركين أن يدخلوها . قال : وقال النبي ﷺ : « الزّالّون والزّالاّت يومئذ كثير ، وقد أحاط الجسر سماطان من الملائكة دعواهم يومئذ : يا الله سلم سلم ».

لا يدخل النار من بايع تحت الشجرة..
لا تمسّه النار إلا تحلة القسم

نتابع اليوم ما أتينا عليه في صفحات قريبات ، من الكلام على مشهد الورود يوم القيامة في ظل قول الله تبارك وتعالى في سورة مريم : ﴿**وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً**﴾ [٧١] وما جاء في بيان ذلك من الأحاديث والآثار . واللهَ نسأل أن يؤمننا ـ بمنّه وكرمه ـ يوم الفزع الأكبر وأن يجعلنا من الملطوف بهم في ذلك الورود ، فنجوزَ الصراط إلى مقعد الصدق في جنة الخلد ، وما ذلك على أرحم الراحمين بعزيز .

وإني مذكِّر هنا بما جاء عند الإمام في «المسند» حيث قال رحمه الله: حدثنا سليمان بن حرب قال : حدثنا غالب بن سليمان عن كثير بن زياد البُرساني عن أبي سُمَيَّةَ قال : «اختلفنا ههنا في الورود ، فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضنا : يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا ، فلقيت جابر بن عبدالله رضي الله عنهما فقلت له : إنا اختلفنا في ذلك الورود ، فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضنا : يدخلونها جميعاً فأهوى بأصبعيه إلى أذنيه وقال : صُمَّتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : الورود : الدخول ، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً ، كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم ، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جِثِيّاً » قال الحافظ ابن كثير : غريب ولم يخرجوه .

وقال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » : «قلت: لجابر حديث صحيح موقوف غير هذا ، رواه أحمد ، ورجاله ثقات» . وأسنده ابن عبدالبر في كتابه «التمهيد». وقد أوردت فيما سبق من القول ، ما ورد من الاختلاف في المراد

بـ(الورود) والمؤدى واحد ـ والله أعلم ـ إذ العبرة بالنجاة؛ سواء دخل المؤمن النار، فكانت برداً وسلاماً عليه، أو اجتازها وهو يمر على الصراط .

وجنح الإمام القرطبي في تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » إلى أن ظاهر الورود: الدخول؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : «فتمسُّه النار » لأن المسيس حقيقتُه في اللغة: المماسة ، إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين ، ويخرجون منها سالمين . قال خالد بن معدان : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا : إنا نرد النار؟ فيقال : لقد وردتموها فألفيتموها رماداً ».

ثم قال القرطبي: « قلت : وهذا القول يجمع أشتات الأقوال : فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها ، فقد أُبعد عنها ونُجِّيَ منها ؛ نجانا الله تعالى منها بفضله وكرمه ، وجعلنا ممن وردها فدخلها سالماً ، وخرج منها غانماً ».

ثم إن القرطبي أراد بالإشارة إلى عبارة « فتمسُّه النار » ما جاء في حديث صحيح يأتي قريباً إن شاء الله .

هذا : ولسوف تشهد الخلائق يوم الحساب ـ حقيقة ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ قائمة لها سلطانها ، والنفوس في وَلَه مُضْنٍ وحَيْرَةٍ بالغةٍ ، وخوف شديد ـ لسوف تشهد الخلائق يومذاك ـ والحال على ما وصفت وأشد ـ أناساً تغشاهم الرحمة الربانية ويخصهم الله بلون من ألوان الفضل في شأن الورود .

قال الإمام مسلم : حدثني هارون بن عبدالله قال : حدثنا حجاج بن محمد قال: قال ابن جريج : أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبدالله رضي الله عنهما يقول : أخبرتني أم مبشر «أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة : لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها . قالت : بلى يارسول الله ،فانتهرها ، فقالت حفصة : ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ فقال النبي ﷺ: قد قال الله عز وجل : ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾» .

هذا : وقد كشف العلماء اللثام عن أن معنى قوله ﷺ : « لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها » لا يدخلها أحد منهم قطعاً ، كما صرح به في حديث جابر رضي الله عنه الذي رواه مسلم وغيره ، من «أن عبداً لحاطب بن أبي بلتعة ، جاء رسولَ الله ﷺ فقال : يارسول الله ليَدْخُلَنَّ حاطبٌ النار ، فقال رسول الله ﷺ: كذبتَ لا يدخلها ؛ فإنه شهد بدراً والحديبية». وهكذا يكون قوله عليه الصلاة والسلام في حديث أم مبشر « إن شاء الله » للتبرك لا للشك . قال الإمام النووي رحمه الله : (وأما قول حفصة : «بلى» وانتهار النبي ﷺ لها فقالت: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ فقال النبي ﷺ : وقد قال : ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ فيه دليل للمناظرة والاعتراض ، والجوابِ على وجه الاسترشاد ؛ وهو مقصود حفصة رضي الله عنها ،لا أنها أرادت رد مقالته ﷺ . والصحيح : أن المراد بالورود في الآية : المرور على الصراط ــ وهو جسر منصوب على جهنم ـ فيقع فيه أهلها وينجو الآخرون) .

ولا ريب في أن ما جاء في هذا الحديث ، من البشرى العظيمة للذين بايعوا تحت الشجرة ، يحمل مزيداً من البيان لما جاء في القرآن في فضلهم ؛ ذلكم قوله تعالى في سورة «الفتح»: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافي قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾. وحديث حفصة أخرجه أيضاً الإمام أحمد بسنده عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما «أن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة قالت : «كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة ، فقال : لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية . قالت حفصة : أليس الله عز وجل يقول : « وإن منكم إلا واردها » قالت : قال رسول الله ﷺ : فمه ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾» .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن معاذ بن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله تبارك وتعالى متطوعاً لا يحُدُّه سلطان لم ير النار بعينيه إلا تَحِلَّةَ القسم فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وإن منكم

إلا ورادها ﴾ . ورواه أبو يعلى والطبراني ، قال الحافظ المنذري : ولا بأس بإسناده في المتابعات . وقال الهيثمي : في أحد إسناديه أحمد بن لهيعة وهو أحسن حالاً من ابن رشدين .

«لا يأخذ ه سلطان » أو « لم يأخذه سلطان » ـ كما في بعض الروايات ـ أي أنه خارج للحراسة في سبيل الله بنية خالصة من قلبه ابتغاء وجه الله ، لم يقهره حاكم ولم يجبره وال ، بل كان عمله جهاداً لنصرة ديـن الله ، وإعلاء كلمته رغبةً لا رهبةً . فإذا توافر له ذلك : كان من أهل تلك البشارة العظيمة التي جاءت في الحديث.

وسبحان من وسع فضله العباد. ومـا على المرء إلا أن يكون على طريق العبودية الخالصة له ـ جل شأنه ـ. روى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث الزهري عن سعيد بن المسيَّب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسُّه النار إلا تَحِلَّةَ القسم» ورواه عبدالرزاق في «المصنف » ولفظه « من مات له ثلاثة لم تمسه النار إلا تحلة القسم » يعني الورود . وأخرج أبوداود الطيالسي بسنده عن أبي هـريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا يموت لمسلم ثـلاثة من الولد تمسه النـار إلا تحلة القسم» قال الزهـري : كأنه يـريد هـذه الآية ﴿ وإن منكـم إلا واردهـا كـان على ربـك حتماً مقضياً﴾ .

وفي النهـاية لابـن الأثير : قيل : أراد بـالقسـم، قولـه تعالى : « وإن منكـم إلا واردها» تقول العـرب : ضربه تحليلاً وضربه تعـذيرياً إذا لم يبالـغ في ضربه ، وهذا مَثَلٌ في القليل المفرط في القلة ، وهو أن يباشر من الفعل الذي يُقسِم عليه المقدار الذي يُبِرُّ بـه قسمه ، مثـل أن يحلف على النـزول بمكان ، فلـو وقع وقعـة خفيفة أجزأته ، فتلك تحلة قسمه . فالمعنـى: لا تمسُّه النار إلا مسَّةً يسيرةً مثل تحلة قسم الحالف ، ويـريد بتحلتـه الورود على النـار والاجتياز بها،والتـاء في التحلة زائدة . وطوبى لأهل البشريات الموفقين .

الجمعة في أبواب الخير...
والفضل الإلهي يوم الحساب

إذا صدق العبد مع الله ، وجد بحق ، أن تلك المشاهد الغامرة بالضياء والعطاء يوم الدين : مفاتيحها المباركةُ مذللة بين يديه هنا في هذه الدار ، وكلما كان أشدَّ تمسكاً بهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام ، كان ـ بفضل الله ورحمته ـ أكثر حظوة بما يمن الله على عباده الصادقين المنيبين ؛ من الإكرام والإحسان ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً﴾ .

فإذا رغب فيما رغَّب الله ورسوله به ، وعمل بصدق لذلك ، وانتهى عما نهى عنه الله ورسوله ، ورهب منه ، ـ مستعلياً على تسويلات الشيطان والهوى ـ فقد اتخذ المحجة البيضاء طريقاً إلى الجنة ، يدخلها برحمة الله ويكون خالداً فيها ، وهي خير مستقراً وأحسن مقيلاً .

هذه أبواب الخير والبر مشرعة في ساحات العبادة والعمل والجهاد والسلوك، حتى إنك لترى أن السعي لفريضة الجمعة ـ مثلاً ـ على الوجه الذي نبه عليه رسول الله ﷺ يرقى بالمؤمن المخلص دينَه لله ، إلى الدرجات العلا يوم القيامة ، حيث الفضل الإلهي الذي لا يُحَدُّ .

قال الحافظ ابن كثير : (روى البزار وابن أبي حاتم من حديث شريك القاضي عن عثمان بن عمير أبي اليقظان عن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ولدينا مزيد﴾ من قوله سبحانه في سورة قّ ﴿لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد﴾ قال : «يظهر لهم الرب عز وجل في كل جمعة ») وأورد الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه (زاد المعاد) ما ذكر الطبراني في (معجمه) من حديث أبي نعيم المسعودي عن المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة قال : قال عبدالله : «سارعوا إلى الجمعة ، فإن

الله عز وجل يبرز لأهل الجنة في كل جمعة في كثيب من كافور ، فيكونون منه في القرب ، على قدر تسارعهم إلى الجمعة ، فيحدثُ الله لهم من الكرامة شيئاً ، لم يكونوا قد رأوه قبل ذلك ، ثم يرجعون إلى أهليهم ، فيحدثونهم بما أحدث الله لهم. قال : ثم دخل عبدالله المسجد ، فإذا هو برجلين ، فقال عبدالله : رجلان وأنا الثالث ، إن شاء الله يبارك في الثالث» . وقد ذكره الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » وقال : رواه الطبراني في «الكبير» وأبوعبيدة لم يسمع من أبيه ؛ فهو منقطع. وقال الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب» (رواه الطبراني في الكبير وأبوعبيدة اسمه عامر ولم يسمع من أبيه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، وقيل : سمع منه).

ولكم يكون المؤمن على الجادة ، إذا هو اتخذ من هذه البشرى ، حافزاً على الإقبال على الطاعة بعزيمة صادقة ،وبُعْدٍ عن الكسل الذي يغشى المنافقين ـ وهم يقومون إلى الصلاة ـ وسارع حيث تُطلَبُ المسارعة رغبةً بما رغب به سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام .... إنه إن فعل ذلك : حظي بتلك الكرامة من الرحيم الرحمن سبحانه ، وكان من أولئك الذين يغمرهم ضياء ذلك المشهد ، الذي تهفو إليه ـ بخشوع وخضوع ـ قلوب المؤمنين. وذكر البيهقي في كتابه «شعب الإيمان » عن علقمة بن قيس قال : «رحت مع عبدالله بن مسعود رضي الله عنه إلى جُمَعَةٍ ، فوجد ثلاثة قد سبقوه ، فقال : رابع أربعة، وما رابع أربعة ببعيد ، ثم قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس يجلسون يوم القيامة من الله على قدر رواحهم إلى الجمعة ؛ الأول ثم الثاني ، ثم الثالث ، ثم الرابع » ثم قال : «وما رابع أربعة ببعيد». ورواه ابن ماجة في كتاب « إقامة الصلاة » من السنن «باب ما جاء في التهجير إلى الجمعة» . وابن أبي عاصم وإسناده حسن ، حَسَّنه الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » والبوصيري في « الزوائد » .

وفي عود على ما نجد في الحديث والأثر من معاني قوله تعالى : ﴿ولدينا مزيد﴾ حيث مر بنا من قريب ما قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «يظهر لهم الرب عز

وجل في كل جمعة» وفي رواية «يتجلى» ومع تقرير أن قول أنس هذا لا يتعارض مع ما مـر بنا في مناسبة أخـرى من قول صهيـب بن سنان الرومـي رضي الله عنه : أن الزيـادة هي النظـر إلى وجه الله الكريـم .. في عود على ما نجـد من هـذه الصورة المباركة من صور الفيض الإلهي على أهل التقوى مـن عباده يوم المعاد : نذكر قول الإمام ابن القيم يـرحمه الله في الزاد : (حدثنا محمد بن نوح قال : حـدثنا محمد ابن موسى بن سفيـان السكري ، قال : حدثنا عبدالله بن الجهم الـرازي. قال: حدثنا عمرو بن أبي قيس عن أبي طيبة عن عـاصم عن عثمان بن عمير أبي اليقظان عن أنس بـن مالك رضي الله عنـه ، عن رسـول الله ﷺ قال : « أتاني جبريـل وفي يده كالمرآة البيضـاء فيها كـالنكتة السـوداء : فقلت : مـا هذا يـاجبريل ؟ قـال : هذِه الجمعة يعرضهـا الله عليك لتكون لك عيداً ولقـومك من بعدك ، قلـت : وما لنا فيها ؟ قال : لكم فيها خير . أنت فيها الأول ، واليهود والنصارى من بعدك ، ولك فيها ساعةٌ لا يسـأل اللهَ عز وجل عبدٌ فيها شيئاً هو لـه قَسْمٌ إلا أعطاه ، أو ليس له قَسْمٌ إلا أعطاه أفضلَ منه، وأعاذه من شر ما هو مكتوب عليه، وإلا دفع عنه ما هو أعظـم من ذلك . قال : قلـت : وما هذه النكتـة السوداء ؟ قال: هي السـاعة تقوم يوم الجمعة ، وهو عندنا سيد الأيـام ، ويدعوه أهل الآخرة يوم المزيد . قال : قلت : ياجبريل ومـا يوم المزيد؟ قال : ذلك أن ربك عـز وجل اتخذ في الجنة وادياً أفْيحَ من مسك أبيض . فإذا كان يوم الجمعة ، نزل على كرسيه ، ثم حُفَّ الكرسيُّ بمنابرَ من نور ، فيجيء النبيون ، حتى يجلسوا عليهـا ، ثم حُفَّ المنابر بمنابرَ من ذهب، فيجـيء الصدّيقون والشهداء ، حتـى يجلسوا عليها ، ويجيء أهـل الغُرَف حتى يجلسوا على الكُثُبِ . قال : ثم يتجلى لهم ربهم عـز وجل، قال : فينظرون إليه فيقول : أنا الذي صدقتكم وعدي ، وأتممت عليكم نعمتي ، وهذا محل كرامتي فسلـوني ، فيسألـونه الـرضى ، قـال : رضـاي أنزلكـم داري وأنا لكـم كرامتـي : فسلوني، فيسألونه الرضى ، قال : فيشهد لهم بـالرضى ، ثم يسألونه، حتى تنتهي رغبتهم ، ثـم يفتح لهم عند ذلـك مالا عين رأت ولا أذن سمعـت ، ولا خطر على

قلب بشر .... إلى أن يقول : فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة، ليزدادوا من كرامة الله عز وجل ، والنظرِ إلى وجهه الكريم ، فذلك يوم المزيد» .

عثمان بن عمير أبو اليقظان ضعّفه بعضهم ، والحديث في مسند الشافعي بنحوه ، وأورده السيوطي في « الدر المنثور » وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، والبزار ، وأبي يعلي ، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني في «المعجم الأوسط » وابن مردويه ، والآجري في « الشريعة » والبيهقي في « الرؤية » وأبو نصر السجزي في « الإبانة » .

وصلاة الله وأزكى تسليماته على إمام المرسلين المبعوث رحمة للعالمين الذي لم يدع أن يرغِّب في ولوج أبواب الخير ، ويُرهِّب من الوقوع في مزالق الشيطان والهوى، حرصاً على صالح العقبى للمؤمنين وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهديه وأخذ نفسه بما يبلغ به النجاة في عاقبة أمره ويحظى بفضل الله ورضوانه يوم المزيد .

موازين القسط..

ما يثقلها ويقرب من رسول الله ﷺ يوم الدين

لله ما أهدى أولئك البررة ، الذين تـمَّ لهم أن يعقلوا عن الله تبارك وتعالى وعن رسولـه عليه الصـلاة والسلام ، مـا ينبغي للمـؤمن أن يكـون عليه في الـدنيا، كيما يستقيم له أمر الآخرة ، وينجو مع الناجين ، بل ويفوز مع الفائزين .

وأنت واجد ـ حقاً ـ أن حسن العقبى لهم يوم الدين ـ بإذن الله ورحمته ـ ، وأن الناس سـوف يشهدون في ذلـك اليوم الـذي تضع فيـه كل ذات حملهـا ، ﴿ **وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ...﴾ سوف يشهدون أن هؤلاء الذين عقلوا عن الله ورسوله مـا أراد في شأن الدنيا والآخرة ، هم أصحاب المكارم يوم القيامـة ، وهم الذين تزدان بهم مشاهد النـور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

وطوبى لمن أخذ نفسه بالتزام الطريق التي دعا إليها الكتاب الكريم، وأوضح معالمها بـالبيان النَّيِّر الشافي رسـول الله عليه أفضل الصلاة وأتـم التسليم . وغير خاف أن مـن أحقية تلكم القيـم التي دعا إليها الإسـلام ، وربى عليها أصحـابَه محمد عليه الصلاة والسلام .... أنك لا تجد عصراً ، يخلو من أولي العزائم والهمم الذين تمسكـوا بأهداب السنة ، وكـان تطلعهم إلى النجاة يوم الـدين؛ في أنفسهم وفيمن ولاهـم الله دعوتهم إلى طريـق الحق ، محوراً لا يلتفتون عنـه يمنة ولا يسرة ، كائناً ما كان الميدان الذي يضربون فيه ، والثغر الذي أقامهم الله عليه.

وما من ريب في أن هذا من كمال التوفيق؛ لأن الأمر يوم الدين شديد، والعاقل كل العاقل مـن عمل على إصلاح الخطأ ، وتقويم الاعوجـاج ،صادقاً مخلصاً بين يدي مـولاه الذي يضع الموازيـن القسط ليوم القيامـة ، كما أخبر جل شأنـه عن

ذلك بقوله في سورة الأنبياء ـ وهي سورة مكية ـ **﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾**.

هذا ابن السماك محمد بن صَبيح العجلي الزاهد القدوة سيد الوعاظ في عصره ـ كما يقول الذهبي ـ والمتوفى سنة ثلاث وثمانين ومائة يقول : «همة العاقل في النجاة والهرب ـ يعني من النار ـ، وهمة الأحمق في اللهو والطرب. عجباً لعين تلذُّ بالرقاد ، وملك الموت معها على الوساد ، حتى متى يبلِّغنا الوعاظ أعلام الآخرة ، حتى كأن النفوس عليها واقعة ، والعيون ناظرة ! أفلا منتبهٌ من نومته ، أو مستيقظ من غفلته ، ومفيقٌ من سكرته ، وخائف من صرعته !! كدحاً للدنيا كدحاً ، أما تجعل للآخرة منك حظاً ؟ أقسم بالله لو رأيتَ القيامة تخفق بأهوالها ، والنارَ مشرفة على آلها ، وقد وضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ، لسرَّك أن يكون لك في ذلك الجمع منزلة !! أبعد الدنيا دار معتمَل ؟ أم إلى غير الآخرة منتقل ؟ هيهات هيهات ، ولكن صُمَّت الآذان عن المواعظ ، وذهلت القلوب عن المنافع ، فلا الواعظ ينتفع ، ولا السامع ينتفع ».

وفي تذكير لمن تسكرهم الدنيا بزينتها ، ويشغلهم عن اليوم الحق في الآخرة زخرفها : يقول رحمه الله مجلِّياً الحقيقة بوضوح : « هب الدنيا في يديك ، ومثلها ضُمَّ اليك ، وهب المشرق والمغرب يجيء إليك ؛ فإذا جاءك الموت ، فماذا في يديك ؟ ألا من امتطى الصبر قوي على العبادة ، ومن أجمع الناس استغنى عن الناس ، ومن أهمَّته نفسه لم يول مَرَمَّتها غيرَه ، ومن أحب الخير وفِّق له . ومن كره الشرَّ جُنِّبَه ، ألا متأهب لما يوصف أمامه ، ألا مستعد ليوم فقره ، ألا مبادر أجله ، ما ينتظر من ابيض شعره بعد سواده ، وتكرَّش وجهه بعد انبساطه ، وتقوَّس ظهره بعد انتصابه ، وكلَّ بصره ، وضعف ركنه ، وقلَّ نومه ، وبلي منه الشيء بعد الشيء في حياته !! فرحم الله امرءاً عقل الأمر ، وأحسن النظر واغتنم أيامه .... قد أصبحت في دار العزاء ، وغداً تصير إلى دار الجزاء ، فاشتر نفسك لعلك تنجو» .

ولكم نبه رسول الله ﷺ الأمة على ما بِفِعْلِه ، تكون الجنة هي المأوى ، وعلى ما بالوقوع فيه، تكون جهنم هي الموعد والعياذ بالله . ومن ذلك ما نرى على ساحة الأخلاق والتعامل بين المسلمين ؛ فقد رغّب صلوات الله وسلامه عليه في كل ما يلُمُّ الشعث ،ويجمع الكلمة في الدنيا ، ويُعقب الفوز المبين في الآخرة ، كما رهَّب من كل ما هو عكس ذلك. وما أحوج الأمة اليوم إلى تبين تلكم العلاقة الوثيقة ، بين ما وجه إليه رسول الله ﷺ ، وبين ما هي عليه الحال في الواقع الذي يقضُّ مضاجع المخلصين ، وما يمكن أن يؤول إليه الأمر من سوء العاقبة يوم الدين، قال الإمام الترمذي : (حدثنا ابن أبي عمر قال: حدثنا عمرو بن دينار ـ عن ابن أبي مليكة ، عن يعلى بن مملك عن أم الدرداء عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله ليبغض الفاحش البذي » . قال أبو عيسي : وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة وأنس وأسامة بن شريك وهذا حديث حسن صحيح .

ويتساءل المرء : أينا لا يريد أن تثقل موازينه يوم القيامة ـ وثقل الموازين طريق الجنة يوم اللقاء، وعلى العكس من ذلك ترى الخسران المبين لمن خفت موازينه ـ؟! ﴿**فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية . وأما من خفت موازينه فأمه هاوية. وما أدرك ما هيه . نار حامية**﴾ .

إنه لمشهد مثقل بالعبرة أن يرى الناس بأم أعينهم يوم القيامة ، كيف أن فلاناً من الناس ، أثقل ميزانَه يوم الحساب حسنُ خلقه ـ كما بين الرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام .. ـ وأن آخرين خفت موازينهم ، بسبب الإعراض عما وجه إليه النبي الكريم ، وأعقبتهم طاعة الشيطان والهوى : أن كانت الجحيم هي المأوى .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة ، الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون . قالوا :

يارسول الله قد علمنا الثرثارين والمتشدقين ، فما المتفيقهون ؟ قال : المتكبرون ».
وأخرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب . وابن حبان في صحيحه من حديث أبي ثعلبة ، والطبراني .

فمن شاء أن يكون من أحب الناس إلى النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام ومن أقرب الناس منه مجلساً يوم القيامة ــ وياله من مشهد يعز على الوصف ـ فليكن عند الذي هدى إليه ﷺ من حسن الخلق ، في ظل شرعة الإسلام . وما أطيب الآثار التي تترتب على ذلك في الأسرة والمجتمع ، وتلك سمة الهدي النبوي ؛ خيرٌ في الدنيا وخيرٌ في الآخرة ، والله يحب المحسنين . .

ومما يؤكد هذه الحقيقة ويوجب الأخذ بها في السلوك : ما روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « احتجت الجنة والنار: فقالت النار : فيَّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة : فيَّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم، فقضى الله بينهما : إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء ، وإنك النار عذابي أعذب بك من أشاء ، ولكليكما علي ملؤها » وقد مر بنا من قبل تفسير ذلك ، وأن المراد بالضعفاء والمساكين ــ هنا ــ من ليسوا من الظلمة والجبارين والمستكبرين.. كما دلت على ذلك نصوص كثيرة أخرى . وسبحان من فضله هو الفضل ، وعطاؤه هو العطاء .

وصلّى الله وسلم وبارك على من أنار سبيل الأمة ودلّها بهديه القويم على كل ما فيه سعادة الدنيا والقرب منه صلوات الله وسلامه عليه ﴿**يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله**﴾.

المفسدون.. وردغة الخبال يوم المعاد

لا يرتـاب مؤمن جـادٌّ في طلب الآخرة ، وأن يكون ــ بفضل الله ـ في عـداد من يغمـرهم العطـاء وتشرق عليهـم الرحمة في جنـة الخلـد .. أنه لابـد مـن المعرفـة الحقيقية لما دُعينـا إلى معرفتـه من تحديـدٍ لما هو من أمـر الدنيـا ، ولما هو مـن أمر الآخرة ، وذلك أعون على فهم النصوص الواردة في ذلك ، كيما يكون الإنسان على بينة من أمـره ـ وهو على مفترق الطرق في هذه الحيـاة ـ فإما طريـق السعادة التي تنتهي بدار المقامـة ، والخلود في النعيم المقيم ورضوان من الله أكبر ، وإمـا طريق الشقاوة التـي تنتهي ــ وقانـا الله شرَّ ذلك ــ بعذاب بئيـس أليم في جهنـم وبئس المصير . قال أحمد بن الحواري الإمام الحافظ الثقة الزاهد شيخ أهل الشام المتوفى سنـة ست وأربعين ومـائتين رحمه الله : «من عـرف الدنيـا زهد فيهـا ، ومن عـرف الآخرة رغب فيها ، ومن عرف الله آثر رضاه» . وسئل واحد من كبار الأصفياء عن المحبة فقال : «أن تحب ما أحب الله ، وتبغض ما أبغض الله ، وتفعل الخير كله ، وترفـض كل مـا يشغل عـن الله ، وألا تخاف في الله لومـة لائم ، مع العطـف على المؤمنين ، والغلظة على الكافرين ، واتباع رسول الله ﷺ في الدين » .

وغير خافٍ أن هذا اللـون ـ من التحديـد النابع من المعـرفة والذوق الإيماني ، والإدراك العميق للبعـد العملي الذي يجب أن يلتقي مـع المعرفة في حيـاة المسلم، كيما يكون ممن يـزحزحون عن النار ويـدخلون الجنة ـ ذو نسب إلى مـا كان عليه من تـربَّوا في مـدرسة النبـوة ، وسعدوا بـالأخذ عـن رسول الله ﷺ وكـانوا الجسر المبارك الذي عبرت عليه قيم الإسلام إلى الأمـة المحمدية والحمد لله .فلقد علَّم الرسـول ﷺ أصحابه ــ ومن ورائهم الأمـة في أجيالها المتلاحقـة ـ أن الجزء الأوفى كائن يوم القيـامة لا محالة ، فلينظر عبـد ما هو صانـع لغده !! وليعتبر بالماضين ، ويعد العدة ليوم قادم لا ريب فيه ، يحاسب فيه المرء ـ إلا أن يعفو الله ـ على النقير والقطمير.

وتربية المؤمن على هذا : كفيلة ـ بإذن الله ـ بقطع دابر الفساد في كثير من الأصعدة ؛ لأن الكلمة الهادية في الكتاب والسنة ، طلعت علينا بأوثق رباط ، بين ما يكون عليه سلوك المرء في هذه الدار ، وبين ما ينبني على هذا السلوك ــ من المثوبة أو العقوبة ـ في دار الجزاء ، وقد أشرت إلى ذلك غير مرة من قبل ، وما أكثر وأوفر الأمثلة والنماذج لما نقول .

فمثلاً على صعيد العلاقات الاجتماعية ، بين أفراد المجتمع ،وما يمكن أن يولده انحراف السلوك الأخلاقي في التعامل ، نذكر ما جاء من الوعيد الأخروي في شأن الفتنة ، وما هو منها بسبب : لنجده نعم العلاج لكثير من الانحراف والفساد . فعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من ذكر امرءاً بشيء ليس فيه ليعيبه به ، حبسه الله في نار جهنم ، حتى يأتي بنفاذ ما قال فيه » رواه الطبراني بإسناد جيد .

أرأيت إلى هذا المشهد الذي تضطرب لهوله النفس ، ويرجف الفؤاد !! يحبس هذا الإنسان المفتري على أخيه بالتماس العيب له .. يحبس في نار جهنم ، حتى يحقق قوله الذي صدر منه كذباً وزوراً وافتراءً . وفي رواية له : « أيُّما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة ـ وهو منها بريء ـ يشينه بها في الدنيا ، كان حقاً على الله أن يذيبه يوم القيامة في النار حتى يأتي بنفاذ ما قال » .

ومع استذكار أن الموحِّد لا يخلد في النار ، نجد أن هذا الحديث يذكِّر بما جاء في شأن واحد من الكفار ، في جهنم من قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم . يصهر به ما في بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ . وفي كتاب الأقضية من « السنن » باب « فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها » قال الإمام أبوداود : حدثنا أحمد بن يونس قال : حدثنا زهير قال : حدثنا عمارة بن

غزية عن يحيى بن راشد قال: جلسنا لعبدالله بن عمر ، فخرج إلينا فجلس فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضادَّ الله ، ومن خاصم في باطل وهو يعلمه، لم يزل في سخط الله حتى ينزع عنه ، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه ، أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال » .

وأخرجه الإمام أحمد في المسند بسنده عن يحيى بن راشد أيضاً قال : خرجنا حجاجاً عشرة من أهل الشام ، حتى أتينا مكة ـ فذكر الحديث ـ قال : فأتيناه ، فخرج إلينا ـ يعني ابن عمر ـ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله عز وجلّ ، فقد ضادَّ الله في أمره ، ومن مات وعليه دين ، فليس بالدينار ولا بالدرهم ، ولكنها الحسنات والسيئات ، ومن خاصم في باطل ـ وهو يعلمه ـ لم يزل في سخط الله حتى ينزع ، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه، أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال » . ورواه الطبراني بلفظ « من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال وليس بخارج حتى يخرج مما قال » كما رواه الحاكم بنحوه وقال: صحيح الإسناد .

قال الإمام الخطابي: « الرَّدغة بفتح الراء وسكون الدال : الوحل الشديد ، ويقال : ارتدغ الرجل إذا ارتطم في الوحل . وجاء في تفسير ردغة الخبال أنها عصارة أهل النار ». وقال الحافظ المنذري : «هي عصارة أهل النار . كذا جاء مفسراً مرفوعاً ، وهو بفتح الراء وإسكان الدال المهملة ، وبالغين المعجمة» . وفي النهاية لابن الأثير : (فيه : « من قال في مؤمن ما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال » تفسيرها في الحديث « أنها عصارة أهل النار » والردغة بسكون الدال وفتحها : طين ووحل كثير وتجمع على ردغ ورداغ . ومنه الحديث « من شرب الخمر سقاه الله من ردغة الخبال » والحديث الآخر «خطبنا في يوم ذي ردغ »).

وحسن أولئك رفيقاً

الرحلة الخاشعة ، مع بشريات يوم القيامة لعباد الله الصالحين المصلحين ، تقف المرءَ على حقيقة ما كان عليه هؤلاء البررة في الدنيا ، حتى كافأهم الرحيم الرحمن ، بذلك العطاء الربانيِّ يوم يقوم الأشهاد . ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك ، ما يعطاه أهل الطاعة الصادقة لله والرسول ، بأن يكونوا في ذلك اليوم الذي ـ لكل امرىء من العباد فيه شأن يغنيه ..ـ أن يُعْطَوْا تلك المنزلة السامية ، وهي أن يكونوا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . على أن الفضل أولاً وآخراً من الله تبارك وتعالى ﴿ **ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً** ﴾ .

إنه لمشهد عظيم جدٌّ عظيم، مشهد غامرٌ بالنور وكل ما هو من الفضل الإلهي. زُمَرٌ من عباد الله: عملوا بما أمر الله به ورسوله ، صادقين مخلصين ، وتركوا ما نهى الله عنه ورسوله ، راضين مطمئنين ؛ فكان جزاؤهم أن نشر الله عليهم رحمته، وزادهم إحساناً على إحسان ، فجعلهم في دار البقاء مرافقين للأنبياء ، ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم الصديقون ، ثم الشهداء ، ثم عموم المؤمنين وهم الذين صلَحت سريرتهم وعلانيتهم ، وجاء الثناء عليهم بعد ذلك بقوله سبحانه: ﴿**وحسن أولئك رفيقاً**﴾ قال الإمام البخاري : حدثنا محمد بن عبدالله بن حوشب قال : حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن عروة عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من نبي يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة ـ وكان في شكواه الذي قبض فيه ـ فأخذته بُحَّة شديدة فسمعته يقول : ﴿**مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين**﴾ فعلمت أنه خُيِّر ، وكذا رواه مسلم من حديث شعبة . قال العلماء : وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر ـ كما جاء عند أحمد في المسند من رواية عائشة رضي الله

عنها ـ « اللهـم الرفيق الأعلى ـ ثلاثـاً ـ ثم قضى عليه أفضـل الصلاة والتسليم ».
قال الحافظ ابن حجـر : قوله « في شكواه الذي قبض فيـه» في رواية الكشميهني «التي قبض فيها » .

وفي روايات سبب النزول لقوله تعالى في سورة النساء: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئـك مع الذين أنعـم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهـداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً**﴾ ما يزيـد هذا المشهد ـ الغنـي بالموعظة والعطاء ــ وضوحاً واستنارة في نفس المؤمن المتطلع إلى حسن العاقبة ، وأن يكون مثواه جنة المأوى . روى ابن جرير الطبري بسنده عن سعيد بـن جبير قال : «جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ وهـو محزون ، فقال لـه النبي ﷺ : يافـلان مالي أراك مَحْزونـاً ؟ قال : يانبي الله ، شيء فكرت فيه : قال : وما هو ؟ قال : نحن نغدو عليك ونروح ، ننظر إلى وجهك ونجالسك ، وغداً ترفع مـع النبيين فلا نصل إليك ، فلم يردَّ النبي ﷺ شيئاً ، فأتاه جبريل بهذه الآية : ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ..**﴾ الآية ، فبعث النبي ﷺ فبشره ». قال الحافظ ابن كثير : وقد روي هذا الأثر مرسـلاً عن مسروق وعكرمة وعامر الشعبي ، وقتـادة ، وعن الربيع بن أنس ، وهو من أحسنها سنداً .

وإن في هذا الذي كان عليه هذا الرجل من الأنصار ، ما يشي بالحال التي كان عليها أولئك الذين بُشروا بتلك المعية المباركة ، من خلال القاعدة النورانية العامة التي عنوانها : طاعة الله والرسول، ومـا كان يزين أعمال الجوارح والقلوب لديهم ، من محبة لله تعالى ، ومحبة للرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

قال ابن جرير رحمه الله : حدثنا المثنى قـال : حدثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع : قوله: ﴿**ومن يطع الله والرسول**﴾ : الآية ، قال : « إن أصحـاب النبي ﷺ قالوا : قد علمنا أن النبي ﷺ له فضل على من آمن به في درجات الجنة ،ممن اتبعه وصدقـه ، وكيف لهم إذا اجتمعـوا في الجنة أن يرى بعضهـم بعضاً ، فـأنزل الله في

ذلك ـ يعني هذه الآية ـ فقال : يعني رسول الله ﷺ : « إن الأعْلَيْنَ ينحدرون إلى من هو أسفلُ منهم ، فيجتمعون في رياضها ، فيذكرون ما أنعم الله عليهم، ويُثنون عليه ، وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما يدْعون به، فهم في روضة يحبرون ويتنعمون فيه » .

وغير خافٍ أن مجموع الروايات المتعلقة بهذه البشريات ، والعروة المباركة التي تصل بين أولئك الذين كان شوقهم إلى أن يكونوا من أهل القرب من رسول الله ﷺيوم القيامة .. توحي أن ما طلبوه وكانوا بشوق صادق إليه: ذو نسب إلى ما أكرمهم الله به في الدنيا ، من صفاء ، وإشراق ، وحرص على كل ما يقربهم إلى الله زلفى ، ويضيء لهم طريق الجنة التي حفت بالمكاره ، ويسمو بهم على ساحة المحبة لرسول الله وحسن اتباعه ، إلى حيث يكونون ـ برحمة الله ـ أهلاً لذلك القرب الذي يُغبطون عليه ويغبطون . أخرج أبوبكر بن مردويه بسنده من طريق فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله إنك لأحب إلي من نفسي ، وأحب إليَّ من أهلي ، وأحب إلي من ولدي ، وإني لأكون في البيت، فأذكرك فما أصبر حتى آتيَك فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتي وموتك ، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين ، وإن دخلتُ الجنة ، خشيت أن لا أراك ؛ فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت الآية : ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً**﴾ » وهكذا رواه الحافظ أبو عبدالله المقدسي في كتابه « صفة الجنة » من طريق الطبراني عن أحمد بن عمرو بن مسلم الخلال عن عبدالله بن عمران العابدي ثم قال : لا أرى بإسناده بأساً والله أعلم .

وصلى الله وسلم على رحمة العالمين معلم الناس الخير ؛ فقد كان لا يني يُحكم تربية الإنسان في الأمة على حقيقة أن الانخراط في مشهد القرب يوم القيامة منه عليه الصلاة والسلام ، وأن يكسب المسلم مرافقته في دار الكرامة والنعيم المقيم،

لا يكون بالتمني ، ولكن بالعمل وصدق الوجهة ، وحسن التأسي به صلوات الله وسلامه عليه .

قال الإمام مسلم : حدثنا الحكم بن موسى أبو صالح قال : حدثنا هِقْلُ بن زياد قال : سمعت الأوزاعي قال : حدثني يحيى بن أبي كثير قال : حدثني أبوسلمة قال : حدثني ربيعة بن كعب الأسلمي قال : «كنت أبيت مع رسول الله ﷺ ، فأتيته بوضوئه وحاجته ، فقال لي : « سل » فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة. قال : أو غيرَ ذلك ؟ قلت : هو ذاك قال : فأعني على نفسك بكثرة السجود». ورواه أبو داود والنسائي وأحمد.

وإني مذكِّر بما سبق من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه « أن رسول الله ﷺ أُفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رَهِقوه قال : « من يردُّهم عنا وله الجنة ، أو هو رفيقي في الجنة؟» فتقدم رجل من الأنصار ، فقاتل حتى قتل ، ثم رهقوه أيضاً فقال: « من يردهم عنا وله الجنة ، أو هو رفيقي في الجنة ؟» فتقدم رجل من الأنصار ، فقاتل حتى قتل ، فلم يزل كذلك ، حتى قتل سبعة ـ فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه : « ما أنصفنا أصحابنا » .

أرأيت إلى هذا الإقدام في ظل الخطر المحدق من هنا وهناك ؟!! الإقدامِ الذي انتهى بالشهادة ، ذوداً عن رسول الله ﷺ ومن معه !! ثم أرأيت إلى المطلب العظيم ، وهو أن يكون هذا الشهيد رفيق النبي ﷺ في الجنة ؟!!

في جهنم... يسقون من طينة الخبال

كان من حرص النبي المصطفى ﷺ، على أمته، ورأفته ورحمته بالمؤمنين : أنه أعطى لوعد المثوبة على الاستقامة وفعل الخير ، ولوعيد العقاب الأليم على المخالفة وتعدي حدود الله: كبير الاهتمام في بيان ما يكون عليه الأمر في الدنيا وفي الآخرة ، وتجليةِ المشاهد التي تضم يوم المعاد زمر الطائعين السعداء ، والمشاهدِ التي تضم زمر الضالين الأشقياء . والعهد قريب بما وقفْنا عليه من مشهد من يقفه الله في ردغة الخبال في جهنم، لما أنه يقول في أخيه المؤمن ما ليس فيه ، وليس بخارج منها حتى يخرج مما قال . وجرت الإشارة إلى ما جاء في الحديث من تفسير لردغة الخبال ، بأنها عصارة أهل النار ؛ وعند مسلم ـ كما سنرى : عرق أهل النار أو عصارة أهل النار ، وكشف رسول الله ﷺ عن ذلك ، وهو يتوعد على معاودة شرب الخمر مرة بعد مرة ـ في أعقاب إظهار التوبة .

وهذا يدل ـ فيما يدل ـ على أن أهل هذا المشهد المخيف حقاً ، ليسوا أولئك المفترين على إخوانهم المتقولين عليهم ما ليس فيهم فحسب، ولكنَّ مِن أَهْلِهِ أيضاً ، أولئك الذين يشربون الخمر ثم يتوبون ، ويعبثون بالتوبة ـ مكررين ذلك ـ كأنهم يستهزؤون بما شرع الله ، بل يستهزئون بربهم ـ وأستغفر الله ـ عندما يعودون لما نهوا عنه ، مرة تلو المرة ، بعد أن يستغشي الواحد منهم سرابيل التائبين ، فكان جزاؤهم أن يسقوا من عصارة أو من عرق أهل النار . وقد جاء التعبير في النصوص بردغة الخبال، وبطينة الخبال . قال الإمام مسلم في كتاب الأشربة من صحيحه : حدثنا قتيبة بن سعيد قال : حدثنا عبدالعزيز ـ يعني الدراورديَّ ـ عن عُمارة بنِ غَزِيَّةِ عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه « أن رجلاً من جيشان (وجيشان من اليمن) سأل النبي ﷺ عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له « المِزْر » ؟ فقال النبي ﷺ : أمسكر هو ؟ قال : نعم . قال رسول الله ﷺ : « كل

مسكر حرام . إن على الله عز وجل عهداً ، لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال » قالوا : يارسول الله وما طينة الخبال ؟ قال : «عرق أهل النار ، أو عصارة أهل النار » . وعند أبي داود في كتاب الأشربة من « السنن » من رواية ابن عباس رضي الله عنه « كل مخمِّرٍ أو كل مخمَّرٍ خمر ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب مسكراً بخَّست صلاته أربعين صباحاً ، فإن تاب ، تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعة ، كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال » قيل : وما طينة الخبال يارسول الله ؟ قال: صديد أهل النار ، ومن سقاه صغيراً لا يعرف حلاله من حرامه كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال » .

مخمِّر بكسر الميم الثانية : مغطي العقل ، ويحتمل الفتح أي ما يُجعل خمراً مسكراً . وبَخَّسَتْ نقصت . جاء في القاموس المحيط : بَخَّس المخُّ تبخيساً وتبخَّس: نقص ولم يبق إلا في السلامى والعين .

وأنت واجد في هذا النص معنى ثالثاً لطينة الخبال ؛ وهو صديد أهل النار أعاذنا الله من الوقوع فيما تكون عاقبته السوء يوم الدين . وهذا المعنى منصوص عليه أيضاً في رواية الترمذي ـ كما سنرى ـ وجاء هناك بلفظ « نهر الخبال » على لسان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، مضافاً إلى ذلك تفصيلٌ في المراحل التي سبقت عودة هذا المبتلى بالمعصية ، إلى معاقرة الخمر في المرة الرابعة ، وبذلك يتضح استهزاؤه بما يحرم الاستهزاء به ، وضعفه الشديد أمام شهوته العارمة لما حرم الله ، وخضوعه لتسويلات الهوى والشيطان ، وقد تكون صحبة الأشرار من أهم العوامل المؤدية إلى هذا الإصرار والاستهزاء .. فان تاب بعد الرابعة : لم ينل فضل أن يتوب الله عليه في الدنيا ، وعوقب في الآخرة بأن يسقى من نهر الخبال وهو ـ كما في الرواية المومى إليها عند الترمذي ـ نهر من صديد أهل النار .

فليتق الله امرؤ في نفسه ، وليضع بينه وبين الضلالة وأهلها ، حاجزاً من مخافة الله عز وجل ، والحرصِ على اجتناب ما حذر منه رسول الله ﷺ ؛ وبذلك يعافى

من أن تحقَّ عليه كلمة العقاب ويأمنُ ـ بفضل الله ـ من أن يدخل النار ويشرب من عرق أهلها ـ أو عصارتهم أو صديدهم ـ...قال الإمام الترمذي في كتاب الأشربة من السنن (جامع الترمذي): حدثنا قتيبة قال : حدثنا جرير بن عبدالحميد عن عطاء بن السائب عن عبدالله بن عبيد بن عمير عن أبيه قال : قال عبدالله بن عمر : قال رسول الله ﷺ: «من شرب الخمر لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب، تاب الله عليه ، فإن عاد، لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب ، تاب الله عليه ، فإن عاد، لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب ، تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعة ، لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب ، لم يتب الله عليه وسقاه من نهر الخبال . قيل : ياأبا عبدالرحمن وما نهر الخبال ؟ قال نهر من صديد أهل النار» .قال أبو عيسى : هذا حديث حسن ، وقد روي نحو هذا عن عبدالله بن عمرو وابنه عباس عن النبي ﷺ .

وللحديث عند أحمد في المسند عدة روايات؛ منها: ما روى بسنده عن عبدالله ابن عبيد بن عمير عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « من شرب الخمر لم تُقبَلْ صلاته أربعين ليلة ، فإن تاب ، تاب الله عليه ، فإن عاد ، كان حقاً على الله تعالى أن يسقيه من نهر الخبال ، قيل : وما نهر الخبال ؟ قال : صديد أهل النار » والخبال في الأصل : الفساد . وأعطاه النبي ﷺ هذا المعنى الاصطلاحي ؛ قال ابن الأثير في النهاية (وفيه « من شرب الخمر سقاه الله من طينة الخبال يوم القيامة» جاء تفسيره في الحديث أن الخبال عصارة أهل النار . والخبال في الأصل الفساد ، ويكون في الأفعال والأبدان ، والعقول وفي الحديث « وبطانة لا تألوه خبالاً » أي لا تقصر في إفساد أمره . ومنه حديث ابن مسعود « أن قوماً بنو مسجداً بظهر الكوفة ، ـ ويبدو أنه مسجد ضرار ـ فأتاهم فقال : جئت لأكسر مسجد الخبال أي الفساد) وأورد الراغب الأصفهاني قول زهير بن أبي سلمى : «هنالك إن يُستَخبَلُوا المال يُخبِلوا » أي وإن طلب منهم إفساد شيء من إبلهم أفسدوه .

هذا : وما جاء في الحديث ـ كما أشير إلى ذلك قريباً ـ من تفسير ردغة الخبال بأنها عصارة أهل النار ـ أو كما ورد في بعض الروايات ـ : عرق أهل النار ، أو صديد أهل النار : مما يزيد المشهد ترويعاً على ترويع ؛ عافانا الله والمسلمين من ذلك بمنه وكرمه .

وقد رأينا ـ كما ذكر آنفاً ـ أن الوعيد بسقيا ردغة الخبال ، جاء في معرض التحذيرِ من شرب الخمر التي تذهب العقل ، والترهيبِ من معاقرتها . ومن النصوص الواردة أيضاً في ذلك ما أخرج ابن ماجة في « السنن » بسنده عن ابن الديلمي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من شرب الخمر وسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً وإن مات دخل النار . فإن تاب تاب الله عليه... » وبعد الإشارة إلى التكرار في العودة بعد التوبة جاء في الحديث: « .. وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة . قالوا : يارسول الله وما ردغة الخبال ؟ قال : عصارة أهل النار » .

هذا : وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، والعقلاء يستحسنون ضم النظير إلى نظيره ، فإن في نصوص السنة المطهرة ، ما يدل على أن العقوبة التي جاء النص عليها في شأن من يفترون على إخوانهم ويبهتونهم ـ وأولئك الذين يرتكبون كبيرة شرب الخمر ، مع العبث في أمر التوبة التي ينقضونها مرة بعد مرة ... إن في هذه النصوص ما يدل على أن هذه العقوبة ، تنال أيضاً أولئك الذين ترم أنوفهم، ويتجبرون في الأرض بغير الحق ؛ فهؤلاء أيضاً سوف ينظر العباد إلى مشهدهم المزري يوم القيامة ـ وهم يشربون من طينة الخبال أو من نهر الخبال ـ فكما يعاقب المفتري على أخيه كذباً ، وشارب الخمر بهذا النتن في فمه الذي استخدمه في المعصية ، يعاقب هؤلاء العصاة المتكبرون عقوبة توحي بأن الجزاء من جنس العمل ، ومن ذلك ما يُجَرَّعون من نتن الطعم والرائحة جزاءَ عتوهم وتعاليهم على عباد الله المؤمنين ، روى الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن شُعَيْب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال : «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذَّرِّ في صُوَر الناس ،

يعلوهم كل شيء من الصَّغار ، حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له بُولَس ، فتعلوهم نار الأنيار ، يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار » . ورواه الترمذي بلفظ « يغشاهم الذل من كل مكان » وقال : حديث حسن صحيح .

قال ابن الأثير : (فيه « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر ، حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له بولَسْ » هكذا جاء في الحديث مسمَّى) وهذا يؤكد ـ كما أسلفت ـ أن الجزاء لهؤلاء الطاغين المستكبرين على إخوانهم المؤمنين كان من جنس العمل ؛ إذ كان جزاء هذا التعالي الممقوت أن يحشروا أمثال الذر ، وليس هذا فحسب ، بل يُزادون عقوبة تحمل ما تحمل من العذاب البئيس المهين وهي أن يُسْقَوا من عصارة أهل النار التي هي طينة الخَبال !!.

سبحان جبار السماوات والأرض : أيُّ مشهدٍ هذا المشهد البالغ العظة الناطق بالعدالة الإلهية ، المشهدُ الذي ينم عن سوء وشناعة ما كان عليه هؤلاء العصاة المستكبرون الذين خالفوا عن قول الله تعالى في صفة أهل الإيمان ﴿ **أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين** ﴾ ؛ إنهم قبل أن يسقوا من طينة الخبال يحشرون أمثال الذر ، والذرُّ النمل الأحمر الصغير ، وهو من المخلوقات التي لا يؤبه لها بحسب الظاهر . سئل الإمام في اللغة ثعلبُ عنها فقال : إن مائة نملة وزنُ حبة، والذَّرَّةُ واحدةٌ منها .

اللهم اجعلنا أذلةً على المؤمنين أعزةً على الكافرين ، واحشرنا يوم القيامة في زمرة عبادك الخاشعين المتواضعين برحمتك ياخير الراحمين .

المقيمون على مظالم العباد..

مشهدهم هناك!

مما يدعو إلى الكثير من العِظَةِ والتذكر ـ على صعيد ما يجب من أداء الحقوق، والبعدِ عن التظالم في الدار العاجلة ـ ما تطالعنا به نصوص السنة المطهرة ـ وهي المبينة للكتاب العزيز ـ من أخبار غنية بالمشاهد التي تعلن إعلانها يوم القيامة ، في شأن الظلم واقتصاص المظالم ، وما يكشف عن عاقبة التظالم في الدماء ، والأموال والأعراض ، وسائر الحقوق . قال الإمام البخاري في باب «من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يبين مظلمته» من كتاب المظالم في الجامع الصحيح : حدثنا آدم بن أبي إياس قال : حدثنا سعيد المَقْبُرِيُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت له مظلِمة لأخيه من عرضه أو شيء فلْيتحَلَّلْهُ منه اليوم ، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أُخذ بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات ، أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه » قال أبو عبد الله : قال إسماعيل بن أبي أويس : إنما سمي المقبريَّ لأنه كان ينزل ناحية المقابر ، قال أبو عبدالله : وسعيد المقبرُيُّ هو مولى بني ليث ، وهو سعيد بن أبي سعيد واسم أبي سعيد : كيسان .

ومن فقه الإمام البخاري أنه جاء بهذا الحديث من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح تحت باب عنوانه « باب القصاص يوم القيامة ، وهي الحاقَّة لأن فيها الثوابَ وحواقَّ الأمور » ولفظه « من كانت عنده مظلِمة لأخيه فَلْيتحَلَّلْهُ منها ، فإنه ليس ثَمَّ دينار ولا درهم ، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات ، أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه » .

المظلمة ـ بفتح الميم الأولى وكسر اللام ـ والظلاَّمةُ ـ كثُمامة ـ ما تظلَّمه الرجل ـ وقال الفيومي في « المصباح المنير » : المظلمة اسم لما تطلبه عند الظالم . ومعنى «من كانت له مظلمة لأخيه »: من كانت عليه مظلمة لأخيه ، لأن اللام في « له» بمعنى على . وتأيد ذلك بما رأينا من قريب من رواية البخاري التي أخرجها من طريق مالك عن المقبري إذ جاء اللفظ هناك : « من كانت عنده مظلمة لأخيه» . وما جاء عند الترمذي ـ كما سيأتي ـ من طريق زيد بن أنيسة عن المقبري أيضاً «رحم الله عبداً كانت له عند أخيه مظلمة ...» الحديث .

هكذا يدعو النبي ﷺ ـ وهو الرحيم بأمته ـ يدعو المسلم إلى رد مظلمة أخيه هنا في الدار العاجلة ، وأن يتحلَّله منها ، سواء أكان ذلك من عرضه ، أم من ماله أم من حريته وكرامته ، وإنسانيته ، أم من أي شيء آخر ، قبل أن يأتي يوم لا دينار يفتدى به ولا درهم ، ولكنها الحسنات والسيئات !!

فإن عاد هذا الظالم إلى صوابه ، فتاب وأناب ، وأدّى الحقوق متحلِّلاً منها : فبها ونعمت ، وإلا فسوف يشهد الخلق ـ يوم المعاد ـ صورة عميقة الدلالة بالغة التأثير، شديدة الرهبة، للمؤاخذة على هذا الظلم ـ مهما كان شأنه ـ لأن الله حرم الظلم على نفسه وجعله بين عباده مُحرَّماً كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم وغيره : « ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ..» الحديث .

فالظلم مَخوفُ العاقبة ، مُظْلِمُ المآل يوم يشتد الكرب في عرصات القيامة وتشخص الأبصار . إن مشاهد الظالمين المفزعةَ المجللةَ بالخزي ؛ يوم تراهم مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ... إن هذه المشاهد التي أخبر الله عنها ورسوله ، جديرة ـ والذي أمر بالعدل والإحسان ـ أن ترتفع بالمسلم إلى حيث يراقب الله في نفسه، فلا يظلمَها بالمخالفات ، ويراقب الله في حقوق الآخرين ، فلا يظلمَ أخاً من إخوانه شيئاً ؛ هنالك يكون قد رعى آخرته

حقَّ رعايتها ، ولم يقع فيما حذر منه المصطفى عليه الصلاة والسلام بقوله: «..إن كان له عمل صالح أُخذ بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات ، أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » . ورب العالمين لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، مهما أحيط الظلم بالزخرف ، ومعسول القول ومُظاهرةِ الشياطين والمنافقين الذين لا يرجون لله وقاراً .

هذا ولفظ الحديث عند الترمذي من رواية أبي هريرة رضي الله عنه « رحم الله عبداً كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال ، فجاءه فاستحلَّه قبل أن يؤخذ وليس ثَمَّ دينار ولا درهم ، فإن كانت له حسنات أُخذ من حسناته وإن لم تكن له حسنات حمَّلوه عليه من سيئاتهم » .

وإذا رأيت كيف يُعَدُّ من شاء الله لهم دخول الجنة بعد أن أدبوا بدخول النار..

إذا رأيت كيف يُنَقَّوْن من آثار الظلم وتُصَفَّى نفوسهم من رواسب التجاوز لحقوق الآخرين ، إذا رأيت ذلك كله ثَمَّ ... رأيت أمراً عجباً ، له دلالته الفاعلة، على ما للظلم من أثر في عاجل الإنسان وآجله **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** جاء في «باب قصاص المظالم »من كتاب المظالم في الجامع الصحيح للإمام البخاري ما أخرج ـ رحمه الله ـ بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إذا خلص المؤمنون من النار حُبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصُّون مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا نُقُّوا وهُذِّبوا أُذِن لهم بدخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده لأَحُدُهم بمسكنه في الجنة، أَدلُّ بمنزله كان في الدنيا » .

المراد بالمؤمنين هنا: بعضهم ؛ فهو عام أريد به الخصوص. واستظهر الحافظ أن القنطرة طرف الصراط مما يلي الجنة قال : ويحتمل أن تكون من غيره بين الصراط والجنة. والمراد بكونهم يتقاصون تَتَبُّع ما بينهم من المظالم، وإسقاطُ بعضها ببعض. ومن الواضح أنهم إذا هُذِّبوا ونُقُّوا ــ أو وَنقوا كما في رواية أخرى ـ أي خلصوا من

الآثام بمقاصصة بعضها ببعض ، أذن لهم بدخول الجنة .

وقد أورد الإمام البخاري الحديث أيضاً في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح من رواية أبي سعيد الخدري أيضاً ولفظه « يخلص المؤمنون من النار ، فيُحْبَسون على قنطرة بين الجنة والنار ،فيُقَصُّ لبعضهم من بعض ، مظالمَ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا ، أُذن لهم في دخول الجنة . فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا » .

يالها من عظة بالغة ، يشرق بها هذا المشهد ، الذي يثير في المؤمنين كوامن الأخوة ، وما يجب للحفاظ عليها من البعد عن الظلم، وكل ما هو منه بسبب، ويباعد بينهم ـــ أن لو أخذوا ذلك بقوة ـ وبين أن يكونوا نهباً مقسماً للأهواء والنزوات ، ويقفهم على حقيقة : أن الأمر ، إذا عجزت عنه ضوابط دار الفناء، فدار البقاء هي الموعد ، وإن ربك لبالمرصاد .

ومما يشهد للحديث الذي نسعد باصطحابه ، ما جاء في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عند البخاري من قول النبي ﷺ : « لا يَحِلُّ لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد قِبَلَهُ مظلِمة » .

وموعدنا كلمات قادمات نتابع فيها ـ إن شاء الله شذرات مما تفيض به نصوص الهدي النبوي من طرائق الخير التي تسعد الآخذين بها ، المستضيئين بنورها في الدارين ، وترسي قواعد العدل والإحسان والتراحم فيما بينهم ـــ والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

مواكب السنا..

والشهيد الممتحن في دار الخلود

كلما تبصر المرء في سيرة أولئك الذين رزقوا حُسْنَ النظر ، فيما قدمت أنفسهم لغدهم يوم الحساب ، ازداد يقيناً بِعِظَم ما كانوا عليه ، من وَجَلِ القلوب إذا ذكر الله ، وعميقِ التدبر لآي الكتاب العزيز ، وصدقِ التأسي بإمام المتقين ، سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام . وذلك ما سما بهم عن صغائر الأمور وسسفسافها ، وجعل النجاة في العقبى : مبتغاهم الذي يؤرقهم نيله والوصول إليه . قرأت في سيرة الإمام الحجة والفقيه الثقة ، عالم الجزيرة ومفتيها أبي أيوب الجزري ميمون بن مهران المتوفى سنة سبع عشرة ومائة للهجرة، ما روى أهل التراجم والسِّيَر عن ولده عمرو بن ميمون بن مهران : من أنه أخذ بيده لزيارة الحسن البصري رحمه الله ، وكان من أمر هذه الزيارة : أنها حملت إلينا ـ فيما حملت ـ مزيداً من التذكير بالآخرة، والعناية بكل ما يوقظ القلب ، ويباعد عن الغفلة ، مما هو ديدن السالكين الموفقين .

يقول عمرو : « فطرقت الباب ، فخرجت إلينا جارية سداسية فقالت: من هذا؟ قلت: هذا ميمون بن مهران أراد لقاء الحسن ، فقالت: كاتب عمر بن عبدالعزيز؟ قلت لها : نعم . قالت : ياشقي ما بقاؤك إلى هذا الزمان السوء ؟ قال : فبكى الشيخ ، فسمع الحسن بكاءه ، فخرج إليه ، فاعتنقا ثم دخلا ، فقال ميمون : ياأبا سعيد قد أنست من قلبي غلظة فاستَلِنْ لي منه . فقرأ الحسن : بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿ **أفرأيت إن متَّعْناهُم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يُمَتَّعونَ** ﴾ قال : فسقط الشيخ فرأيته يفحص برجله ، كما تفحص الشاة المذبوحة ، فأقام طويلاً ثم أفاق . فجاءت الجارية فقالت : قد

أتعبتم الشيخ ، قوموا تفرقوا ؛ فأخذت بيـد أبي فخرجت به ثم قلت : ياأبتاه ، هذا الحسن قـد كنت أحسـب أنه أكبر من هـذا . قال : فوكـزني في صدري وكـزة ، ثم قال: يابني لقد قرأ علينا آية ، لو فهمتها بقلبك لأبقى لها فيك كلوماً » .

ومن كلماتـه ـ يرحمه الله ـ التي تدل على مدى خـوفه على نفسه، وعلى إخـوانه المؤمنين ، من سوء العاقبة يوم الدين ، وحرصِه على النصح لكل مسلم : قوله ـ كما ذكر الـذهبي في السير ـ « ثلاث لا تَبْلُـوَنَّ نفسك بهن : لا تدخـل على السلطان ـ وإن قلت: آمـره بطاعة الله ـ ولا تُصْغِيَنَّ بسمعك إلى هـوى ، فإنك لا تـدري ما يعلق بقلبك منـه ، ولا تدخل على امرأة ـ ولـو قلت أعلمها كتاب الله ـ » وقال له رجل: ياأبا أيوب ما يزال الناس بخيرٍ ما أبقاك الله لهم ، فقال : «أقبل على شأنك ما يزال الناس بخير ما اتقوا ربهم » .

ذلكم هو الأدب مع الله ، والورع الذي تبعث عليه مخافة الله واليوم الآخر . جاء في « الحلية» و «سير أعلام النبلاء »: قال الإمام أبو الحسن الميموني ـ حفيد ميمون ابن مهران ـ قال لي أحمد بن حنبل : (إني لأشبِّه ورع جدك بورع ابن سيرين).

وفي خضم الحياة الزاخـرة بالمطالب المادية وبالمعـوقات التي تصرف الكثيرين عن استذكار المآل بعد الموت ، وما ينتهي إليه أمر الناس بعد قيام الساعة ، وكيف يتفاضل العبـاد بما قدموا من عمل في الـدنيا ؛ إذا الناس فريقٌ في الجنـة وفريق في السعير ... في هذا الخضـم المرعب ـ وسلطان المادة والقيـمِ المهزوزة مهيمـنٌ على بعض النفـوس ـ تبدو فضيلـة هؤلاء البررة الأصفياء ، وتبرز ضرورة التـأسي بعباد الله الصالحين الذين هم على ذُكْرٍ أبـداً من يوم البعث والنشور ؛ لما أنهم على النبع الصافي من سيرة سيـد المرسلين ! وكم في هديه صلـوات الله وسلامه عليه ـ وهو المؤتمن على بيان القرآن الحكيم ـ من طرائق مباركة إذا سلكها المسلـم ـ بخلوص نية وصدق عـزيمة ـ انتهت به ـ فضلاً من الله ورحمة ـ إلى مـا بشّر به المولى عبادَه المجاهدين المتقين المخبتين من جناتٍ تجري تحتَها الأنهار ، لا يمسهم فيها نصب

ولا يمسُّهم فيهـا لغوب ، يتجدد فيها العطـاء الرباني ، على أرائك النعيـم الخالد المقيم.

والـراية السـامقـة المضيئة في هـذه الطرائق ، رايـة مـن أخلصوا عملهـم لله ، وجاهدوا فيه ـ سبحانه ـ حق الجهـاد . ولا تسل عن الشهداء ، الذين يرى الناس بأم أعينهم ، ما تشرق به مشاهد القيامة من منة الله عليهم ، بما ينالون من الكرامة وما يحظون به من قرة أعين لا يفضلهم بها النبييون عليهم الصلاة والسلام ، إلا بما أعطوا من درجة النبوة .

أخرج ابـن حبان في صحيحـه ـ واللفـظ له ــ وأحمد بإسنـاد جيد ، والطبراني والبيهقي عن عتبـة بن عبدالسُّلمي رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال : « القتلى ثلاثة : رجل مؤمن جاهد بنفسه ومـاله في سبيل الله ، حتى إذا لقي العدوَّ قاتلهم حتى يُقْتَلَ ، فذلك الشهيد الممتحن في جنة الله تحت عرشه لا يفضله النبييون إلا بفضل درجة النبوة ، ورجل فَرِق على نفسه من الـذنوب والخطايا ، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله ، حتى إذا لقي العدو ، قاتل حتى قتل ، فتلك مُمَصْمِصَةٌ محت ذنوبه وخطاياه ـ إن السيف محاء للخطايا ـ وأدخل من أي أبواب الجنة شاء ؛ فإن لها ثمانية أبواب ـ ولجهنم سبعة أبواب ـ وبعضها أفضل من بعض ، ورجل منافق جاهد بنفسه ومـاله ؛ حتى إذا لقي العدو ، قاتل حتى قتـل ، فذلك في النار ، إن السيف لا يمحو النفاق » .

الضمير في قـولـه : « وبعضهـا أفضـل مـــن بعـض » يعـود إلى أبـواب الجنـة «الممتحَن» : بفتح الحاء المهملـة : الذي انشرح صدره ، ومنه قولـه تعالى في سورة الحجرات : ﴿**أولئك الذين امتحـن الله قلوبهم للتقوى**﴾ أي شرحهاووسعهـا ، أو أخلصها للتقوى ، من قـولهم : امتحن الذهب إذا أذابه واختبره ، فميَّز إبـريزه من غيره . وقال ابن الأثير في « النهاية » : (فيه «فذلك الشـهيد الممتحن » هو المصفى المهذب . مَحَنتُ الفضة ، صفّيتَها وخلَّصتَها بالنار . وفي حديث الشعبي « المِحْنَة

بدعة» هي أن يأخذ السلطان الرجل فيمتحنه ، ويقول : فعلت كذا وفعلت كذا ، فلا يـزال به حتـى يسقطَ ويقـول ما لم يفعلـه، أو ما لا يجوز قـوله ، يعنـي أن هذا الفعل بدعة).

وقـد جاء في روايـة لأحمد : « فذلـك المفتخـر في خيمة الله تحت عـرشه » بـدل «الممتحن » ولعله ـ كما يقول الحافظ المنذري ـ تصحيف .

وما أثقلها عبرةً وأروعها عظةً ـ للمتأمل المتدبر ـ أن يكون ما أقدم عليه المقاتل في سبيل الله من بذل نفسه ومـاله، بريدَه ـ بعون الله وفضله ـ إلى هـذه المنزلة التي يبصرها العباد مشرقةً أخّاذةً يوم يقوم الأشهاد .

وماذا أنـت قائل بـذاك الذي يمحو الله ذنـوبه وخطايـاه ، بسيفه الـذي بات يقطر دماً من أعـداء الله في ساحة الجهاد ؛ ذلكم قوله عليـه الصلاة والسلام ـ كما مرّ آنفًا ـ : « فتلـك ممصمصة محَتْ ذنوبه وخطاياه » فنال بفضـل الله تلك المنزلة التي وصفها الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه .

الممصمِصَة المطهِّـرة . وأصله مـن المَوْص وهو الغَسْل . جـاء في النهايـة لابن الأثير : (فيه : «القتل ممصمصة» أي مطهرة من دنـس الخطايا . يقال : مصمص إناءَه : إذا جعـل فيه الماء ، وحَركه ليتنظَّـفَ . وإنما أنثها والقتل مذكـر ، لأنه أراد معنى الشهادة: وهذا من بلاغته عليه الصلاة والسلام. أو أراد «فعله ممصمصة»، فأقام الصفة مقام الموصوف).

ويانعـم ما تُبرز هذه البشريات مـن عظيم قدر الجهاد في سبيـل الله ، وجلال المنازل التي يشرق سناها يـوم الدين للمجاهدين ، بله الشهداء الـذين هم أحياء عند ربهم يـرزقون . والحمد لله الذي جعـل سيف الجهاد محّاءً للخطـايا وأخبر في كتابه أنه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنهم بنيان مرصوص .

عاقبتُهم يوم الدين..
اللونُ لونُ دم والريحُ ريحُ مِسْك

إذا ذكر المرء ما تكون عليه أحوال العباد يوم المعاد ، وما يجب من التزود لذلك اليوم بالصالح من العمل ؛ لما أنه يوم يبلغ هلع الناس فيه وخوفهم من سوء المصير مبلغَه ، وتجدهم - وقد ضرب الترقب عليهم بالأسداد - لا يسأل حميم فيهم حميماً ، ولا يجد الإنسان إلا ما قدم في حياته الدنيا ... إذا ذكر المرء ذلك ، أو بعضاً منه، ادَّكر ما كان عليه الرحمة المهداة صلوات الله وسلامه عليه ، من شدة الحرص على هداية الخلق ، والرغبة المنقطعة النظير ، في أن يجنِّب أمته سوء المنقلب في الأخرى ، فلم يدع أن ينوع أساليب التبليغ والبيان ، وأن يستخدم ما آتاه الله من البلاغة الفاذة المقترنة بالرحمة التي ملىء بها قلبُه - وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم - كيما تصل كلمته الهادية إلى أعماق النفوس ، وتستنيرَ بها العقول والقلوب ، وهنالك تؤتي أكلها في تقويم العمل ، وسلوكِ الجوارح سبيلَها المستقيم .

أخرج الإمام أحمد في المسند بسنده عن النوَّاس بن سَمعان الأنصاري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتَّحة ، وعلى الأبواب ستورٌ مرخاة ، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: ياأيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتفرجوا ، وداعٍ يدعو من جوف الصراط ؛ فإذا أراد يفتح شيئاً من تلك الأبواب ، قال : ويحكَ لا تفتحه ؛ فإنك إن تفتحْه تلجْه . والصراط : الإسلام، والسوران : حدود الله تعالى ، والأبواب المفتحة : محارم الله تعالى ، وذلك الداعي على رأس الصراط : كتاب الله عز وجل، والداعي فوق الصراط : واعظ الله في قلب كل مسلم » .

ولكم يبدو أهل الفلاح الذين انتفعوا بهذا الهدي المحمدي ، جديرين بالغبطة

والثناء ، لما أنهم قد وُفِّقوا لسلوك طريق السعادة في عاجلهم وآجلهم ؛ ففي الدنيا طمأنينة ورضىً ، ومسارعة دائبة إلى فعل الخيرات ،والقيام بالطاعات والجهاد في سبيل الله . وفي الآخرة فوز مبين ، ونعيم في الجنةمقيم ، ورضوان من الله الكريم المنان ،لا يسخط بعده أبداً . وسبحان من لا رب غيره ولا خير إلا خيره وهو ـ جل شأنه وتباركت أسماؤه ـ ذو الفضل العظيم .

وإذا كان الأمر كذلك : فلسوف يبرز للعيان يوم القيامة ما يؤكد هذه الحقيقة ـ وما أكثر مؤكداتها يومذاك ـ . ونشير هنا إلى مشهد بالغ الإثارة والتعبير ؛ مشهدِ أولئك الذين كُلموا في سبيل الله ـ وهم يقارعون أعداء الله في ساحات الجهاد ـ كيف يكون اللون في جراحاتهم لون الدم ، والريح ريح المسك .. الأمر الذي يذكِّر بعظمة هؤلاء الرجال عند الله ، وَضَعَةِ القادرين المتقاعسين ، الراضين بالقعود عن بذل المال والنفس في سبيل الله ... وشتان بين عاقبة هؤلاء ، وعاقبة أولئك ، يوم يقف الناس للمساءلة والحساب .

روى الإمام البخاري بسنده عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « كُلُّ كَلْمٍ يُكْلَمُه المسلم في سبيل الله ، تكون يوم القيامة كهيئتها إذ طعنت تفجَّر دماً : اللونُ لونُ دم ، والعَرف عُرف المسك » ورواه أحمد .

« كلُّ كَلْمٍ يُكْلَمُه »: أي كل جرح يجرحه . والعرف : بفتح العين وسكون الراء : الريح . وأعاد الضمير مؤنثاً في قوله «كهيئتها» لأنه أراد الجراحة . هكذا يكون الأمر : لون الدم هو اللون المعروف ، ولكن الريح ريحُ المسك .

تبارك الله !! ما هذه المنقبة العظيمة المعبِّرة التي يشهدها أهل الموقف أجمعون ، وما هذه اللغة التي ينطق بها دم المصابين في سبيل الله بلونه الأخّاذ ورائحته الزكيَّة !! ألا إن الأمر بجلاله وبهائه يدعو إلى الكثير من التَّبَصُّرِ والاعتبار ، والمشهد له أكثر من دلالة ، ويحمل أكثر من عظة ؛ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (والحكمة في كون الدم يأتي يوم القيامة على هيئته : أنه يشهد لصاحبه بفضله،

وعلى ظالمه بفعله . وفائدة رائحته الطيبة: أن تنتشر في أهل الموقف ، إظهاراً لفضيلته أيضاً).

ولا يخفى على ذي بصيرة ، أن تلك المنقبة ـ كما يدل الحديث ـ إنما تكون لمن كانت جراحاتُه في سبيل الله ، فإخلاص النية لله عز وجل: حجر الزاوية في الموضوع ، وقد جاء ذلك صريحاً في بعض الروايات الأخرى ؛ فعند البخاري في الجهاد من طريق الأعرج عن أبي هريرة : «والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله» . وأخرج مسلم في كتاب الإمارة من صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يكلم أحد في سبيل الله ـ والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله ـ إلا جاء يوم القيامة وجرحه يَثْعَبُ ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك ».

يُكْلَم: يُجرح ـ يثْعَب : يجري متفجراً أي كثيراً ، وهو بمعنى ما جاء في الرواية السابقة عند البخاري « يتفجر دماً» قال ابن الأثير في النهاية : (فيه يجيء الشهيد يوم القيامة وجرحه يثعب دماً » أي يجري . ومنه حديث عمر رضي الله عنه « صلى وجرحه يثعب دماً »).

ومما يجدر ذكره ، أن العلماء ، في شرحهم لهذا الحديث وأمثاله ، أدركوا من قوله عليه الصلاة والسلام :« والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله » أنه ـ بجانب ما تنبه عليه الكلمات الهاديات من وجوب الإخلاص لله عز وجل ، وأن ما يعطاه المكلوم يوم القيامة من الفضل ، منوط بذلك الإخلاص ... ـ تشعر أيضاً بتعدد الميادين التي يمكن أن يقتل فيها المؤمن ، أو يكلم ويكون ذلك في سبيل الله . قال الإمام النووي رحمه الله : (هذا تنبيه على الإخلاص في الغزو ، وأن الثواب المذكور فيه إنما هو لمن أخلص فيه ، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا . قالوا : وهذا الفضل وإن كان ظاهره أنه في قتال الكفار .. فيدخل فيه من خرج في سبيل الله في قتال البغاة ، وقطاع الطرق ، وفي إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك والله أعلم). فطوبى لعاملين المخلصين في كل ميدان من ميادين الخير ، ما يلقون

من الكرامة يـوم القيامة، جزاء ما أصابهم وهـم يجاهدون ويعملون في سبيل الله ، أياً كان الثغرُ الذي أقامهم الله عليه في هـذه الدار ، دار العمل والتزوّد النافع لدار الجــزاء .

وبعد : فلا ينسينك بهاء الموقف وجلاله ـ وأنت تشهد ما ينطق به دم الشهيد ، أو المكلوم في سبيل الله ، يـوم العرض الأكبر ـ ما جاء في رواياتٍ أُخَـرَ للحديث، حملت مـزيداً من التجلية للترغيـب في الجهاد الصادق في سبيل الله ،لإعـزاز هذا الدين ، وما يدعو إلى حسن التأسي في ذلك بالنبي عليه الصلاة والسلام . .

روى مسلم من طريـق أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قـال : قال رسول الله ﷺ : « تضمن الله لمن خـرج في سبيله لا يخرجه إلا جهـاداً في سبيلي وإيماناً بي وتصديقـاً برسلي ، فهو عليَّ ضـامن أن أدخلـه الجنة ، أو أرجعه إلى مسكنـه الذي خرج منـه نائلاً ما نال مـن أجر أو غنيمة ، والذي نفـس محمد بيده : ما مـن كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يـوم القيامة كهيئته حين كُلم ، لونـه لون دم وريحه ريح مسك . والـذي نفس محمد بيده لـولا أن يشق على المسلمين ، ما قعـدت خلاف سرية تغـزو في سبيل الله أبـداً ، ولكن لا أجـد سعة فـأحملَهم ، ولا يجدون سَعَـةً ، ويشق عليهـم أن يتخلفوا عنـي ، والذي نفس محمـد بيده: لـوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتلُ ، ثم أغزو فأقتلُ ، ثم أغزو فأقتل » .

تضمَّن : تكفَّـل . ومعنى «لا يخرجـه إلا جهاداً في سبيلي » لا يخرجـه إلا محضُ الإيمان والإخلاص لأجل الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته في العالمين .

ومعنى « وتصديـق كلمته » أي كلمة الشهادتين ، وقيل : تصـديق كلام الله بما للمجاهد من عظيم الأجر ورفيع المنزلة . وفي شأن المراد بقوله : « فهو عليَّ ضامن» قـال الإمام النـووي : ذكـروا في « ضـامن » هنـا وجهين : أحـدهما ــ أنه بمعنـى مضمون؛ كماء دافق ومدفوق ، والثاني ـ أنه بمعنى ذو ضمان .

وهنيئاً للمجاهدين القتل أو الجرح في سبيل الله ، وما يكرمون به على مشهد من الخلائق أجمعين يوم التناد .

جنتان.. جنتان

وحور مقصورات في الخيام

لله ما أعظم ما يتفضل به الله على عباده الأبرار ، يوم يوفي الناسَ دينَهم الحقَ وتجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء: تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ؛ وكلما ازداد المؤمن تبصراً في تلكم الأخبار الصادقة عن يوم الدين وما يكون فيه ، ازداد يقيناً بعظم الفضل وكريم الإحسان ، لأولئك الذين أخلصوا دينهم له سبحانه ، وجاهدوا في سبيله مقبلين غير مدبرين ، ولم يدَعوا أن يأتوا بالطاعات وصالح الأعمال ، على الوجه الذي يرضيه سبحانه وتعالى . قال الإمام البخاري تحت باب ﴿ **حور مقصورات في الخيام** ﴾ من سورة الرحمن : وقال ابن عباس : حور : سودُ الحَدَق . وقال مجاهد : مقصورات: محبوسات ، قُصر طرفُهن وأنفسهن على أزواجهن . قاصرات لا يبغين غير أزواجهن .

ثم قال محمد بن إسماعيل رحمه الله : حدثنا محمد بن المثنى قال : حدثنا عبدالعزيز بن عبدالصمد قال : حدثنا أبو عمران الجونيُّ عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه « أن رسول الله ﷺ قال : إن في الجنة خيمةً من لؤلؤة مجوفة عرضُها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهلٌ ما يرون الآخرين ، يطوف عليهمَ المؤمنون » .

« وجنتان من فضة آنيتُهما وما فيهما ، وجنتان من كذا آنيتُهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكبر على وجهه في جنة عدْن » .

عبدالله بن قيس هو : أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ، والراوي عنه ابنه أبوبكر . قال الحافظ ابن حجر عند قوله : « يطوف عليهم المؤمنون » قال الدمياطي : صوابه « المؤمن » بالإفراد . وأجيب بجواز أن يكون من مقابلة

المجموع بالمجموع . وكشف رحمه الله عن أن «جنتانِ من فضة» معطوف على شيء محذوف تقديره : هذا للمؤمن ، أو هو من صنيع الراوي . وقال أبو موسى عن النبي ﷺ: جنتان ...الخ.

وسبق أن رأينا : ما أخرج البخاري تحت باب ﴿ **ومن دونهما جنتان** ﴾ من سورة الرحمن ، في كتاب التفسير من الجامع الصحيح من رواية أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه أبي موسى « أن رسول الله ﷺ قال : «جنتان من فضة آنيتُهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتُهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم ، إلا رداء الكبر ـ أو الكبرياء ـ على وجهه في جنة عَدْن ».

هـذا : وللعلماء كلام حول ما جاء في آخر الحديث « وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر ـ أو الكبرياء ـ على وجهه في جنة عدن » حاصله ـ كما يقول الحافظ ــ أن رداء الكبر مانع من الرؤية ؛ فكأن في الكلام حذفاً تقديره بعد قوله : إلا رداء الكبرياء : فإنه يمن عليهم برفعه فيحصل لهم الفوز بالنظر إليه ؛ فكأن المراد أن المؤمنين ، إذا تبوأوا مقاعدهم من الجنة ، لولا ما عندهم من هيبة ذي الجلال ، لما حال بينهم وبين الرؤية حائل ؛ فإذا أراد إكرامهم، حفّهم برأفته ، وتفضل عليهم بتقويتهم على النظر إليه سبحانه .

قال الحافظ : ثم وجدت في حديث صهيب في تفسير قوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ ما يدل على أن المراد برداء الكبرياء في حديث أبي موسى: الحجابُ المذكور في حديث صهيب ، وأنه ــ سبحانه وتعالى ــ يكشف لأهل الجنة إكراماً لهم . والحديث عند مسلم والترمذي والنسائي وابن خزيمة وابن حبان ، ولفظ مسلم ـ وقد مر بنا من قبل ـ أن النبي ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول الله عز وجل : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيِّض وجوهنا وتدخلنا الجنة ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم منه ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ » أخرجه مسلم عقب

حديث أبي موسى ولعله أشار إلى تأويله به ، ومعنى حديث الباب ـ كما يرى القرطبي في «المفهم» ـ أن مقتضى عزة الله واستغنائه: أن لا يراه أحد ، لكن رحمة المؤمنين اقتضت أن يريهم وجهه إكمالاً للنعمة ، فإذا زال المانع ، فعل معهم خلاف مقتضى الكبرياء ؛ فكأنه رفع حجاباً كان يمنعهم . ونقل الطبري عن علي وغيره في قوله تعالى : ﴿ ولدينا مزيد ﴾ قال : هو النظر إلى وجه الله . وقال المازري رحمه الله : كان النبي ﷺ يخاطب العرب بما تفهم ، ويخرج لهم الأشياء المعنوية إلى الحس ليقرِّب تناولَهم لها ، فعبر عن زوال المانع ورفعه عن الأبصار بذلك .

وما من ريب في أن من علامات الفلاح عند المؤمن : أن تزيده تلكم البشريات حرصاً على العمل الصالح في كل شأن من شؤونه ، وأن يكون هجيراه مرضاةَ الله تعالى ، كيما يفوز في الآخرة بما يفوز به أولئك الذين بشرهم النبي ﷺ ، بياناً لما جاء في الكتاب الكريم من ذلك ؛ وسبحان من أرسل محمداً ﷺ رحمةً للعالمين . ثم إن رواية الحديث عند مسلم قد جاءت بلفظ « إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوَّفة ، طولُها ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون ، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً » . وله في رواية أخرى « في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها ، أهل لا يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن » .

وقال الإمام الترمذي في كتابه « السنن »ـ جامع الترمذي ـ باب « ما جاء في صفة غرف الجنة » من كتاب صفة الجنة : حدثنا محمد بن بشار قال : «حدثنا عبدالعزيز أبو عبدالصمد العَميُّ عن أبي عمران الجونيِّ عن أبي بكر بن عبدالله ابن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة جنتين: آنيتُهما وما فيهما من فضة ، وجنتين آنيتُهما وما فيهما من ذهب ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا الكبرياء على وجهه في جنة عدن » وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة لخيمةً من درة مجوفة عرضُها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الأخرين ، يطوف عليهم المؤمن » .

قـال أبو عيسـى : هذا حـديث حسـن صحيح ، وأبـو عمران الجوني : اسمُـه عبدالملـك بن حبيـب ، وأبو بكر بـن أبي موسى : قـال أحمد بن حنبـل : لا يعرف اسمه، وأبو موسى الأشعري اسمه عبدالله بـن قيس ، وأبو مالك الأشعري اسمه سعد بن طارق بن أشيم .

ومن الجدير بالذكر : أن العلماء فهموا مـن مجيء قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ومن دونهما جنتان﴾ بعد الكـلام على فضله سبحانـه على عباده الذيـن يخافون مقامه ـ جل شـأنه ـ بقوله ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ أن هاتين الجنتين دون اللتين قبلهما في المرتبة ، والفضيلة ، بنص القرآن . قال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ومن دونهما جنتان﴾ من دونهما في الدرَج ، والدرَج المراقـي جمع درجة . وقال ابن زيد : من دونهما في الفضل .

قال الحافظ ابن كثير : والدليل على شرف الأولين على الأُخريين وجوه: أحدها أنه نعت الأولين قبل هاتين ، والتقديم يدل على الاعتناء ، ثم قال : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ وهذا ظاهر في شرف المتقدم وعلوه على الثاني .

اللهم اجعلنا من الذين يخافون مقامـك ـ صادقين ـ ويفوزون بكريم عطائك في الآخرين . لك الحمد في الأولى والآخرة . توفّنا مسلمين وألحقنا بالصالحين .

أهل الرسوخ في الطاعة..
وبشريات ما يكون يوم الدين

في متابعة لقراءة ما يتسع له المقام من نصوص الهدي المحمدي ، المبينة للكتاب الكريم و الكشافة عما يكون من واسع فضل الله وإحسانه يوم القيامة ، وما أعد لعباده المقرَّبين في دار كرامته ، من وافر العطاء : تجدر الإشارة عطفاً على ما رأينا من قريب مما روى البخاري ومسلم وغيرهما في هذا الشأن العظيم - إلى ما روى الدارمي أيضاً بسنده عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً ، في كل زاوية أهل للمؤمن لا يراهم الآخرون » ورواه الإمام أحمد في المسند . قال عبدالله بن الإمام أحمد : حدثني أبي قال : حدثنا يحيى عن حميد عن أنس عن النبي ﷺ قال : « دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ ، فضربت بيدي في مجرى الماء ، فإذا مسك أذفر ، قلت : ياجبريل ما هذا ؟قال : هذا الكوثر الذي أعطاك الله - أو أعطاك ربك عز وجل - » وفي رواية له « قلت : ما هذا ياجبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاكه الله » .

ويستوقفنا في هذه النصوص وأمثالها : هذا اللون من الإكرام الإلهي الذي يتمثَّل في تلكم الخيام ، وإلا فقد أوردنا فيما مضى من القول ، عدداً من النصوص التي تتعلق بالكوثر ، وتفضيل الله نبيه ﷺ به . ونقع في «مسند أحمد » على مثل أو نحو ما رأينا عند الشيخين من نصوص مباركة يرد فيها ذكر الجنتين بياناً لقوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ كما يرد فيها أيضاً ذكر الجنتين الأخريين بياناً لقوله جل شأنه في السورة نفسها : ﴿ **ومن دونهما جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾.

فقد أخـرج رحمه الله بسنده عـن أبي موسى الأشعـري رضي الله عنه أنـه قال : «جنتان من فضة آنيتهما ، وجنتان مـن ذهب آنيتهما وما فيهما . وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم تعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه عز وجل في جنات عدن ».

المسك الأذفر : هو المسك طيب الريح . قال ابن الأثير في « النهاية في غريب الحديـث » في صـفة الحـوض «.. وطينه مسـك أذفر » أي طيب الريح ، والذَّفَر ـ بالتحريك ـ يقع على الطَّيِّب والكريهِ ويفرَّق بينهما بما يضاف إليه ويوصف به، ومنه صفة الجنة « وترابها مسك أذفر » .

ومن كرم الله تعالى ، وبالغ منته على من أسعدهم بدخول جنته ، أن جعلها لهم دار إقامة وثبات ؛ فهم فيها مقيمون خالدون . وقد تعَدَّد ذكر هذه الحقيقة كثيراً في القرآن الكريم ، وفي حـديث النبي ﷺ ، ومن ذلك مارأينا آنفاً مـن قوله صلوات الله وسلامـه عليه : « ومـا بين القوم وبين أن ينظـروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه عز وجل في جنات عدْن » قـال الراغب الأصفهاني في « المفردات»: جنات عدن : أي استقـرارٍ وثباتٍ . عَـدَن بمكان كـذا : استقرَّ . وجـاء في النهايـة : جنة عدن : أي جنة إقامـة . يقال : عدن بالمكان يَعْدِنُ عدنـاً : إذا لزمه ولم يبرح منه . وقال صاحب القاموس المحيط : عدن بالبلد يعدِن ويعدُن عدناً وعُدُوناً : أقام. ومنه «جنات عدن ».

ومنذا الـذي يزعم لنفسه منـا ـ نحن العبيـدَ الضعفاءَ ـ القدرةَ على إحصـاء ما يجود به الكريم المنان ، على عباده الذين أحبهم وتفضَّل بنشر رحمته عليهم، في دار كرامته بعد قوله تعالى : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ .

وقبل هذا وبعـده : لايخفى على ذي لب أن كل لون مـن ألوان النعماء: يقودك إلى لون آخر ، ويضيء في نفسك بواعث اليقين ، بصدق ما وعد الله الصالحين من عباده الـذين خلعـوا الأنداد والأضداد ، وعـرفوا الحق فلزمـوه ، ولم يبارحـوا باب

الخضوع والإنـابة ، متقين مولاهـم حقَّ تُقاتـه ، مجاهدين في سبيلـه ، لا يخافون في نصرة الدين لومـة لائم .. حتى لو اشتهى أحدهم الولـد أو الزراعة أو غير ذلك ، سرعـان مـا يعطى قـال الإمـام الدارمي في « السنـن »: أخبرنـا محمـد بن يـزيـد القواريـريُ عن معـاذ ابن هشام عـن أبيه عـن عامر الأحـول عن أبي الصـديق الناجي عـن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبـي ﷺ قال : « إن المؤمن إذا اشتهى الـولد في الجنـة كان حملُه ووضعُـه وسنُه في ساعـة كما اشتهى ». وأخـرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب .

وما أوفر المبشرات التي تبدو حقائقَ ناصعةً يوم القيامة ، يسعد بها الذين كانوا في الـدنيا يـرجون لقـاء ربهم، ولا يفتؤون صـابـرين لجلالـه على كل مـا يعترض سبيلهم وهم على طريق النجاة يوم الدين . أرأيت إلى دلالة ذلك المشهد العظيم الذي يصـف حال الأمة يـومذاك ، حين يكون أهـل الجنة عشرين ومـائة صف ، فيكون أهل الإسـلام ثمانين منها ؟ روى الإمام أحمد بسنده عن سليمان بـن بريدة عـن أبيه بـريدة الأسلمـي رضي الله عنه قـال : قال رسـول الله ﷺ: « أهل الجنـة عشرون ومائة صف ، هذه الأمة من ذلك ثمانون صفاً .» وفي رواية له عن عبدالله ابن مسعـود رضي الله عنه قـال : قال لنـا رسول الله ﷺ: « كيـف أنتم وربـع أهل الجنة، لكم ربعها ولسـائر الناس ثلاثة أرباعها ، قالوا : الله ورسـوله أعلم : قال: فكيف أنتم وثلثها ؟ قالوا : فذاك أكثر . قال : فكيف أنتم والشطر ؟ قالوا : فذاك أكثر ، فقال رسول الله ﷺ: أهـل الجنة يوم القيامة عشرون ومائة صـف أنتم منها ثمانون صفـاً» . ورواه الحاكم في « المستدرك » بنحوه عـن ابن مسعود من طـريق ابنه عبدالرحمن وقال : عبدالرحمن بن مسعود لم يسمع من أبيه في أكثر الأقاويل ، وقال الذهبي في «التلخيص »: لم يسمع عبدالرحمن من أبيه .

وبمثل ما رأينا مـن الرواية الأولى عند أحمد عن بُريـدة الأسلمي رضي الله عنه، نجد الرواية عندالدارمي وابن مـاجة والترمذي والحاكم ، ولفظ الترمذي : « أهل الجنة عشرون ومائة صـف ، ثمانون منها من هـذه الأمة وأربعون من سـائر الأمم »

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . وقد روي هذا الحديث عن علقمة بن مَرْثَد عن سليمان بن بريدة عن النبي ﷺ مرسلاً . ومنهم من قال : عن سليمان بن بريدة عن أبيه .

وفي رواية الحاكم بعض الاختصار ، وقد قال بعدها : أرسله يحيى بن سعيد وعبدالرحمن بن مهدي عن الثوري .

والأمر البالغ الأهمية الذي لا غنى عن التذكير به في هذا المقام ، وليس من معاد القول : أن تلكم البشريات الكريمة في دار الخلود ، لم تزد أهل الخشية إلا دأباً على الطاعة ، ورسوخاً في العبودية ، وثباتاً على طريق أهل اليقين المفلحين . قال التابعي الجليل طلق بن حبيب المتوفى قبل المائة للهجرة ـ وكان من العلماء الزهاد ـ: « التقوى : أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، خوفاً من عذاب الله » .

اللهم اجعلنا من أهل الإخلاص في طاعتك ، لا تقعدنا عن العمل بشارة ، ولا تيئسنا من رحمتك نذارة ، واكتب لنا برحمتك الفوز بالجنة والنجاة من النار مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

اليوم العسير.. ومبشرات النجاة والفوز

أشرت غير مرة ، إلى أن مما تميز به السلف الصالح عليهم الرضوان : ما كان من عدم ركونهم إلى الدَّعة ، والفتور عن عمل الصالحات ـ تأثراً بما تحمل الأخبار الصادقة من مبشرات للمؤمنين ، يشرق بها العطاء الإلهي يوم المعاد ـ بل كان ذلك بمثابة الحافز القوي إلى مضاعفة العمل ، واستشعار الخشية من أهوال ذلك اليوم، والحذرِ من الوقوع في مغبَّة الاغترار بالله ، والغفلة عما جاء من النذر التي لا قِبَلَ للإنسان بها ، إلا أن تناله رحمة ربه ، فينجوَ مع الناجين ؛ وذلك هو المسلك الصحيح ، الذي يدل على استنارة القلب والحياء من الله، وصواب الفهم لما جاء عن الله ورسوله في شأن يوم الدين .

قال الحافظ ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم**﴾ (هذا تهديد ، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب ، حيث قال : «الكريم » حتى يقول قائلهم: غره كرمه ؛ بل المعنى في هذه الآية : ما غرَّك ياابن آدم بربك الكريم ـ أي العظيم ـ حتى أقدمت على معصيته وقابلته بما لا يليق؟ كما جاء في الحديث : «يقول الله يوم القيامة : ابن آدم ما غرك بي ؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين»؟. وقد أورد قول البغوي: قال بعض أهل الإشارة: إنما قال: ﴿ **ما غرّك بربك الكريم** ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته ، كأنه لقَّنه الإجابة ... أورد هذا القول ولم يجد بُدَّاً من إيضاح هذه المسألة التي لها آثارها في تلكم الساعات المهولات يوم يقوم الناس لرب العالمين ؛ فردَّ على تلك المقولة التي اعتبرها نوعاً من التخيُّل في معنى الآية . قال رحمه الله : (وهذا الذي تخيله هذا القائل ، ليس بطائل لأنه ـ سبحانه ـ إنما أتى باسمه الكريم لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابَل الكريمُ بالأفعال القبيحة ، وأعمال السوء) . ولقد يستأنس لذلك بما روى ابن أبي حاتم عن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ ﴿ **يا أيها الإنسان ما غرّك بربك**

الكريم﴾ فقال عمر : الجهل . وروي مثلُ ذلك عن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم ، قال ابن عمر : غرّه ـ والله ـ جهله .

وإذا كان الأمر كذلك : فما أجدر أولئك الصلحاء الأتقياء ، بالكثير من الغِبْطَةِ ؛ لما أنهم وَلَّوا وجوههم شطر ما فيه النجاة من عذاب الجحيم ، والفوزُ بجنة الخلد ونعيمها المقيم . جاء في ترجمة التابعي الجليل قاضي البصرة أبي حاجب العامري زرارة بن أوفى يرحمه الله وكان من أهل الخشية والعلم والعمل ـ ولا نزكي على الله أحداً ـ: أنه صلى الصبح في مسجد بني قشير فقرأ ﴿ **ياأيها المدثـر** ﴾ حتى قوله تعالى: ﴿**فإذا نقر في الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير .على الكافرين غير يسير** ﴾ فشهق شهقة ثم خرَّ ميتاً رحمه الله . قال بهز بن حكيم راوي الخبر ـ كما جاء في الحلية والسير وغيرهما ـ : « فكنت فيمن حمله إلى داره » .

وهذا الإحساس الصادق بما تكون عليه شدة العسر يوم القيامة ، اليوم الذي وصفه الله تبارك وتعالى بأنه يوم عسير ﴿ **على الكافرين غير يسير** ﴾ـ كما يشهد لصاحبه بصفاء النفس واستنارة القلب ـ يذكّر بما رُزِقَهُ المفلحون من عباد الله من مراقبة لله عز وجل في كل صغيرة وكبيرة ، كيما يعتقوا أنفسهم من النار ، ولا يوبقوها في غضب العزيز الجبار .

والإمام أحمد بن حنبل رحمه الله واحد من أكرم النماذج وأفضلها لهذا النهج الكريم ، ذُكر في ترجمته أنه كان ينشد هذين البيتين إمّاله أو لغيره :

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقل ... خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبنَّ الله يغفُل ساعةً ... ولا أن ما يخفى عليه يغيب

وهذا الذي نرى : قبسٌ من هدي النبي ﷺ في ذلك . أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يا أيها الناس لا يغترَّنَّ أحدكم بالله ؛ فإن الله لو كان مغفلاً شيئاً ،لأغفل البعوضةَ والذَّرَّةَ » كما أخرج عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله قوله: « لو كان الله مُغفلاً شيئاً لأغفل ما

تُعَفِّي الرياح من أثر قدَمي ابن آدم ».

وما من ريب في أن الذين أكرمهم الله بفقه تلك المعاني - التي ترتبط بأعمال القلوب ، قبل أعمال الجوارح ، وكانوا على صدق مع الله عزوجل في السر والعلانية - موقنين بأنه - جل شأنه - لا يعجزه شيء ، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ، ولا في السماء ... ما من ريب في أن هؤلاء المحبوبين لله عز وجل ، لابد نائلون - بفضله وكرمه سبحانه - ما لا يُقْدَرُ قدْرُه من العطاء الرباني يوم القيامة ؛ ولسوف يشهد العالَمون ذلك ، على أوضح صورة وأكملها ؛ حيث يفرح الصادقون الأتقياء ، بما نالهم من الخير - وهم يتقلبون بمشاهد ذلك العطاء - ويعض الظالمون على أيديهم ، ويندم المفرطون ، ولات ساعة مندم .

والخير لهؤلاء الصفوة كائن عند الاحتضار ، ويوم يقوم الأشهاد ؛ فالنفس الزكية المطمئنة - وهي الساكنة الثابتة مع الحق - يقال لها : **﴿ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي﴾** يقال لها ذلك عند الاحتضار ، وفي يوم القيامة أيضاً - كما ذكرتُ آنفاً - وترى الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره ، وعند قيامه من قبره . أخرج ابن أبي حاتم من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : **﴿ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾** قال : نزلت وأبوبكر جالس ، فقال : يارسول الله ما أحسن هذا ! فقال عليه الصلاة والسلام : « أما إنه سيقال لك هذا» . وله في رواية أخرى : قُرِئت عند النبي ﷺ **﴿ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾** فقال أبوبكر رضي الله عنه : إن هذا حسن ، فقال النبي ﷺ : « أما إن الملك سيقول لك هذا عند الموت ».

ومشاهد اليوم الموعود ، حافلة بما يدل على ما يؤول إليه أمر تلك النفس المطمئنة من التقلب في النعيم الذي لا يزول ، والخيرِ الذي لا يَنْفَدُ في جنات عَدْن التي وُعِدَ ؛ فكل عمل صالح - مهما قل شأنه - بحسبان ، والخاتمة الحسنى تشرق

بضياء قوله تعالى ﴿ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي﴾ . قال الإمام أحمد في المسند: حدثنا هاشم بن القاسم قال: حدثنا الفرج قال : حدثنا لقمان عن أبي أمامة ـ صُدَيِّ بنِ عجلانَ ـ عن عمرو بن عَبَسةَ وهو أبونَجيح السُّلَمي قال: قلت له: حدثنا حديثاً سمعته عن رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وهَم: قال: سمعته يقول : « من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام ، فما توا قبل أن يبلغوا الحِنثَ ، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ، ومن شاب شيبة في سبيل الله ، كانت له نوراً يوم القيامة ، ومن رمى بسهم في سبيل الله، بلغ به العدوَّ ـ أصاب أو أخطأ ـ كان له عتق رقبة ، ومن أعتق رقبة مؤمنة ، أعتق الله بكل عضو منها ، عضواً منه من النار ، ومن أنفق زوجين في سبيل الله ، فإن للجنة ثمانية أبواب ، يُدخله الله من أي باب شاء منها » وروى أبوداود والنسائي بعضه.

معنى «من أنفق زوجين في سبيل الله»: من أنفق صنفين من ماله في سبيل الله . والمراد بالأولاد الذين لم يبلغوا الحنث : أنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال ، ويجري عليهم القلم فيكتب عليهم الحنث ـ وهو الإثم ـ وقال الجوهري في « الصحاح » : بلغ الغلام الحنث : أي المعصية والطاعة .

وفقنا الله لما فيه النجاة من عذابه ، والفوز بجنته عقبى أحبابه ، وهو المحمود على كل حال .

تلك عقبى الذين اتقوا..
وعقبى الكافرين النار

إذا وقعت الـواقعة ، وتحقـق موعـود الله ـ بجنته ورضـوانه ـ لأهل الهدايـة من عباده،كما تحقق وعيـده ـ بنـار السعير والعذاب الأليـم ـ لأهـل الضلالـة منهم ـ وذلك حقيقة نـاصعة لا مرية فيهاـ .. إذا حصل ذلك ، وهو حـاصل لا محالة ، ازداد المؤمنون يقيناً بما كان من فضل الله عليهم ومنَّته أن هداهـم للإيمان ، ووفقهم للطاعة، وجعلهـم من عباده المتقين ، وهنا ينـدم المفرِّطون الظالمون ، ويتمنـون لو يعادون إلى الدنيا ، فيعملوا غير الذي كانوا يعملون ، ولكن يتبدى لهم أن مطلبهم هذا من العبث العـابث الذي لا وزن له ولا قيمة ، بعد أن قـامت عليهم الحجة، وأعرضوا عن هداية الله ، ولم يعتبروا بسنة الله في الماضين من الظالمين والكافرين . ولقد أُمر رسولنا ﷺبأن ينذر الناسَ هذه الحقيقة ، وأن يبصرهم العواقب؛ والسعيد من اهتدى ، والشقيُّ من أعرض وضلَّ سواء السبيل .

والآيـات في ذلك كثيرة ، نقـرأ منها قـول الله تعالى في سـورة إبراهيـم : ﴿**وأنذر الناس يوم يـأتيهم العذاب فيقول الذين ظلمـوا ربنا أخرنا إلى أجل قـريب نجب دعوتك ونتبع الـرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مـالكم من زوال . وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال**﴾.

قولهم : « ربنا أخرنا » : أي بأن تردنا إلى الدنيا . كما نقرأ في سورة الأعراف قوله عزوجل : ﴿ **هل ينظرون إلا تـأويله يوم يأتي تأويلـه يقول الذين نسوه مـن قبل قد جاءت رسل ربنـا بالحق فهل لنا مـن شفعاء فيشفعوا لنا أو نـرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانو يفترون** ﴾ .

إنها العدالة الإلهية المطلقة في تيئيس أولئك الظالمين الصادين عن سبيل الله في

أمانيهِّم الكاذبة ، يتأكد ذلك في صورة أخرى للحوار نجدها في سورة فاطر وقول الله جل ثناؤه : ﴿**والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفَّف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمِّركم ما يتذكر فيه من تذكَّر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير**﴾.

والحق أنه بقدر ما يُحِسُّ هؤلاء الذين خسروا أنفسهم ، بمدى تفريطهم في جنب الله ، يفرح أهل الإيمان والطاعة ، بما ينالون من الفضل و الإحسان وهم يرفُلون ـ أعزة مكرمين ـ بالنعيم المقيم، عند ربهم في دار السلام ، ويظلُّهم رضوان الله الأكبر وينظرون إلى وجهه الكريم ـ تقدس وتعالى عن الشبيه والمثيل ـ وسبحان من قضى بمنه وكرمه : أن للذين أحسنوا الحسنى وزيادة.

ومما يُفيض آثار الإيمان في النفس ، ويفترض أن يحرك الهمم للمزيد من الطاعة وعمل الصالحات ، والجهاد في سبيل الله ؛ إقبالاً على الله وإخلاصاً في الدين .. أن أولئك البررة الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، يجدون يوم الجزاء ، أن الله قد منَّ عليهم فجزاهم بما عملوا الجزاء الأوفى ، مهما دق هذا العمل أو جلَّ ، فزحزحوا عن النار وأدخلوا الجنة ، وذلك هو الفوز العظيم .

والمؤمن على يقين لا يعتريه أدنى ريبة : أن الخلائق سوف يشهدون يوم الحساب وقوعَ كلِ ما بشر به الخبر الصادق أهل الإيمان والعمل الصالح ... يشهدون ذلك عياناً ، يقطع ما كان عليه أهل الزيغ والضلال ، أو الشك والانحراف !! .

وإنه لأمر بالغ الأهمية عند أهل البصائر ، الذين يؤرقهم المصير يوم الدين ، أن تزيد تلك الحقائق المغَيَّبَةُ المؤمن إيماناً ، يسعى معه جاهداً لمضاعفة العمل في سبيل الله ، وتجاوز المعوقات رغباً ورهباً ، وملءِ ساعات العمر بما ينفع يوم الدين. وفي ذلك الخير كل الخير ، للفرد والجماعة ، الأمر الذي يعود على المجتمع المسلم

بالقوة والتمكين ، وكلِ ما فيه سعادة الدنيا والآخرة .

ومن النماذج المشرقة على هذه الساحة ـ وما أكثرهـا وأوفرها ـ ما رأينا من قريب في واحدة من بشريات النبي ﷺ ؛ كيف أن زمرة من المؤمنين يضيء بهم مشهد من مشاهد القيـامة ، حيث يدخـل كل عامل الجنـة ـ فضلاً من الله ــ بما عمل ، هذا عمل كذا ، وذاك عمل كـذا ، وفق ما رسمت له الهداية النبوية ــ بياناً لكتاب الله العزيز ــ وذلك ما روى الإمام أحمد عن أبي أمـامة صُديً بن عجـلان الباهلي أنه سأل أبا نجيح السُّلمي عمرو بن عَبَسَة رضي الله عنهما أن يحدثه حديثاً سمعه من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وهـم ـ والوهـم الغلط ـ قال أبو نجيح سمعته يقول : «من ولـد له ثلاثة أولاد في الإسـلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنـث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم . ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة. ومن رمى بسهـم في سبيـل الله بلغ به العدو ـ أصاب أو أخطأ ـ كـان له عتق رقبة . ومن أعتق رقبة مؤمنة ، أعتق الله بكل عضـو منها عضواً منه من النار ، ومن أنفق زوجين في سبيل الله ، فإن للجنة ثمانية أبواب يدخله الله من أي باب شاء منها » .

هكذا تعلن الحقيقة إعلانها في تلك الساعات المثقلة بالأهوال ، ويشهد أهل الموقف العظيم بأم أعينهم إنجاز ما وعد الله ورسوله المخلصين في عبوديتهم لله، العاملين بما أرشد إليه المبلِّغ عن الله ، رسولُ الله عليه الصلاة والسلام . وكما تحقق الخير على أيديهم في الدنيا دار العمل ، أكرموا بثمرات ذلك في دار الجزاء .

وأبونَجيح هـذا صحابي جليل نقل الحافظ ابـن حجر عن الواقـدي انه أسلم بمكة ثم رجع إلى بلاد قومه ، ثـم قدم على رسول الله ﷺ المدينة . وقال ابن سعد: يقولون : إنه رابع أو خامس في الإسلام ، وقـال أبو نعيم: كان قبل أن يسلم يعتزل عبادة الأصنام رضي الله عنه وأرضاه .

وهذه رواية أخرى عند أحمد يستوثق فيها السائل أكثر وأكثر عن حديث رسول الله ﷺ . قال عبدالله بن الإمام أحمد : حدثني أبي قال: حدثنا هشيم قال : حدثني

عبدالحميد قال : حدثني شهر قال : حدثني أبو طيبة قال : إن شُرَحْبيلَ بنَ السِّمْطِ دعا عمرو بن عبسة السلمي أبا نجيح فقال : ابن عَبَسَةَ هل أنت محدثي حديثاً سمعته أنت من رسول الله ﷺ ليس فيه تزيد ولا كذب ، ولا تحدثنيه عن آخر سمعه منه غيرك ؟ قال: نعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قد حقت محبتي للذين يتحابون من أجلي ، وحقت محبتي للذين يتصافَون من أجلي ، وحقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي ، وحقت محبتي للذين يتباذَلون من أجلي ».

وقال عمرو بن عبسة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أيُّما رجلٍ رمى بسهم في سبيل الله عز وجل فبلغ ـ مخطئاً أو مصيباً ـ فله من الأجر كرقبة يعتقها من ولد إسماعيل ، وأيُّما رجل شاب شيبة في سبيل الله ، فهي له نور يوم القيامة ، وأيما رجل مسلم ، أعتق رجلاً مسلماً : فكل عضو من المعتَق بعضو من المعتِق ، فداءٌ له من النار، وأيما امرأة مسلمة : أعتقت امرأة مسلمة ، فكل عضو من المعتَقة بعضو من المعتِقةِ فداءً لها من النار . وأيُّما رجل مسلم ، قدم لله عز وجل من صلبه ثلاثة لم يبلغوا الحنث ـ أو امرأة ـ فهم له سترة من النار ، وأيما رجل ، قام إلى وضوء يريد الصلاة فأحصى الوضوء أماكنه ، سلم من كل ذنب أو خطيئة له ؛ فإن قام إلى الصلاة ، رفعه الله عز وجل بها درجة ، وإن قعد قعد سالماً » فقال شرحبيل بن السمط . أنت سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ يا ابن عبسة ؟ قال : نعم والذي لا إله إلا هو لو أني لم أسمع هذا الحديث من رسول الله ﷺ غير مرة أو مرتين أو ثلاث أو أربع أو خمس أو ست أو سبع ـ فأنهى عند سبع ـ ما حلفت ، يعنى ما باليت أن لا أحدث به أحداً من الناس ولكن والله ما أدري عدد ما سمعته من رسول الله ﷺ .

سبحان الله ، تلك عقبى الذين اتقوا ؛ بما استجابوا لدعوة الحق ، وسلكوا طرائق البر ، وعقبى الكافرين المعرضين عن الهداية ، أعداءِ الحق وأهله : النار .

الاهتمام بالعقبى ، وما يمكن أن تكون عليه حال المرء في الآخرة ، قضية كبرى ، أرّقت أهل القلوب ، وجعلت العلماء العاملين ، على حذر يحملهم على مزيد من الورع ، واللجوء إلى الله عز وجل ، كيما يَمُنَّ عليهم بالنجاة يوم الحسرة ، وأن يحشروا في زمرة الآمنين .

كان عليَّ أن أقدم هـذه الكلمات ، بين يدي ما قرأت في سيرة واحـد من أعلام العربية الكبار ، إمام الكوفيين في النحو واللغة ، الثقةِ الحجةِ أحمد بن يحيى بن زيد ابن سيـار الشيباني بالـولاء ، المشهور ، بــ «ثعْلب » والمتوفى سنـة إحدى وتسعين ومائتين للهجرة . قـال عنه الخطيب البغدادي : ثقـة حجة ديِّنٌ صالـح ، مشهور بالحفظ .

فعلى كل ما قدمه للعربية التي هي لغة القرآن الكريم والسنةِ المطهرة ، والمعرفةُ بها ركـن ركين في العلـم بـالشريعـة وأحكامهـا وآدابها ، ومعـرفـة معـاني الكـلام ودلالاته... نجـده على حال من الخوف عما تكون عليـه حاله يومـذاك ؛ فقد روي عنه ـ رحمه الله ـ قوله : « اشتغل أهل القرآن بالقرآن ففازوا ، واشتغل أهل الحديث بالحديث ففازوا ، واشتغـل أهل الفقه بالفقه ففازوا ، واشتغلت أنـا بزيد وعمرو ، فيـاليت شعـري مـاذا تكون حـالي في الآخرة ؟» أرأيـت إلى هـذا الخوف من يـوم الوعيــد ؟.

وإنما كان ذلك من هذا العَلَم من أعلام الأمة ؛ لما أنه يقدُر يوم الحساب قدره، ويدرك مسؤولية العالم في نفسه وأهله وفي الأمة ، وما كان من الوعيد لمن لا يعمل بعلمه ، أو يطلب بهذا العلم الـدنيا ، أو القربَ من السلطان ؛ ناهيـك عن الرغبة في المباهـاة ، وأن يقال له « عالم » معـرضاً عما هو على يقين منه ، وهـو أن الله جل

شأنه لا يخفى عليه من عباده شيء ، فهو يعلم السر وأخفى . ومنذ الذي ينكر أن خدمة هذه اللغة الميمونة المقدسة بإخلاص خدمةٌ للإسلام ، وأن العناية بها من الدين : ولكنه خوف الله واليوم الآخر ، حمل عالمنا الكبير ، على قول ما قال. أجزل الله مثوبته وأعطاه يوم المعاد ، خيرَ ما يعطي العلماءالعاملين أهلِ الخشية الصادقين.

هذا : ووحدة المنهج الفكري عند المؤمن ـ في تصوره وسلوكه ـ توجب أن لا يغيب عن البال ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، من الوعيد لأولئك الذين يستبدلون عرض الدنيا بمرضاة الله تبارك وتعالى ، وما يكون من افتضاحهم على رؤوس الخلائق ، يوم لا يغني عنهم ما كسبوا ـ طاعةً للهوى والشيطان ـ شيئاً ، ومالهم من اللهمن ولي ولا نصير . من ذلك ما أخرج البخاري ـ كما أشرنا من قبل ـ عن أسامةَ بن زيد رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أقتابه في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أي فلان ، ما شأنك ؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه » رواه غُنْدَرٌ عن شعبةَ عن الأعمش .

إنه مشهد مخيف حقاً ، وهو مشهد جدير ـ وأيم الله ـ أن يتدبره العالم ، وينظر من خلاله فيما هو عليه من مقدار التحسُّب للعاقبة ، يومَ الرُّجعى إلى الله ،لا إلى أحد سواه ؛ الأمر الذي يسعفه ـ بعون الله ـ في تجاوز ما يكون من رغب، أو رهب السلطان وأعوانه، وما يكون من سحر الدنيا ـ بمناصبها وزخرفها ـ ناهيك عن تسويل بطانة السوء ، وأصحاب الأهواء الذين يتقنَّعون ـ عند الاقتضاء ـ بقناع الغيرة على الحق ،وما يدْعونه ـ زوراً وبهتاناً ـ با لمصلحة العامة ، وخدمة الإسلام .

معنى تندلق أقتابه ـ أو أقتاب بطنه كما في بعض الروايات ـ تخرج أمعاؤه من مكانها في جوفه وتقع في النار ـ أعاذنا الله من ذلك ـ فا لاندلاق : خروج الشيء

من مكانه . والأقتاب : الأمعاء : جمع قِتْبٍ أو قِتْبَة على رأي الأصمعي . وقال ابن الأثير : (وفي حديث الربا « فتندلق أقتاب بطنه » الأقتاب : الأمعاء ، واحدها : قِتْبٌ بالكسر .. والاندلاق: خروج الشيء من مكانه يريد خروج أمعائه من جوفه. وأورد الزمخشري في كتابه « الفائق في غريب الحديث » النص بكامله ثم بين المراد من الاندلاق والأقتاب . والحديث رواه مسلم أيضاً وأحمد . كما رواه ابن أبي الدنيا وابن حبان والبيهقي من حديث أنس رضي الله عنه، وزاد ابن أبي الدنيا والبيهقي في رواية لهما « ويقرأون كتاب الله ولا يعملون به » .

ولفظ الحديث عند أحمد ـ في بعض الروايات ـ: « يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها في النار كما يدور الحمار بالرحا ، قال : فيجتمع أهل النار إليه ، فيقولون : يافلان أما كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال: فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه».

وتكشف رواية أخرى عند أحمد عن أن هذا المشهد المروع ، هو أيضاً مشهد رجل كان يطاع في معاصي الله عز وجل ، ولفظها :« يؤتى بالرجل الذي كان يطاع في معاصي الله تعالى ، فيقذف في النار ، فتندلق أقتابه ، فيستدير فيها كما يستدير الحمار في الرحا ، فيأتي عليه أهل طاعته من الناس ، فيقولون : أي فل ـ يعني أي فلان ـ أين ما كنت تأمرنا به ؟ فيقول إني كنت آمركم بأمر وأخالفكم إلى غيره ».

ولكم يغبط أولئك الذين تشرق قلوبهم بهداية الله ، فينتفعون بما نبه عليه الرحمة المهداة إمام الأنبياء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام !! وصورة هذا الانتفاع أن لا ينسوا لقاء اليوم الموعود ، فيسلكوا طريق الاستقامة والأمانة ؛ علماً وعملاً وسلوكاً ، وبذلك يحظون بأن يباعدهم الله من النار وأهوالها في ذلك اليوم ، ويجعلَهم في زمرة العلماء العاملين الذين لايخافون في الله لومة لائم... وإلا فالأمر شديد شديد ، والعقبى مهولة مخيفة لمن ينسون الله واليوم الآخر ، ويستمرئون طريق الغافلين.

روى الطبراني في « المعجم الكبير » بسنده عن الوليد بن عقبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إن أناساً من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم، فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل ».

ألا وإن صدق الإيمان باليوم الآخر ،واليقينَ بأن الله تبارك وتعالى ، يعلم السرَّ وأخفى ، وأن العبد ، لا تزول قدماه يوم القيامة ــ كما روى الترمذي والبيهقي وغيرهما عن الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ـ حتى يُسألَ عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله فيم اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن علمه ماذا عمل فيه ؟

كل أولئك ـ بإذن الله ـ ضمانة الإقلاع عن الجنوح المردي ، إلى طريق النجاة يوم الدين . والمفلح من وفقه الله للأخذ بطريق أهل الفلاح . روى مالك بن دينار عن الحسن البصري رحمه الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد يخطب خطبة إلا الله عز وجل سائله عنها ـ أظنه قال ـ ما أراد بها ؟» قال جعفر : كان مالك بن دينار إذا حدث بهذا الحديث ، بكى حتى ينقطع ، ثم يقول : «تحسبون أن عيني تَقَرُّ بكلامي عليكم ، وأنا أعلم أن الله عز وجل سائلي عنه يوم القيامة ، ما أردت به؟» قال الحافظ المنذري ؛ رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي مرسلاً بإسناد جيد.

توفي مالك بن دينار ـ يرحمه الله ـ سنة ثلاثين ومائة للهجرة أو نحوها . وما ذكر من بكائه الشديد عند الحديث عن مسؤولية الكلام يوم الحشر الأكبر ،ليس موضعَ استغراب !! فهو العابد الزاهد الورع إلى كونه من رواة الحديث المعنيّين بالسنة والعلم بها ، والكلامُ في المصادر الموثقة عن خشيته لله وخوفه سوء الحساب كثير وفير .

رزقنا الله حسن التأسي بالنبي عليه الصلاة والسلام ، والانتفاعَ بما كان عليه السلف الصالح عليهم الرحمة والرضوان ، إنه سبحانه ولي التوفيق .

مكارم الأخلاق..
ومنازل من يتركون المراء في الجنة

من المشاهد الناطقة يوم القيامة بالكشف عن السبيل التي اتبعها أصحابها، حتى كانوا على الحال التي هم عليها ، في تلكم المشاهد ؛ مشهدُ زُمَرٍ من العباد ، كانوا عند الأدب الذي أدب النبي ﷺ أمته في شأن المراء ؛ فكانت لهم مكرمة دخول جنة عدن ، حسب الذي قدموا بين أيديهم من ذلك الأدب. ومشهد زمر آخرين أعرضوا عن التزام ذلك الأدب العظيم ، فكانت عاقبة أمرهم خسراً .

والمراءُ خُلُقٌ كثيراً ما يؤدي إلى ضياع الحق ، في حمأة الانتصار للباطل ، ناهيك عما قد يحدث من المنازعة المرهقة للفريقين المتجادلين ،وتنافر القلوب . لذلك عرَّفه العلماء بأنه : المنازعة في القول ، أو العمل ، أو الاعتقاد بقصد الباطل ، فإن كان بقصد الحق : فهو الجدال ويفترض أن يكون بالتي هي أحسن . وقد تذكر الشبهة في معرض الدليل ويكون مراءً أيضاً ، حتى يقصد صاحبها الحق ، ويبدي طلب الدليل لظهور ما هو صدق ، وقال بعض المحققين : المراء : الاعتراض على كلام الغير ، بإظهار خلل فيه ؛ إما لفظاً ، أو معنى ، أو في قصد المتكلم . والعلاقة وثيقة بين المراء وبين المِرْيةِ وهي التردد في الأمر ، وهو أخص من الشك ـ كما قال الراغب ـ وأصل المراء عربيةٌ: من مريتُ الناقة إذا مسحتَ ضرعها للحلْب، فأمرتْ هي: أي درَّ لبَنُها ، فكأنك تستخرج ما عند الآخر من القول بهذه الطريقة.

أخرج الترمذي في باب « ما جاء في المراء » من كتاب البر والصلة في السنن بسنده عن سلمةَ بنِ وُرْدانَ الليْثيِّ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من ترك الكذب ـ وهو باطلٌ ـ بني له في ربض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق بني له في وسطها ، ومن حسَّن خُلُقَهُ بني له في أعلاها » قال

الترمذي : وهذا الحديث حسن لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن وُرْدانَ عن أنس ابن مالك . ورواه ابن ماجة والبيهقي والطبراني في « المعجم الأوسط» ربَض الجنة بفتح الباء : مـا حولها خارجاً عنها ـ كما يقـول أهل الغريب ـ تشبيهاً بـالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القـلاع . ومعنى « من ترك الكـذب » أي وقت مرائه كما تـدل القرينـة في النص ، ويحتمـل الإطلاق والله أعلـم . وقد جـاءت جملة « وهـو باطل» معترضةً بين الشرط والجزاء للتنفير من الكذب ، فإن الأصل فيه أنه باطل .

هكذا تشهد الخلائق يوم المعاد ، هذا العطاء الربانيَّ لهؤلاء الذين جاء الحديث على ذكرهم بالثناء ، وكم لذلك من أثر طيب في الروابط الثقافية والاجتماعية .

أما من أعرضـوا عن ذكر الله : وجانبوا الحق ، مُصرِّين على نصرة البـاطل الذي يدَّعون ، فهم محرومون من هذا الخير ، ولهم ما يليق بصنيعهم من العقوبة ، عافانا الله من ذلك .

وللحديث رواية أخرى ـ كما ذكر الحافظ المنذري ـ بلفظ « من ترك المراء ـ وهو مبطلٌ ـ بُنـي له بيتٌ في ربض الجنة ، ومن تـركه ـ وهو محقٌّ ـ بنـي له في وسطها ، ومن حسَّن خلقه ، بني له في أعلاها » . وأخرج الإمام ابوداود في كتاب الأدب من «السنن» بسنده عـن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسـول الله ﷺ : «أنا زعيم ببيت في ربض الجنـة لمن ترك المراء وإن كان محقاً ، وببيت في وسـط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه » .

قول النبي ﷺ : «أنا زعيم » أي ضامن وكفيل ، والـزعامة الكفالة ، ومنه قوله تعالى في سورة يـوسف : ﴿ وأنا بـه زعيم ﴾ قال الإمـام الخطابي في كتابـه «معالم السنن » : والبيـت ههنا : القصر ، أخبرني أبوعمر قـال : أخبرنا أبو العبـاس عن ابن الأعـرابي قال : البيت القصر ، يقال : هـذا بيت فلان أي : قصره . وقـد أثنى النبي عليه الصلاة والسلام على السائب رضي الله عنـه بحسن الخلق والسهولة في المعاملة ، وتـرك المراء والخصومة . قال أبوداود : حـدثنا مسدَّد قال : حـدثنا يحيى

عن سفيان ، قال : حدثني إبراهيم بن المهاجر عن مجاهد عن قائد السائب عن السائب قال : أتيت النبي ﷺ ، فجعلوا يثنون عليَّ ويذكرونني ، فقال رسول الله ﷺ : « أنا أعلمكم - يعني به - فقلت : صدقت بأبي أنت وأمي ، كنت شريكي فنعم الشريك ، كنت لا تداري ولا تماري » ، قال الخطابي في شرح الحديث: (قوله: «لا تداري » يعني لا تخالف ولا تمانع، وأصل الدرء الدفع ، يصفه ﷺ بحسن الخلق والسهولة في المعاملة ، وقوله :« لا تماري » يريد المراء والخصومة) وجاء في «النهاية» : (والحديث الآخر «كان لا يداريء ولا يماري » أي لا يشاغب ولا يخالف وهو مهموز ، وروي في الحديث غير مهموز ليزاوج يماري . فأما المداراة في حسن الخلق والصحبة : فغير مهموز ، وقد يهمز). وفي « القاموس المحيط »: دارأته ، وداريتُه ودافقته ، ولاينته ضِدٌّ .

وعند الإمام أحمد ما يكشف عن زمن تلك المشاركة بين الرسول ﷺ والسائب رضي اللهعنه ؛ فقد أخرج في المسند بسنده عن السائب بن أبي السائب:« أنه كان يشارك رسول الله ﷺ قبل الإسلام في التجارة ، فلما كان يوم الفتح ، جاءه فقال النبي ﷺ : مرحباً بأخي وشريكي ، كان لا يداري ولا يماري . ياسائب قد كنت تعمل أعمالاً في الجاهلية لا تقبل منك ، وهي اليوم تقبل منك ، وكان ذا سَلف وصلةَ » . السلف هنا: القرض من غير ربا، إذ كانت العرب تسمي القرض : سلفاً. والصلة : صلة الأرحام ، وإكرام اليتيم ، والإحسان إلى الجار ، وما إلى ذلك من محاسن الأخلاق . وإنما لم تكن تقبل منه تلك الأعمال الخيِّرة في الجاهلية ، لأنه كان مشركاً ، والمشرك ينال أجر عمله في الدنيا ، بالثناء وما إليه ، وليس له في الآخرة من نصيب ، لأن قبول العمل والمثوبة عليه في الآخرة ، منوطان بالإيمان .

وجاء في رواية أخرى عند الإمام أحمد عن مجاهد عن السائب بن عبدالله قال : «جيء بي إلى النبي ﷺ يوم فتح مكة ، فجعل عثمان وغيره يثنون عليَّ ، فقال لهم رسول الله ﷺ : لا تُعلموني به ، قد كان صاحبي في الجاهلية ، قال : نعم يارسول الله ، فنعم الصاحب كنت ، قال : فقال : ياسائب انظر أخلاقك التي كنت

تصنعها في الجاهلية ، فاجعلها في الإسلام ؛ أقر الضيف ، وأكرم اليتيم ، وأحسن إلى جارك » وعند الحافظ ابن حجر في « الإصابة » وهذا : أي السائب بن عبدالله لعله السائب بن أبي السائب ، واسمه «صيفي بن عائذ » فإنه هو الذي كان شريك النبي ﷺ . وفي ترجمته لقيس بن السائب ، ذكر تفصيلاً لهذه المسألة ترى في موطنها.

وإذا كان الأمر كذلك في شأن الخلق الذي يدور حوله الحديث ، فإن الحرص على تخفيف العبء يوم التغابن ، يقتضي العزم على الوقوف عند الذي وجَّه إليه رسول الله ﷺ ونبه عليه ؛ وبذلك يفوز العامل بالتوجيه ، بما بشر به صلوات وسلامه عليه من النعيم في الجنة .

وفي تأكيد لما سبق : نذكر ما روى الطبراني في « المعجم الكبير » من رواية أبي الدرداء وأبي أمامة وواثلة بن الأسقع وأنس بن مالك رضي الله عنهم من حديث طويل « أن النبي ﷺ قال : « ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة في رباضها ووسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق .» الحديث .

وصلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخير ، وعلى آله وصحابته ، ومن أطاعه ، وأخذ نفسه بهديه القويم .

الذين تلفح وجوههم النار..

والمنتفعون بالوعيد

ما أجمل أن يديم المرء ـ والدنيا متاع الغـرور ، والآخرة خير وأبقى ـ استذكارَ ما ينبغي ، بل مـا يجب عمله لأثقال الموازين يوم القيـامة ، وأن يكون هو ممـن يؤتَوْنَ كتبهم بأيمانهم .

وإن تعجب: فَعَجَبٌ نومُ الهارب من النار عما يقتضيـه خوفه منها ، وهلعُه من الخلود فيها ، فهو ساهٍ لاهٍ لا يأبه للذكرى ، ولا يلتفت إلى قيمة الوقت .

وإن تعجب أيضـاً. فعجب نـوم طالب الجنـة ، عما يقتضية التطلـع الصادق إليها ؛من أخـذ النفس بعزائم الأمور ، والارتفاع بها إلى حيث النَّصَـبُ في طاعة الله ، ومخالطة الحقيقة المستنيرة التـي نبه عليها سيد النصحـاء وإمام المربين محمد عليه الصلاة والسلام ، من أن الجنة حُفّت بالمكاره وأن النار حُفَّتْ بالشهوات .

ثـم إن الله تبـارك وتعـالى لا يظلم أحـداً مـن خلقـه **﴿ولكن النـاس أنفسهم يظلمون﴾** لذا فهو ـ جل شأنه ـ لا يساوي في حكمه يوم القيامة ـ والهول مطبق ، والفزع آخذ بالنواصي ـ بين الذيـن آمنوا وعملوا الصالحات ، وجاهدوا في سبيله ؛ نصرةً لـلإسلام وأهلـه ، وبين المفسـدين في الأرض ، الصـادِّيـنَ عن سبيـل الله ، السالكين طريق الغـواية والضلالة **﴿ أم نجعل الـذين آمنوا وعملـوا الصالحات كالمفسديـن في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ ﴿ لا يستـوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾** . وياويح من أزرى بنفسه وظلمها فكان من أهل الشقوة في سواء الجحيم .

قال الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصـاري القرطبي في كتابه « التذكرة في

أحوال الموتى وأمور الآخرة»: « يروى أن لهب النار يرفع أهل النار حتى يطيروا كما يطير الشرر ، فإذا رفعهم أشرفوا على أهل الجنة ، وبينهم حجاب ، فينادي أصحاب الجنة أصحاب النار ﴿**أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين**﴾ فتردهم ملائكة العذاب بمقامع الحديد إلى قعر النار ، قال بعض المفسرين : هو معنى قول الله تعالى : ﴿**كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها**﴾ ذكره أبو محمد عبدالحق في كتاب« العاقبة » له: قال : ولعلك تقول: كيف يرى أهل الجنة أهل النار ، وأهل النار أهل الجنة؟ وكيف يسمع بعضهم كلام بعض ، وبينهم ما بينهم من المسافة وغلظ الحجاب ؟ فيقال لك : لا تقل هذا : فإن الله تعالى يقوي أسماعهم وأبصارهم، حتى يرى بعضهم بعضاً ، ويسمع بعضهم كلام بعض وهذا قريب في القدرة». وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «والله إن الأيدي لموثقة ، وإن الأرجل لمقيَّدة ، وإن اللهب ليرفعهم ، وإن الملائكة لتقمعهم » .

إنه لمشهد بالغ العظة عميق الدلالة ؛ عافانا الله من الغفلة ، وجنَّبنا طريق الغافلين ؛ فما أكثر السبل الشيطانية التي يُزلِق إلى اتِّباعها نسيانُ الله واليوم الآخر، ولا يلبث سالكها أن يكون يوم القيامة في عداد من قال الله جل جلاله فيهم: ﴿**ومن أظلَمُ مِمّن ذُكِّرَ بآيات ربه ثم أعرض عنها إنّا من المجرمين منتقمون**﴾ رروى أبو جعفر الطبري بسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ثلاث من فعَلهُنَّ فقد أجرم ؛ من عقد لواءً في غير حق ، أو عق والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره : فقد أجرم ، يقول الله تعالى ﴿ **إنّا من المجرمين منتقمون** ﴾ ».

ولاريب في أن من مظاهر الفلاح وعلائم التوفيق : أن يقطع المرء ما قد يكون بينه، وبين تلكم السبل ـ التي تنتهي به إلى سوء العاقبة ـ من أسباب ، وأن يتبصَّر فيما تكون عليه أحوال أهل الجحيم، يوم تحل نقمة الله بالمجرمين ، حيث لا ملجأ من الله إلا إليه ، وهو سبحانه عزيز ذو انتقام . أورد الحافظ ابن كثير عند

الكلام على قوله تعالى : في سورة المؤمنون: ﴿**تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون**﴾ ما روى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن جهنم إذا سيق لها أهلها يلقاهم لهبها .. ثم تلفحهم لفحة ، فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب » وقال ابن مردويه : حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى القزاز قال : حدثنا الخضر بن علي بن يونس القطان : قال : حدثنا عمر بن أبي الحارث بن الخضر القطان قال : حدثنا سعيد المقبُرِيُّ عن أخيه عن أبيه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في قول الله : ﴿**تلفح وجوههم النار**﴾ قال :« تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعقابهم » وها هو أبو عبدالرحمن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يُبرز بكلامه هذا المشهد على صورة تدل على شديد تأثره ، وتفاعله مع الحقيقة ؛ يقول في قوله سبحانه ﴿**وهم فيها كالحون**﴾ ألم تر إلى الرأس المُشَيَّطَ الذي قد بدا أسنانه وتقلصت شفتاه » ؟ ؟ المشَيَّط : الذي أُحرق بعضه . من شَيَّطَ اللحم أو الشعر إذا أحرق بعضه . جاء في النهاية لابن الأثير (فيه : إذا استشاط السلطان ، تسلط الشيطان ، أي إذا تلهب وتحرق من شدة الغضب ، وصار كأنه نار ، تسلط عليه الشيطان فأغراه بالإيقاع بمن غضب عليه ، وهو استفعل من شاط يشيط : إذا كاد يحترق .... وفي صفة أهل النار «ألم تروا إلى الرأس إذا شيط » من قولهم : شيَّطَ اللحم ،أو الشعَر أو الصوفَ إذا أحرق بعضه).

وما دام الأمر بهذه المثابة : فطوبى لمن انتفع بالذكرى ، وعمل على إنقاذ نفسه من أن يكون من أصحاب هذا المشهد ، الذي تنخلع له القلوب وتتقرَّح لهوله الأكباد! روى البيهقي في كتاب « البعث والنشور» بسنده عن عبدالله بن أبي الهذيل عن أبي هريرة في قوله عزوجل : ﴿**لواحة للبشر**﴾ قال : تلقاهم جهنم يوم القيامة ، فتلفحهم لفحة فلا تترك لحماً على عظم إلا وضعته على العراقيب » ورواه أبو نعيم الأصبهاني في « الحلية » ثم قال: لم يروه مرفوعاً متصلاً عن أبي سنان عن عبدالله ، إلا محمد بن سليمان الأصبهاني .

ولا تعجب بعد هذا ، إذا رأيت أهل القرب الفارّين إلى الله يناجون مولاهم ـ وقد ملأت الخشية قلوبهم ـ باكين خاشعين متضرعين ، لا يفتؤون يذكرون اليوم الآخر وما فيه ، وساعات الحشر وما تنطوي عليه من الأهوال العظام ؛ ومهما جهدوا في الطاعة يرون ـ بيقين ـ أن ما لله أكثر مما يؤتون . والماثلُ أمام ناظريهم :ما يرون أنه تفريط في جنب الله ، فهم ظِماءٌ أبداً إلى مغفرته ورحمته سبحانه وتعالى . جاء في مناجاة خاشعة للعابد الثقة القدوة ، عونِ بن عبدالله المتوفى سنة عشرين ومائة «..ومن سوءِ الحساب فعافني يوم تبعثني فتحاسبني ، ولا تُعرض عني يوم تُعَرِّفني بما سلف من ظلمي وجرمي ، وآمني يوم الفزع الأكبر ـ يوم لا تُهِمُّني إلا نفسي ـ وارزقني نفع عملي يوم لا ينفعني عمل غيري ...

سبحانك خالقي فأنا تائب إليك متبصْبِصٌ فاقبل توبتي ، واستجب دعائي، وارحم شبابي وأقلني من عثرتي وارحم طول عبرتي ، ولا تفضحني بالذي قد كان مني » .

متبصبص : طامع بالنجاة خائف من العذاب ، وفي « القاموس المحيط » تبصبص إذا تملَّق .

منازل الشهداء يوم القيامة..
حجة على القاعدين

من المشاهد التي لا يسأم العباد يوم القيامة التَّملِّيَ من رؤيتها ، والاعتبارَ العظيم بدلالاتها ، والاستنارةَ بنورها ... مشاهدُ قوافل النور ، من أولئك الذين قتلوا في سبيل الله صابرين محتسبين ، مقبلين غير مدبرين .. حيث لا يكون وجودهم في الجنة أنُفاً ، ولكنه امتداد طبيعي لما كانوا عليه بعد أن قضوا نحبهم صادقين تحت راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وسبحان من فضلُه هو الفضل ، وعطاؤه هو العطاء !

أخرج الإمام أحمد بسنده في المسند عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها وتأوي إلي قناديل من ذهب في ظل العرش ؛ فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم ، وحسن متقلبهم ، قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكُلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ؛ فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾ وأخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

هكذا يفرح هؤلاء البررة الطيبون الطاهرون ، الذين استعذبوا الموت في سبيل الله فقدّموا أرواحهم، برضا نفس ، وطمأنينة قلب، لإعلاء كلمة الله ، وهم يستبشرون بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، إذا كانوا على السَّنَن نفسِه

ـ بذلاً وإخلاصاً ـ أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. إنهم ـ بما بذلوا في سبيل الله ـ يأمنون يوم القيامة ، حيث يخاف الناس ، وتطمئن قلوبهم بعطاء الله وفضله، حيث الهَلَعُ مطبق على قلوب الظالمين الغافلين .

وهكذا يبصرهم الناس في حُلَلِ الكرامة في جنات عدن ، وقد كانت أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل. والملاحظ أن اللفظ عام ـ وإن كان السبب خاصاً ـ واستبشارهم بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، يؤكد ذلك العموم ، وأن الفضل كائن لكل من أخذ نفسه بطريق الجهاد الخالص في سبيل الله ، ولم يبخل بروحه على معركة من معارك الحق مع الباطل ... ومعلوم أن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ عند المحققين .

والرواية التي أوردها الإمام أحمد في المسند ـ وهي عند غيره أيضاً ـ تدل على أن الآيات تنزلت في قتلى أحد ، وهنالك روايات أخر ، تدل على أنها نزلت في « أهل بئر معونة » الذين غدر بهم المشركون وأخذوهم على غِرة ـ وهم يدعون إلى الله ـ. قال شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري : حدثنا محمد بن مرزوق قال : حدثنا عمربن يونس عن عكرمة قال : حدثنا ابن إسحاق بن أبي طلحة ، قال حدثني أنس بن مالك في أصحاب النبي ﷺ الذين أرسلهم نبي الله عليه الصلاة والسلام إلى أهل بئر معونة ـ قال : لا أدري أربعين أو سبعين ـ. وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري ؛ فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ ، حتى أتوا غاراً مشرفاً على الماء ، فقعدوا فيه ، ثم قال بعضهم لبعض : أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ ؟ فقال : ـــ أُراه ابنَ ملحانَ الأنصاري ـــ أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ. فخرج حتى أتى حيّاً منهم ، فاحتبى أمام البيوت ، ثم قال : ياأهل بئر معونة، إني رسول رسول الله إليكم ، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فآمنوا بالله ورسوله . فخرج إليه رجل مِن كِسْرِ البيت برمح ، فضرب به في جنبه حتى خرج من الشق الأخر ، فقال : الله أكبر فزت ورب الكعبة ؛ فاتبعوا أثره،

حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل . وقال : قال إسحاق: حدثني أنس بن مالك أن الله أنزل فيهم قرآناً ، رُفِعَ بعد ما قرأناه زماناً وأنزل الله **﴿ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءعند ربهم يرزقون﴾** . والذي في تاريخ الطبري وعند الحافظ ابن كثير نقلاً عن أبي جعفر : أنزل فيهم قرآناً : «بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه» ثم نسخت ، فرفعت بعدما قرأناه زمناً وأنزل الله : **﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾** الآيات . ونجد نحو هذا عند البخاري .

هذا : وليس ما يمنع ـ كما يذكر العلماء ـ أن يكون للآية أو الآيات أكثر من سبب نزول ..

ومن نافلة القول ، أن النصوص ـ على ما دلت عليه من كون الآيات نزلت في قتلى أحد ، وما حظوا به من الكرامة أو في قتلى بئر معونة ، وما أكرمهم الله ، جزاء ما نالهم من الأذى وأنهم قتلوا في سبيل الله ـ .. من نافلة القول التذكير بعظمة مشهدهم يوم القيامة ، وقد تبوأوا منازل الشهداء ، بعد الذي كانوا عليه من أن أرواحهم في جوف طير خضر ، في قناديل من ذهب معلقة بالعرش ، تسرح في الجنة حيث شاءت ، فكان المآل نوراً على نور !! وكم في ذلك من عظيم البشرى لمن يرتفعون بتضحياتهم وبذلهم في سبيل الله ، إلى أن يكونوا على سَنَن هؤلاء البررة المكرمين ، فيفوزوا بأن يكونوا كِفاءَ ذلك المشهد المشرق العظيم .

هذا والحديث رواه مسلم وأبوداود والحاكم في « المستدرك » والبيهقي في «السنن الكبرى » وفي « البعث والنشور » كما رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» وغيرهم .

ولفظ رواية مسلم كما جاءت بسنده عن مسروق قال : سألنا عبدالله (هو ابن مسعود) عن هذه الآية **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾** قال : أما إنا قد سألنا عن ذلك . فقال : « أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى

تلك القناديـل ، فاطّلع إليهم ربهم إطلالـة فقال : هل تشتهون شيئـاً ؟ قالوا : لا شيء نشتهي ، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنـا ، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لـن يُتركوا مـن أن يُسألـوا ، قالـوا : يـارب نريـد أن تردَّ أرواحنـا في أجسادنا ، حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا » .

و إذا كان الجهـاد ماضيـاً إلى يوم القيامـة ـ كما بيَّن رسـول الله ﷺ ـ فليهنـأ من يُكرمون بالتسامي إلى ساحـات الجهاد ، وتبوُّءِ منازل الشهداء ، وليستبشروا بنعمة الله وفضله وأن الله لا يضيع أجر المحسنين .

شهيد كلّمه ربه كفاحاً..
المشهد الأمانة .. والعطاء الكبير

ما كان لمؤمن ولا مؤمنة ، مهما تكاثفت العوائق ، واشتد ظلام المادة الصارفة عن استذكار اليوم العسير ، أن يصرُّوا على السلوك المردي في نسيان الله واليوم الآخر ، والغفلة عن أن من أبرز أركان الإيمان ــ بعد الإيمان بالله تعالى ـ التصديق الجازم اليقيني بيوم المعاد ، يومِ التغابن الذين يتلاوم فيه بنو البشر ؛ المحسنُ : لو أنه زاد في الإحسان ، والمسيءُ : لو أنه أقصر عن الإساءة ، لما يرون من الهول وثقل المسؤولية ، وأن النار من أحدهم قاب قوسين أو أدنى ؛ ذلك بأن كل صغيرة وكبيرة محصاة ، ويا ويح من يحرم الرحمةَ ويتدحرج ـ بعماه عن الحقيقة ، وضلالِه سواءَ السبيل ـ إلى جهنم وبئس المهادِ ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما هٰذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً** ﴾ وما أكثرَ ما أدى رسول الله الأمانةَ، في بيان ذلك على خير وجه .

أجل ما كان لمؤمن ولا مؤمنة ـ وعلمُ ذلك كلِّه عندهم ــ أن تضرب الغفلة بجِرانها على قلوبهم ، فينسوا تلك الحقائق التي أخبر عنها الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ، وهو يؤدي أمانة البيان للكتاب العزيز ، ويقصرِّوا في الاستعداد للموت ، ولما بعد الموت ، ويكونوا ممن هم في غفلتهم يعمهون .

روى الطبراني بإسناده إلى سعد بن جنادة قال : لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين ، نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء ، فقال النبي ﷺ : « اجمعوا من وجد عوداً فليأت به ، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به ، قال : فما كان إلا ساعةٌ حتى جعلناه ركاماً ، فقال النبي ﷺ : أترون هذا ؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل

منكـم، كما جمعتم هـذا ، فليتـق الله رجـل ، ولا يذنـبُ صغيرة ولا كبيرة ؛ فـإنها محصاة عليه » .

ألا إن هذا المشهـد الذي يخبر الـرسول ﷺ أنه كـائن يوم القيـامة ، جـدير أن يعمل عمله في الإيقاظ من الغفلة ، وشحـذِ الهمم في طاعة الله تعالى ، والحذرِ من الوقـوع في حبائل النفس الأمـارة بالسـوء والشيطان . ومبتغي رحمةِ الله ، وشفـاعةِ أهل الشفاعة يوم القيامة : عليه أن يعمل جاهداً في دار العمل، كيما يكون أهلاً لما يرجو مـن النجاة يوم تُحدِّث الأرض أخبارهـا ويقوم الأشهاد . ﴿ **إن الله لا يظلـم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾ .

ولقـد كـان من رحمة الله بهذه الأمـة : أن هيـأ لها ذلـك الجيـلَ الفريـد ، جيـلَ الصحـابة عليهـم الرضـوان ، الـذين يـرى فيهـم المرء خيرَ قدوة بعـد الرسـول المصطفـى عليه الصـلاة والسلام ، لأنهم كـانـوا أمناءَ في الأخـذ عنه ، أمنـاءَ في تطويـع سلوكهم لما علمـوا منه ـ صلـوات الله وسلامه عليـه ـ حتى إن أحـدهم ليرحل الليالِيَ والأيام الطوالَ من أجلِ التثبت من حديث عن رسول الله، يريد أن يعمل به ، كيما يفـوز ـ برحمة الله ـ بـالجنة وينجوَ من النـار، وكيما يبلِّغه الناسَ أداءً لحق التبليغ وعدم كتمان العلم . روى الإمام أحمد بسنده عن عبدالله بن محمد بن عقيل أنه سمع جـابر بن عبدالله رضي الله عنهما يقول : «بلغني حـديث عن رجل سمعه من رسـول الله ﷺ ، فاشتريت بعيراً ، ثم شـددت عليه رَحلي ، فسرت إليه شهراً ، حتى قدمـت عليه الشام ، فإذا عبدالله بن أُنيس ، فقلـت للبواب : قل له: جابر على الباب . فقال : ابنَ عبدالله ؟ فقلت : نعم . فخرج يطأ ثوبه ، فاعتنقني واعتنقته ، فقلت : حـديث بلغني أنك سمعتَه مـن رسول الله ﷺ في القصاص ، فخشيت أن تموتَ أو أموتَ قبل أن أسمعه . فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله عز وجـل الناس يوم القيامـة ـ أو قال العبـاد ـ عُراة غرُلاً بهُماً ــ قال: قلت: وما بُهْماً ؟ قـال: ليس معهم شيء . ثم يناديهم بصوت يسمعـه من بعُد كما يسمعه من قرُب : أنـا الملك أنا الديان ، لا ينبغي لأحد من أهـل النار أن يدخل

النار ـ وله عند أحد من أهل الجنة حق ـ حتى أَقُصَّهُ منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ـ و له عند رجل من أهل النار حق ، حتى أَقُصَّه منه ، حتى اللطمة . قال : قلنا : كيف ، وإنما نأتي الله عز وجل عراة غرلاً بهماً ؟ قال: بالحسنات والسيئات» . وجاء في رواية أخرى لأحمد عن جابر رضي الله عنه قال: «بلغني حديث في القصاص ـ وصاحبه بغزة ـ رحلت إليه مسيرة شهر» . وقال الإمام البخاري في كتاب العلم من الجامع الصحيح : «ورحل جابر بن عبدالله مسيرة شهر إلى عبدالله بن أنيس في حديث واحد » . وقال في كتاب التوحيد من الجامع أيضاً : «ويذكر عن عبدالله بن أُنيس الأنصاري ...» فذكر طرفاً من الحديث. وأخرجه أيضاً في كتابه « الأدب المفرد » . كما أخرج الحديث المذكور أبو يعلى في مسنده من طريق عبدالله بن محمد بن عقيل ، أنه سمع جابر بن عبدالله رضي الله عنهما يقول : «بلغني عن رجل حديثٌ سمعه من رسول الله ﷺ ، فاشتريت بعيراً ، ثم شددت رَحلي ، فسرت إليه شهراً . حتى قدمت الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس ...» فذكر الحديث .

وعبدالله بن أنيس بضم الهمزة مصغراً هو الجهني حليف الأنصار ، شهد رضي الله عنه العقبة وما بعدها ، وكانت وفاته بالشام سنة أربع وخمسين للهجرة .

ولكم تَقَرُّ عين المؤمن ـ في دار البقاء ـ بما يغمره من العطاء الجزيل ، إن هو أقبل على الله ، وقد عمل الصالحات ، ولم يتوانَ عن القيام بما يستطيع من أعمال البر والجهاد في سبيل الله . وهنيئاً ثم هنيئاً ، لأولئك الذين رُزقوا أن يكونوا من أهل القُرب من الله عز وجل ، لاستدامة إقبالهم عليه سبحانه مخلصين منيبين، راجين ثوابه ، خائفين غضبه وعقابه ، في يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار . جاء في واحد من أسباب نزول قول الله تعالى : ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾ ـ وقد رأينا سببين من قبل ـ ما روى ابن مردويه من طريق علي بن عبدالله المديني عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «نظر إليَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام ذات يوم فقال : ياجابر ، مالي أراك

مهتماً؟ قال : قلت يارسول الله استُشهِد أبي وترك ديناً وعيالاً ، قال : ألا أخبرك ؟ ما كلَّم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب ، وإنه كلَّم أباك كفاحاً ــ قال عليٌّ : الكفاح : المواجهة ـ فقال : سلني أعطك . قال: أسألك أن أُردَّ إلى الدنيا ، فأُقتلَ فيك ثانيةً ، فقال الرب عز وجل : إنه سبق مني القول أنهم إليها لا يرجعون ، قال : أي رب فأبلغْ مَن ورائي . فأنزل الله ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً...﴾الآية ».

قال الحافظ ابن كثير : ثم رواه ـ أي ابن مردويه ـ من طريق أخرى عن محمد بن سليمان بن سَليط الأنصاري ، عن أبيه عن جابر به نحوه . وكذا رواه البيهقي في « دلائل النبوة » من طريق علي بن المديني به. وأخرجه الترمذي وابن ماجة من حديث جابر وسنده حسن .

هذا : ونقع في بعض النصوص على مكرمة أخرى لهذا الصحابي الجليل ؛ فقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن أبا جابر ــ وهو عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري رضي الله عنه ــ قتل يوم أُحدٍ شهيداً . قال البخاري : وقال أبو الوليد عن شعبة عن ابن المنكدر قال : سمعت جابراً قال : « لما قُتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه ، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهونني والنبي ﷺ لم ينهَ ، وقال النبي ﷺ : لا تبكه ما زالت الملائكة تُظلُّه بأجنحتها حتى رفع » إنها الأمانة في أعناق المسلمين أن يتخذوا من هذه الواقعة وأمثالها باعث استئناف واع لطريق الجهاد في سبيل الله ـ وما أكثر ميادينه ـ، وفي ذلك خير الدنيا بالتمكين، وخير الآخرة بالفوز بما يفوز به المجاهدون المخلصون .

إنها لمناقب عظيمة لهذا الصحابي المجاهد الذي رزق الشهادة يوم أُحُد ، ولسوف يشهد العباد نورها يوم يوفي الله عباده دينهم الحق **﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾** وهي في الوقت نفسه بشارة أيُّ بشارة لأهل الإيمان المجاهدين ، الذين يرجون الله واليوم الآخر **﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾** .

وفي خاتمة المطـاف : أحمد الله على كريـم فضله وعونـه . وهذا مـا يسَّر الله من القول في القيامـة ؛ عظاتِها ومشاهدِها في السنـة النبوية المطهرة ، بدءاً مـن القيامة الصغرى وسـؤال القبر ، والسنة بيـان الكتاب الكريـم ـ مصحوبـاً ذلك بطـائفة مباركـة من سيَر وكلامِ أبناء الآخـرة أولي النهى الذيـن يؤرقهم ما يمكـن أن تكون عليه الحال يوم الحساب .

ولعلّ الله يفتح ـ مستقبلاً ـ باستكمال نقص وتلافي تقصير .

وهو المسؤول أن يتفضّل علينا جميعـاً بغفر الزلات وتكفير السيئات ، وأن يجعل هذا الجهد المتواضع من ذي البضاعة الزجاة في العلم والعمل ، زلفى لمرضاته إنه سميع مجيب .

وصلى الله وسلـم وبارك على مـن أرسله الله رحمة للعـالمين وعلى آلـه وصحابتـه الطيبين الطاهريـن ، ومن تبعهم بإحسان وصدق في الاستمسـاك بنهجهم إلى يوم الدين .

فهارس

الآيات القرآنية والأحاديث النبوية

وضعها

سليمان مسلم الحرش

فهرس الآيات القرآنية

الآيـة	رقم الصفحة
إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ... (الصف: ٤)	٣/ ١٥٥
إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق ... (القمر: ٥٤)	١/ ٤٣٨ـ٢/ ٢٩٥
إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون . (الدخان: ٥١)	٢/ ١٧، ٣٦١
إن يوم الفصل كان ميقاتاً . (النبأ: ١٧)	٢/ ٦٥، ١٣٣
إنا أعطيناك الكوثر . (الكوثر: ١)	١/ ٣٢١، ٣٢٣، ٣٧٢، ٣٧٧
إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً . (الواقعة: ٣٦)	٢/ ٤٢٢
إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً . (المزمل: ٥)	٢/ ١١
إن عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال... (الأحزاب: ٧٢)	٣/ ٢٢٣، ٢٢٥
إنا من المجرمين منتقمون . (السجدة: ٢٢)	٣/ ٣٣٠
انظرونا نقتبس من نوركم .. (الحديد: ١٣)	١/ ٢٤٠
إنك من تدخل النار فقد أخزيته (آل عمران: ١٩٢)	٣/ ٢١٣
إنك ميت وإنهم ميتون . (الزمر: ٣٠)	١/ ٧٠
إنكم ماكثون . (الزخرف: ٧٧)	٣/ ٥٤
إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ... (الأنبياء: ٩٨)	٣/ ٢٦٢

الآيـة	رقم الصفحة
إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً.. (العنكبوت: ٢٥)	٢/ ٣٣٨
إنما يخشى الله من عباده العلماء. (فاطر: ٢٨)	٣/ ٤٧، ١٠١، ٢٣٥
إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت .. (الأحزاب: ٣٣)	١/ ٤٤١
إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب. (الزمر: ١٠)	١/ ٣٦٩
إنها ساءت مستقراً ومقاماً. (الفرقان: ٦٦)	٢/ ٤٣٢
إنهم كانوا يسارعون في الخيرات .. (الأنبياء: ٩٠)	٢/ ١٢٦ـ ٣/ ٣٨
أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى. (القيامة: ٣٤)	٣/ ١١
أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون. (البقرة: ٨٢)	٣/ ٣٤٠
أولئك الذين امتحن الله قلوبهم .. (الحجرات: ٣)	٣/ ٢٩٩
أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا .. (الأحقاف: ١٦)	٢/ ٣٩، ٤٠
أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات .. (آل عمران: ١٣٦)	٣/ ١٢٩
أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون. (المؤمنون: ٦١)	٣/ ٣٨
أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى.. (غافر: ٥٠)	٣/ ٥٤
أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة .. (يس: ٧٧)	١/ ١٧

الآيـة	رقم الصفحة
حرف الباء	
بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى . (الأعلى : ١٧)	٣/ ١٢٤
بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً . (الفرقان : ١١)	٢/ ١١٧
حرف التاء	
تتجافى جنوبهم عن المضاجع .. (السجدة: ١٦)	١/ ١٩٥ـ ٢/ ٣٥، ٣٦ـ ٣/ ٢٧، ٢٨، ٣٢.
ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا .. (الشورى : ٢٢)	٣/ ١٣٩
تلفح وجوههم النار .. (المؤمنون : ١٠٤)	٣/ ١٤، ٣٣١
تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار . (الرعد : ٣٥)	٣/ ١٢٠
حرف الثاء	
ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم (الصافات : ٦٧)	٣/ ١٤٩
ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون . (الزمر : ٣١)	١/ ٦٩
ثم لا يموت فيها ولا يحيا . (الأعلى : ١٣)	٢/ ٣٦٨

الآيـة	رقم الصفحة
فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم .. (آل عمران : ١٩٥)	٣/ ٢٣٢
فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . (الصافات : ٥٠)	٢/ ٢٩٢
فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى . (الليل : ٥)	٢/ ٣٠١
فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم .. (النازعات : ٣٧)	١/ ٣٥٦ـ ٢/ ٢١
فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف ..(الانشقاق : ٧)	١/ ١٧٩، ١٨١، ٢٥١
فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول .. (الحاقة : ١٩)	٣/ ١٧٣
فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية . (القارعة : ٦)	١/ ١٩٥ـ ٣/ ٢٧٧
فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . (طه : ١٢٤)	٢/ ٢٥٢
فإنما هي زجرة واحدة . (الصافات : ١٩)	١/ ١١٠
فاليوم ننساهم ... (الأعراف : ٥١)	١/ ٢٠٢
فبئس مثوى المتكبرين . (الزمر : ٧٢)	٢/ ٤٠٥
فسوف يحاسب حساباً يسيراً . (الانشقاق : ٨)	١/ ١٨٠
فطرة الله التي فطر الناس عليها . (الروم : ٣٠)	٣/ ١٥٨
فكبت وجوههم في النار . (النمل : ٩٠)	٣/ ٣٠

الآيـة	رقم الصفحة
فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه . (الأنبياء: ٩٤)	١/ ١٩١
فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك .. (مريم: ٢٤)	١/ ٤٤٥
فهم في روضة يحبرون . (الروم: ١٥)	٢/ ٣٣٦، ٣٧٦، ٤١٩
فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول.. (مريم: ٦٨)	٣/ ٦٣
فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون .. (غافر : ٤٥)	١/ ٣٠ـ٣٥
في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه... (النور: ٣٦)	١/ ٣٨١ـ٢/ ٤٣٠
في عيشة راضية . (الحاقة: ٢١)	٢/ ٢٥٠
فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم... (الروم: ٥٧)	١/ ٢٧٠
فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء .. (الحاقة: ١٥)	١/ ١٥٥

الآيـة	رقم الصفحة
حرف القاف	
قل هو الله أحد . (الإخلاص: ١)	٢/٢٤٦
قل يا أهل الكتاب لاتغلوا في دينكم.. (المائدة: ٧٧)	١/٤٠٤
قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير .. (النساء: ٧٧)	٣/ ٦٥ـ٢٥٣
قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا (يونس: ٥٨)	٢/ ٢٣٤
قل أمر ربي بالقسط . (الأعراف: ٢٩)	٣/ ٢٠٥
قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون .. (الفرقان: ١٥)	٢/١٧٨
قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . (المائدة: ١٥)	٢/ ١٣٥
قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها . (الشمس: ٩)	١/ ٢٣١
قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون. (المؤمنون: ١)	١/٣٥٢
قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين.. (غافر: ١١)	١/ ٥٠
قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا	٢/ ١٤٣

الآيـة	رقم الصفحة
بمثل هذا القرآن ... (الإسراء: ٨٨)	
كان على ربك وعداً مسؤولاً . (الفرقان: ١٦)	٢/ ١٧٩
كأنهن بيض مكنون . (الصافات: ٤٩)	٢/ ٤٢٠
كتب ربكم على نفسه الرحمة .. (الأنعام: ١٢)	٢/ ١٥
كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار . (غافر: ٣٥)	٢/ ٤٠٥
كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم .. (آل عمران: ١٨٥)	١/ ٦،١٠ـ٢/ ٢٥٧
كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . (المطففين: ١٥)	٢/ ٣٥٧، ٣٧١، ٣٧٢
كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة . (القيامة: ٢٠)	١/ ٣٥٥
كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها . (السجدة: ٢٠)	٣/ ٢١٣،٣٣٠
كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية . (الحاقة: ٢٤)	١/ ٣٦١ـ ٢/ ٢٥١ ـ ٣/ ١٨٤
كما بدأنا أول خلق نعيده . (الأنبياء: ١٠٤)	١/ ١٢٧،١٢٩،١٣٠،١٣١
حرف اللام	
ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة . (النحل: ٢٥)	٣/ ١٠٦

الآيـة	رقم الصفحة
ليس لهم طعام إلا من ضريع . لايسمن .. (الغاشية : ٧)	٣/١٤٩
لتركبن طبقاً عن طبق . (الانشقاق : ١٩)	١/٥٩
لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه.. (التوبة : ١٢٨)	١/٤٣
لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة .. (الفتح : ١٨)	٢/٢٢١ـ٣/٢٦٩
لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . (عبس : ٣٧)	١/١٢٨، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥ ـ٢٨٦/٣، ١٦٨، ١٦٩
للذين أحسنوا الحسنى وزيادة . (يونس : ٢٦)	٢/٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٦٨، ٣٦٩ـ٣/٣٠٦
لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . (غافر : ١٦)	١/٢٩٩ ـ ٢/١٤
لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم . (الأنعام : ١٢٧)	٢/١٥٧
لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد . (ق : ٣٥)	٣/٢٧١
لوّاحة للبشر . (المدثر : ٢٩)	٣/٣٣١
ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة.. (النحل : ٢٥)	٣/١٠٦

حرف الميم

الآيــة	رقم الصفحة
هل امتلأت وتقول هل من مزيد . (ق: ٣٠)	٢/ ٥ـ٣/ ١٣٦
هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن .. (الإنسان: ١)	٣/ ٢٣
هاؤم اقرؤا كتابيه . (الحاقة: ١٩)	١/ ٢٣٣ـ٣/ ١٧٤
هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . (المرسلات: ٣٨)	٣/ ٨٢
هذان خصمان اختصموا في ربهم (الحج: ١٩)	٣/ ٢٨٠
حرف الواو	
واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله .. (البقرة ٢٨١)	١/ ١١٦
واجعلنا للمتقين إماماً . (الفرقان: ٧٤)	٣/ ٢٢١
وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين (الفرقان: ١٣)	١/ ١٤ـ٣/ ٤٢
وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً و .. (الإنسان: ٢٠)	
وإذا السماء كُشِطت . وإذا الجحيم سُعِّرت .	٢/ ٢٩١ـ٣/ ٢٣
(التكوير: ١١ـ١٢)	٣/ ١٦٥
وإذا الصحف نُشِرت . (التكوير: ١٠)	
وإذا العشار عطلت . (التكوير: ٤)	٣/ ١٦٤
وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين .	١/ ٧٢
(الشعراء: ٩٠)	٣/ ٣١، ٨٩، ٢١٧
وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد .. (ق: ٣١، ٣٢)	٢/ ٣٨٧

الآيـة	رقم الصفحة
وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته .. (النساء: ١٥٩)	١/ ٧١
وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً . (مريم: ٧١)	٢/ ٢٢٠ـ٣/ ٢٦٠ ، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠
وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه . (الأنعام: ١٥٣)	٢/ ١٣٤
وأنا به زعيم . (يوسف: ٧٢)	٣/ ٣٢٦
وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب . (إبراهيم: ٤٤)	١/ ٢٧٠ـ٣/ ٣١٧
وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر . (غافر: ١٨)	٣/ ٥١، ١٣٩
وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر .. (مريم: ٣٩)	٢/ ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٥
وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس .. (النحل: ٤٤)	١/ ٣٣
وإنما توفون أجوركم يوم القيامة .. (آل عمران: ١٨٥)	٢/ ٢٥٧
والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس .. (آل عمران: ١٣٤)	٣/ ١٣٦

الآيــة	رقم الصفحة
والطور وكتاب مسطور في رق منشور . (الطور: ١ـ٣)	٢/ ٢٣
والسابقون السابقون أولئك المقربون . (الواقعة: ١١)	٢/ ٢٤٤
وبالآخرة هم يوقنون . (البقرة: ٤)	١/ ٩
وترى كل أمة جاثية .. (الجاثية: ٢٨)	١/ ١٣٦
وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد . (إبراهيم: ٤٩)	٣/ ٧٣
وتزودوا فإن خير الزاد التقوى . (البقرة: ١٩٧)	١/ ١٤، ٥٥
وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون . (الزخرف: ٧٢)	٢/ ١٥، ٢٥٠، ٢٧٣، ٢٧٤
وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون . (السجدة: ١٤)	٣/ ١٢
ورضوان من الله أكبر (التوبة: ٧٢)	٢/ ١٠٤
وجاءت سكرة الموت بالحق . (ق: ١٩)	١/ ٥٨
وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم .. (الحج: ٧٨)	٣/ ٦٢
وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة . (عبس: ٣٨)	٢/ ٤٤٦

الآيـة	رقم الصفحة
يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن .. (المعارج: ٨)	٣/ ١٦٧
يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً . (الانفطار)	١/ ٢٩،٢٠٨ـ٣/ ٢٧٨
يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة .. (غافر: ٥٢)	٣/ ٧٩
اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم .. (يٓس: ٦٥)	١/ ٢١٢، ٢١٨
يوم ندعوا كلَّ أناس بإمامهم فمن أوتي .. (الإسراء: ٧١)	٣/ ١٧٢
يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه .. (هود: ١٠٥)	٣/ ١٠٥
يوم يقوم الناس لرب العالمين . (المطففين: ٦)	١/ ١٤٨ـ٣/ ١٧٦، ١٧٧، ١٨٧، ١٨١
يوم يُكشف عن ساق . (القلم: ٤٢)	١/ ١٠٦
يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر .. (النبأ: ٤٠)	١/ ١٨٨، ٣٠٠، ٤٢٧ـ ٢/ ٢٤، ١٥٥ـ٣/ ٢٣٤، ٢٧١
يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً .. (النبأ: ١٨)	١/ ١١٠
يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . (الحاقة: ١٨)	١/ ٤٥، ١١٦
يومئذ يتبعون الداعي لا عوج .. (طه: ١٠٨)	١/ ١٢٢

فهرس
الأحاديث النبوية

الحديث	رقم الصفحة
أيها الناس مثلي ومثلكم مثل قوم ..	٢/ ١٤١
الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعلة ..	٢/ ١٨ـ ٣/ ٣٧
الجنة والزيادة: النظر إلى وجه الله عز وجل ..	٢/ ٣٢٦
الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ..	٣/ ٣٤
الخيمة درة طولها في السماء ستون ميلاً ..	٢/ ٢٠٢
الشهداء على بارق نهر بباب الجنة ..	٢/ ٤٢٢
الصلاة على مواقيتها قلت وماذا يا نبي الله ..	٢/ ٢٩٧
الصراط جسر جهنم ..	١/ ٢٢٧
القتل ثلاثة: رجل مؤمن قاتل بنفسه ..	٢/ ٣١٦
القتلى ثلاثة: رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله ..	٢/ ٣١٧ـ ٣/ ٢٩٩
القبر أول منازل الآخرة ..	١/ ٢٢، ٤٥
النظر إلى وجه الرحمن عز وجل ..	٢/ ٣٢٥

* * * * * *

الحديث	رقم الصفحة
حرف الراء	
رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً ..	٣/ ٢٠٢
رأيتني دخلت الجنة فإذا بالرميصاء ..	٢/ ١٢٦
رحم الله عبداً كانت لأخيه عنده مظلمة ..	١/ ١٢٠، ١٨٥ ـ ٣/ ٢٩٥
حرف السين	
سابق رسول الله بين الخيل التي ضمرت ..	٢/ ٥٤
سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل : (يوم تبدل الأرض) ..	١/ ٢٣٢
سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن ..	١/ ١٠٠
سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لاظل إلا ظله	١/ ١٥٦، ١٥٧
سبقك بها عكاشة ..	٢/ ٢١٢
سحقاً سحقاً ..	١/ ٣٧٧
سددوا وقاربوا وأبشروا واعلموا أن ..	٢/ ٩٠
سل واستفهم من قال لا إله إلا الله ..	٣/ ٢١
سلوا الله لي الوسيلة ..	١/ ٢٨٨
سمعت كلامكم وعجبكم أن إبراهيم خليل الله	٢/ ٢٣٣
سيد الاستغفار أن يقول : اللهم أنت ..	٢/ ١١١ ـ ٣/ ١٠٩
سيكون أقوام يعتدون في الدعاء ..	٢/ ١٩٨
سيكون قوم يعتدون في الدعاء ..	٢/ ١٩٩

حرف الكاف

الحديث	رقم الصفحة
حرف الميم	
ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع ..	٢/٣١٣
ما الدنيا في الآخرة إلا مثل مايجعل أحدكم ..	٣/٢٥٢
ما استجار عبد من النار سبع مرات ..	٢/١٧٨
ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ..	١/٤٩
ما بال رجال يقولون: إن رحم رسول الله ﷺ ..	١/٣٨٦
ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور ..	١/٨٣
ما بين النفختين أربعون ..	١/١٠٨،١٠٩،١١٠
ماتقول في الصلاة ..	٢/١٩٦
ما حديث بلغني عنكم ..	١/٣٦٨
ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط ..	٣/٨
ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه ..	١/ ٢٠،٢٢،٤٥
ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في حي ..	١/٤٢٩
ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي ..	١/٤٢٨،٤٢٩، ٤٣٠
ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة ..	٣/٢٧٧
ما غـرت على أحد من أزواج النبي ﷺ مـا غرت على خديجة ..	١/٤٣٧
ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على..	١/٤٤٦
ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة	١/٤٣٦
ما قتلت نفس ظلماً الا كان على ابن آدم ..	٣/١٠٧

الحديث	رقم الصفحة
من نوقش الحساب هلك ..	٢٥١/١
من ولد له ثلاثة أولاد في الاسلام فماتوا ..	٣١٦/٣
من ولي من أمر الناس شيئاً فاحتجب ..	١٩٧/٣
من يدخل الجنة ينعم لا ييأس ..	٢/ ٤٤، ١٣٠، ٢٧٤
من يردهم عنا وله الجنة ..	٢٦٦/٢ـ٣/٢٨٦
من يردهم عنا وهو رفيقي في الجنة ..	٢٦٥/٢
من يشتري بقعة آل فلان ..	٢٠٢/٢
من يشتريها ويجعل دلوه فيها مع دلاء المسلمين ..	٢٠٢/٢
من يصعد الثنية ثنية المرار ..	٢١٩/٢
منهم من تأخذ النار إلى كعبيه ..	٥٦/٣
المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة ..	٣٨٤/٢
موضع سوط في الجنة خير من الدنيا ..	٢٥٦/٢
موعدكم حوضي ..	٣٤٣/١
حرف النون	
نادى رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ..	٢٦١/٢
نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين ..	٤٤٢/٢
ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ..	٤٤١/٢
ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين ..	٤٤١/٢
ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جزء واحد ..	٤٤١/٢

* * * * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * * * * * *